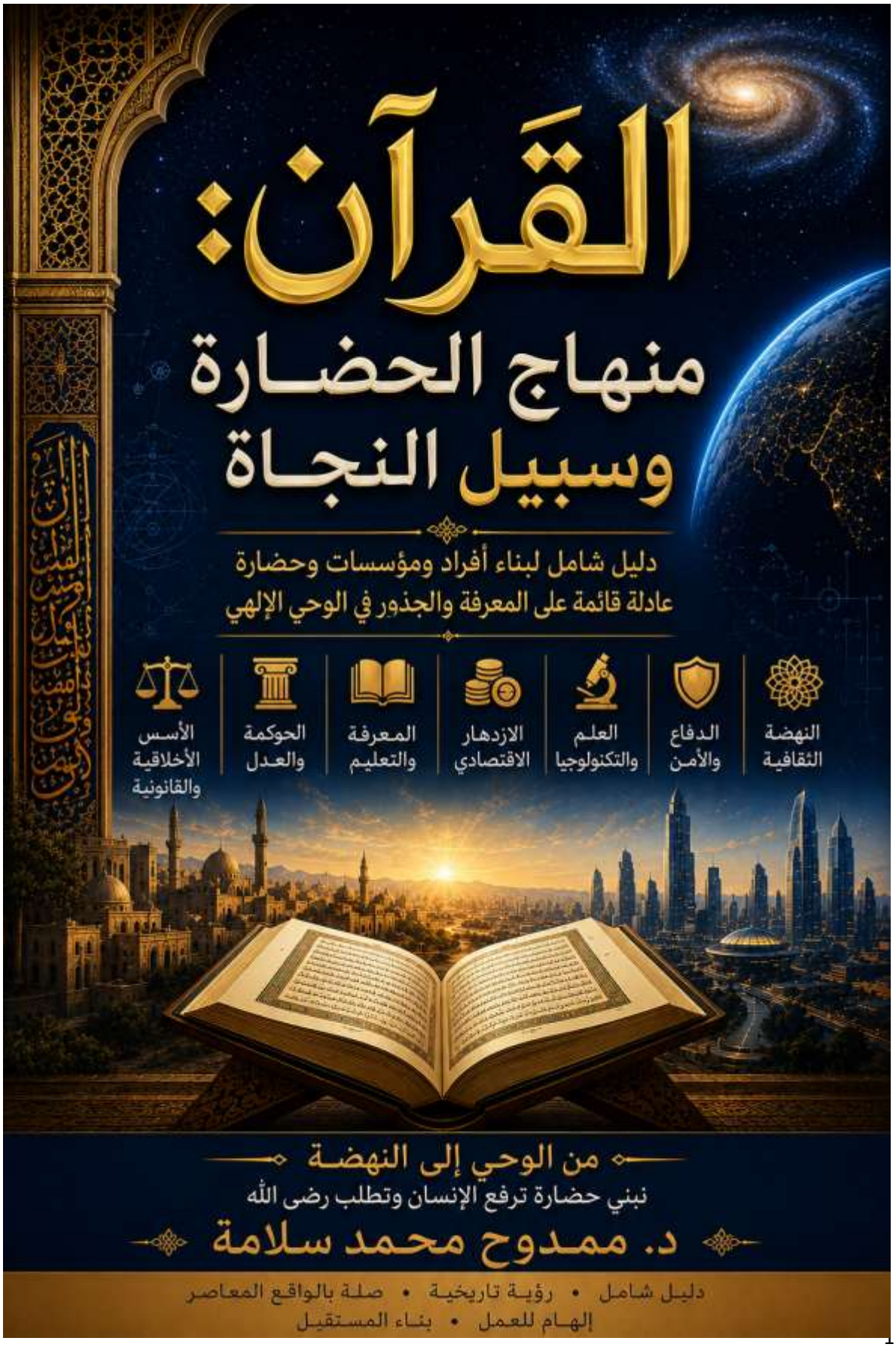
القرآن:
منهاج الحضارة
وسبيل النجاة
دليل شامل لبناء أفراد ومؤسسات وحضارة
عادلة قائمة على المعرفة والجذور في الوحي الإلهي
النهضة الثقافية
الدفاع والأمن
العلم والتكنولوجيا
الازدهار الاقتصادي
المعرفة والتعليم
الحوكمة والعدل
الأسس الأخلاقية والقانونية
من الوحي إلى النهضة
نبني حضارة ترفع الإنسان وتطلب رضى الله
د. ممدوح محمد سلامة
دليل شامل • رؤية تاريخية • صلة بالواقع المعاصر
إلهام للعمل • بناء المستقبل

عن الكتاب

ماذا لو كانت التحديات التي يواجهها العالم الإسلامي اليوم، من ضعف الحكم والتخلف الاقتصادي إلى تراجع الريادة العلمية وتآكل الثقة الثقافية، ليست نتيجة الاتباع المفرط للقرآن، بل نتيجة عدم الاتباع الكافي له؟

القرآن: منهاج الحضارة و سبيل النجاة يُقدّم حجة مؤصّلة تاريخياً وراهنة بالإلحاح: أن القرآن ليس دليلاً للتقوى الشخصية والعبادة الشعائرية فحسب، بل مخطط حضاري شامل يعالج كل ميدان من ميادين الحياة الإنسانية، من الحكم والاقتصاد إلى العلم والدفاع والتعليم والثقافة.

والتاريخ قد أثبت القوة التحويلية لذلك المخطط. فالعصر الذهبي للحضارة الإسلامية نشأ حين أخذ العلماء والفقهاء والقادة دعوة القرآن إلى المعرفة والعدل والاستقصاء بجدية تامة، فأنتجوا إنجازات في الرياضيات والطب والبصريات والفلك والفلسفة رسمت مسار الحضارة الإنسانية لقرون.

المخطط لم يتغير. والحاجة إليه لم تزد إلا إلحاحاً.

هذا الكتاب دعوة لإعادة اكتشاف القرآن، لا بوصفه كتاباً يُتلى فحسب، بل دليلاً لبناء الأفراد والمؤسسات والحضارات، ومواصلة رحلة لا تزال في منتصف طريقها.

Contents

مقدمة المؤلف 9
تمهيد : لماذا يُهمّنا القرآن؟ 11
القرآن روحٌ ونور 11
الركائز السبع للحضارة القرآنية 12
خارطة الكتاب 13
القسم الأول: الأُسُس 15
الركائز السبع للحضارة القرآنية 15
الفصل الأول: الأساس الأخلاقي والقيمي 16
أولًا: العدل والإنصاف 16
ثانيًا: الإحسان في السلوك 16
ثالثًا: الصدق والأمانة 17
رابعًا: التواضع واجتناب الكبر 17
خامسًا: البر بالوالدين والأقارب والمحتاجين 17
سادسًا: العفو والصبر ومقابلة السيئة بالحسنة 18
سابعًا: الكرامة الإنسانية والمساواة والتماسك الاجتماعي 18
ثامنًا: ميثاق شامل للأخلاق: آيات سورة الإسراء 19
تاسعًا: التعريف الجامع للبر 19
خاتمة: الأخلاق جذر الحضارة 20
الفصل الثاني: الحكم والعدالة 21
أولًا: الأمر الإلهي بالعدل في الحكم 21
ثانيًا: الشورى ومبدأ الحكم التشاركي 22
ثالثًا: مساءلة الحكام 23
رابعًا: الوفاء بالعهود والعقود والمعاهدات 24
خامسًا: تحريم الفساد والرشوة 24
سادسًا: المساواة أمام القانون 25
خاتمة: الحكم أمانة مقدسة 26
الفصل الثالث: المعرفة والتعليم 27
أولًا: أول أمر إلهي في التاريخ 27
ثانيًا: مكانة أهل العلم 27
ثالثًا: لزوم طلب العزيد من العلم 28
رابعًا: التأمل في آيات الله في الكون والخلق 28
خامسًا: التدبر والتفكير النقدي 30

سابعًا: العلم فريضة جماعية 31
خاتمة: العلم عبادة وحضارة 31
الفصل الخامس: العلم والتقنية 32
أولًا: الإنسان مستخلَف في الأرض 32
ثانيًا: أصل الكون والأرض 33
ثالثًا: دورة المياه والزراعة 33
رابعًا: علم الأجنة 33
خامسًا: علم الفلك والأجرام السماوية 34
سادسًا: علم المحيطات والحاجز بين البحرين 35
سابعًا: الانتفاع بالموارد الطبيعية: الحديد والبحر وخيرات الأرض 35
ثامنًا: الدقة والإتقان في الصناعة والهندسة 35
تاسعًا: أصل المعرفة: آدم والأسماء 36
عاشرًا: الخشية العلمية أسمى صور الوعي بالله 36
خاتمة: العلم عبادة 36
الفصل السادس: الدفاع والأمن 38
أولًا: حرمة الحياة: الأساس الذي يقوم عليه الأمن 38
ثانيًا: حق الدفاع عن النفس 39
ثالثًا: الأمر بالإعداد لدفاع منيع 39
رابعًا: السلام فريضة واجبة 40
خامسًا: صون النظام الداخلي وتحريم الفساد 41
سادسًا: الوحدة ضرورة أمنية 41
سابعًا: أخلاقيات السلوك في القتال 42
ثامنًا: الثبات والشجاعة فضيلتان حضاريتان 42
خاتمة: الأمن حارس الحضارة 43
الفصل السابع: الازدهار الثقافي والفني 44
أولًا: الجمال صفة إلهية وهبة ربانية 44
ثانيًا: التذوق الجمالي للعالم الطبيعي 45
ثالثًا: تنوع اللغات والثقافات آياتٌ إلهية 45
رابعًا: القرآن تحفة أدبية وفنية 46
خامسًا: فن القصة والحِكَم الأمثال 47
سادسًا: العمارة وفن أماكن العبادة 47
سابعًا: الثقافة الفكرية: الفلسفة والحكمة وحياة العقل 48
ثامنًا: التعبير الإبداعي في إطار الضوابط الأخلاقية 48

الجسر بين القسمين: من الأُسُس إلى التطبيق 50
القسم الثاني: التطبيق 51
القرآن حياةً معاشة: من المبادئ إلى اليوميات 51
الفصل الثامن: في معنى أول أمر إلهي: اقرأ 52
الكتاب الأول: كتاب الخلق (العلوم الطبيعية) 53
الكتاب الثاني: كتاب الذات الإنسانية (العلوم الإنسانية والاجتماعية) 53
الكتاب الثالث: كتاب القلم (المعرفة الإنسانية المتراكمة) 54
ثلاثة كتب ومؤلف واحد 54
تحذير: المعرفة الحقيقية مقابل وهم القراءة 54
الفصل التاسع: الشفافية في المعاملات المالية 56
الطابع الجماعي للثروة 56
نطاق الباطل: ما هو أوسع من مجرد اللاقانونية 57
اتهام الضمير: وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ 58
بداية الإصلاح 59
الفصل العاشر: النموذج القرآني للتعليم: دروس من لقمان 60
الخطوة الأولى: ابدأ بالكون لا بالقواعد 60
الخطوة الثانية: تأسيس التوحيد بالعقل لا بالخوف 61
الخطوة الثالثة: قدّم الله من خلال رفقه لا قوته وحسب 61
الخطوة الرابعة: قدّم الممارسة الدينية بعد الشخصية لا قبلها 62
الخطوة الخامسة: الشخصية والسلوك في العالم 62
منهج لقمان التعليمي 63
ما يعنيه هذا للوالدين والمعلمين اليوم 63
خاتمة: التعليم عبادة 64
الفصل الحادي عشر: القرآن محرّكًا للفضول والبحث 65
أولًا: تحدي القرآن للعقول الخاملة 65
ثانيًا: الأوامر بالسياحة في الأرض والملاحظة والبحث 65
ثالثًا: لغة الاستفسار: المعجم الفكري للقرآن 66
رابعًا: التساؤل طريقًا إلى الإيمان: نموذج إبراهيم عليه السلام 67
خامسًا: الكون حقل متّسع للآيات 68
سادسًا: وحدة المعرفة: لا فصل بين الدنيوي والديني 68
سابعًا: شجاعة التساؤل 69
خاتمة: دع القرآن يُشعل عقلك 70
الفصل الثاني عشر: الأمن والدفاع والضرورة التكنولوجية 71

١. الأركان الثلاثة للتأييد الإلهي 71
٢. الحديد أساس الحضارة الصناعية 72
٣. الأمر ببلوغ أقصى الاستعداد 73
٤. قصص القرآن نماذج للاستقصاء التكنولوجي 74
٥. التكامل بين الإيمان والقدرة التكنولوجية 76
خاتمة: الأمة التي ينصرها الله 77
الفصل الثالث عشر: رؤية الجمال في كل شيء: ثقافة الإحسان في القرآن الكريم 78
١. أن تكون جمالاً: دعوة القرآن إلى حسن الخلق 78
٢. معيار التميز: طلب الأفضل لا الأدنى 80
٣. النظافة والنظافة الشخصية: التعبير المادي عن الجمال 80
٤. ملخص النبي صلى الله عليه وسلم للجمال 83
خاتمة: حياة الإحسان 83
الفصل الرابع عشر: الصلاة: منهج للحياة 84
١. الأداء مقابل الإقامة: الفرق الذي يُغيّر كل شيء 84
٢. الله أكبر: إعلان أنت مدعوٌّ لحمله معك 85
٣. إيّاك نعبد: أهم ميثاق تُبرمه كل يوم 85
٤. الفجوة: حكاية نسختَين من الشخص ذاته 86
٥. سؤال واحد قبل كل قرار 87
٦. اختبار الشاهد 87
٧. ما الذي ستُسأل الصلاة أن تُنتجه؟ 88
خاتمة: سدّ الفجوة 88
جسر: من الجزء الثاني إلى الجزء الثالث 89
الجزء الثالث: الأُفُق 90
الفصل الخامس عشر: العصر الذهبي للحضارة الإسلامية: حين كان الإيمان والمعرفة شيئاً واحداً 91
١. الأساس العقدي: أربعة مبادئ بنت حضارة 91
٢. مؤسسة العصر الذهبي: بيت الحكمة 93
٣. العلماء: الإيمان والمعرفة حياة واحدة 94
٤. ما جمعهم: الخيط المشترك 98
٥. لماذا انتهى: الدرس الذي خلّفه العصر الذهبي 99
٦. العصر الذهبي نموذجاً لا ذكرى 100
خاتمة: حضارة واحدة، منبع واحد 100
الفصل السادس عشر: تقنية المعلومات والسجل الإلهي 101
١. كتاب الأعمال: تسليماً وعرضاً وقراءةً ..... **Error! Bookmark not defined.**

٢. طبيعة السجل: مَرْقُوم، الكتاب الرقمي ..... Error! Bookmark not defined.
٣. المقابل الحديث ..... Error! Bookmark not defined.
٤. سجلّان ومصيران: سجّين وعليّون ..... Error! Bookmark not defined.
٥. الدلالة العقدية: العيش مع وعي السجل ..... Error! Bookmark not defined.
٦. تقنية المعلومات مسؤولية حضارية ..... Error! Bookmark not defined.
٧. ماذا تكتب في سجلك اليوم؟ ..... Error! Bookmark not defined.
خاتمة: التقنية مرآة للمعيار الإلهي 107
الفصل السابع عشر: علم الكونيات: القرآن وبدايات الكون 108
١. نشأة الكون: الرتق والفتق في سورة الأنبياء ..... Error! Bookmark not defined.
٢. الكون المتمدد: مُثبَّت ومسيء فهمه ..... Error! Bookmark not defined.
٣. طيّ الكون: استعارة السجل ..... Error! Bookmark not defined.
٤. السماوات السبع واحتمال العوالم المتعددة ..... Error! Bookmark not defined.
٥. تكوير السماء: حجب بين العوالم ..... Error! Bookmark not defined.
٦. سرعة الملائكة والسفر في الأبعاد العليا ..... Error! Bookmark not defined.
٧. الأساس العقدي: لماذا يجب على العلماء المسلمين الانخراط في علم الكونيات ..... Error! Bookmark not defined.
خاتمة: بين الرتق والطيّ الأخير 114
الفصل الثامن عشر: إعادة تقييم التاريخ الإنساني العميق: الإطار الزمني القرآني والبحث الأثري 115
١. التحيز الزمني المتضمَّن في علم الآثار الحديث ..... Error! Bookmark not defined.
٢. الإطار الزمني القرآني ..... Error! Bookmark not defined.
٣. صورة القرآن لآدم وتداعياتها على القدرات البشرية الأولى ..... Error! Bookmark not defined.
٤. روايات القرآن عن حضارات متقدمة في عصور ما قبل التاريخ ..... Error! Bookmark not defined.
٥. الفترة الأثرية الصامتة: لماذا تترك الحضارات المتقدمة ما قبل التاريخية آثاراً شحيحة ..... Error! Bookmark not defined.
٦. فرضيات بحثية قابلة للاختبار ..... Error! Bookmark not defined.
٧. المبادئ المنهجية: الإيمان إطار للبحث لا خلاصة للبحث ..... Error! Bookmark not defined.
خاتمة: فتح نافذة الاستقصاء 122
الفصل التاسع عشر: لماذا العربية؟ لغة الوحي الخاتم 123
١. الأساس: المعنى سابق للغة ..... Error! Bookmark not defined.
٢. التواصل الإلهي: إلقاء المعنى ..... Error! Bookmark not defined.
٣. انضباط المعنى: ما يصح وما لا يصح قوله في حق الله ..... Error! Bookmark not defined.
٤. من المعنى إلى اللغة: لماذا يهم الوعاء ..... Error! Bookmark not defined.
5. الذكاء الاصطناعي وفصل المعنى عن اللغة 126
٦. لماذا العربية؟ سيمفونية الوحي ..... Error! Bookmark not defined.
٧. صياغة اللسان البشري كافة بالعربية القرآنية ..... Error! Bookmark not defined.

٨. التبعات الحضارية: انضباط المعنى ممارسةً وتطبيقاً ..... Error! Bookmark not defined.
خاتمة: الوعاء المثالي 131
الفصل العشرون: الكون نظام مغلق محفوظ بالإرادة الإلهية 133
١. التصريحات السبع: مبدأ قرآني حول الخلق ..... Error! Bookmark not defined.
٢. النموذج القرآني: نظام محفوظ بالإرادة الإلهية ..... Error! Bookmark not defined.
٣. فيزياء الإنتروبيا: ما تُثبته وما لا تُثبته ..... Error! Bookmark not defined.
٤. الإطار المقارن ..... Error! Bookmark not defined.
٥ . الحجة المنطقية: الإبداء دليل على الإعادة ..... Error! Bookmark not defined.
٦. التداعيات الحضارية ..... Error! Bookmark not defined.
خاتمة: الكون الذي لا يضيع 141
الفصل الحادي والعشرون: القرآن مصدراً للأفكار التكنولوجية 142
١. استقلالية الفكر عن اللغة: فكرة قراءة العقل ..... Error! Bookmark not defined.
2. من المعنى إلى اللغة: الأفق المستقبلي القادم ..... Error! Bookmark not defined.
3. القرآن ولغز الوعي والإدراك في الكون ..... Error! Bookmark not defined.
٤. النقل الفوري: عرش بلقيس ..... Error! Bookmark not defined.
٥. الحركة فوق الضوء: سفر جبريل وسؤال السرعة 148
٦. التشابك الكمومي: اللامحلية دليلاً على الأبعاد الأعلى 150
٧. النمط: من الوصف القرآني إلى الرؤية التقنية 151
٨. النداء للعلماء والمهندسين المسلمين 152
خاتمة: الدعوة المفتوحة من القرآن 153
الخاتمة: الحضارة التي لا تزال تُبنى 154
السؤال الذي بدأ به هذا الكتاب 154
ما كلّفه التراجع 154
ما تُثبّته الأجزاء الثلاثة معاً 155
الديون الخمس التي يحملها هذا الجيل 156
عن المؤلف 160

مقدمة المؤلف

يتميز القرآن الكريم عن سائر الكتب السماوية السابقة تميزًا جوهريًا؛ إذ هو رسالة إلى الإنسانية جمعاء، في كل زمان ومكان. هداه عالمية لا تُحدّها ثقافة، وحكمته خالدة لا يُقيّدها عصر. يقول الله تعالى:

وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ (٨٩) (النحل: ٨٩)

كثيرٌ من التحديات التي يعانيها المسلمون اليوم، على المستوى الفردي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي، لا تنشأ عن شُحّ في الهداية، بل عن إخفاق في الاستجابة الكاملة للهداية المتاحة.

فالقرآن الكريم ليس مصدرًا للعزاء الروحي والتوجيه الديني وحسب، بل هو منهج شامل لبناء الأفراد الصالحين، والمؤسسات العادلة، والمجتمعات المزدهرة. يُعلّمنا كيف نعيش ونقود ونبني وننجح في الدنيا، وكيف نُعدّ أنفسنا للآخرة.

وقد وصف النبي ﷺ هذا الكتاب العظيم بكلمات لا تُجارى:

كِتَابُ اللهِ فِيهِ نَبَأُ مَا كَانَ قَبْلَكُمْ، وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ، وَهُوَ الفَصْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللهُ، وَمَنِ ابْتَغَى الهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللهُ، وَهُوَ حَبْلُ اللهِ المَتِينُ، وَهُوَ الذِّكْرُ الحَكِيمُ، وَهُوَ الصِّرَاطُ المُسْتَقِيمُ، هُوَ الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الأَهْوَاءُ، وَلَا يَشْبَعُ مِنْهُ العُلَمَاءُ، وَلَا يَخْلَقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلَا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ، وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. [أخرجه الترمذي وابن أبي شيبة والدارمي]

وقد أدرك علماء الإسلام العظام هذا العمق من قبلنا؛ فرأى الإمام الغزالي والإمام ابن العربي وغيرهما من الأئمة أن القرآن الكريم ينبوع لا ينضب من العلم والمعرفة، ومعانيه لا يستطيع جيلٌ واحد أن يستوفيها.

وقد استلهم علماء الحضارة الإسلامية في عصرها الذهبي من القرآن الكريم، فأثروا الفكر الإنساني في العلوم والطب والرياضيات والفلسفة والعمارة والحكم إثراءً باقيًا عبر القرون. ولم يروا تعارضًا بين الوحي والعقل، ولا بين العبادة والاكتشاف؛ إذ كان كلاهما في نظرهم طريقًا يوصل إلى معرفة الله من خلال كتابه المُنزَّل وخلقه المُسخَّر.

وقد نبع هذا الكتاب من يقين راسخ بأن الأمة الإسلامية اليوم في أمسّ الحاجة إلى استعادة تلك الرؤية التكاملية. ومن واقع عقود من العمل في الهندسة والبحث العلمي والقيادة والتأمل في آيات الله، شهدت بنفسي كيف يعيش كثير من المسلمين المتخصصين، من مهندسين وأطباء وعلماء واقتصاديين ومربين، في عالمين منفصلين: عالم مهني تحكمه المعرفة الحديثة، وعالم ديني تحكمه العبادة والإيمان، ونادرًا ما يلتقيان.

غير أن القرآن الكريم لا يُقرّ هذا الفصل؛ فهو يدعو المؤمنين مرارًا إلى المراقبة والتأمل والبحث والتعلم والاعتبار بما في الكون من آيات. إن الهوّة بين الإيمان والبحث العلمي لم يصنعها القرآن، بل نشأت تدريجيًا في سياقات تاريخية ضيّقت تراثًا كان في أصله يتسم بالسعة الفكرية والثقة الحضارية.

يُقدّم هذا الكتاب القرآنَ الكريمَ بوصفه ليس هداية للخلاص الفردي فحسب، بل مشروعًا حضاريًا متكاملًا. ويسعى إلى ردم الهوة بين التخصص المهني والتوجيه القرآني، وتشجيع أهل الاختصاص في كل مجال على العودة إلى كتاب الله بعيون متجددة، يسألون: ليس فقط "ماذا تعني هذه الآية؟" بل أيضًا "كيف توجّه هذه الآية مجالي وعملي وإسهامي في المجتمع؟"

تتكشف هذه الحجة عبر واحد وعشرين فصلًا موزعة على ثلاثة أقسام. يعرض القسم الأول الركائز السبع للحضارة القرآنية. ويتناول القسم الثاني التعاليم القرآنية التطبيقية وانعكاساتها على الحياة اليومية والممارسة المهنية. ويستكشف القسم الثالث كيف يواصل القرآن إلهامه للبحث في أعمق التساؤلات العلمية والتاريخية والفلسفية.

وتجمع هذه الأقسام على إثبات حقيقة واحدة: أن القرآن الكريم يوفر إطارًا لبناء حضارة راسخة أخلاقيًا، نابضة فكريًا، عادلة اجتماعيًا، متقدمة تقنيًا، مستمدة روحها من خالقها.

هذا الكتاب دعوة، موجّهة بخاصة إلى العلماء والمتخصصين والمربين والباحثين وقادة المجتمع، لاستعادة القرآن الكريم مصدرًا حيًا للهداية والإلهام والمعرفة. إن أعمق كنوز القرآن ليست حكرًا على من يحملون أقل قدر من المعرفة، بل هي تنتظر من يقترب منه بعلمه وخبرته وجهده الفكري، من كتابٍ مؤلّفه يعلم كل شيء في كل مجال وكل عصر.

وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ (البقرة: ٢٨٢)

أدعوك إلى الانطلاق في هذه الرحلة بعقل منفتح وقلب مخلص وعزم على التدبر. أسأل الله أن يجعل هذا الجهد نافعًا، وأن يزيدنا علمًا، وأن يهدينا إلى ما أودعه في كتابه من حكمة تُعيننا على عبادته وخدمة خلقه وبناء مستقبل أفضل.

المؤلف

تمهيد : لماذا يُهمّنا القرآن؟

السؤال الذي يطرحه كل قارئ

قبل أن يفتح القارئ المتأمل أي كتاب، يسأل نفسه بطبيعته: ماذا أستفيد من قراءته؟

وهذا السؤال حين يُطرح على القرآن الكريم، أعظم كتاب عرفته الإنسانية وأبعده أثرًا، لا يكون مجرد مشروع بل ضروري. والمثير للدهشة أن القرآن يجيب عنه منذ صفحاته الأولى؛ ففي سورة الفاتحة يُعلّمنا الله أن نطلب ما نحتاجه أشد الاحتياج: الهداية.

ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ (٦) (الفاتحة: ٦)

ثم يكشف القرآن فور ذلك عن غايته الكبرى:

ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ (٢) (البقرة: ٢)

هذه الهداية لا تقتصر على الشعائر والتقوى الشخصية بل تمتد إلى توجيه شامل للنجاح في الدنيا والآخرة معًا:

كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ... (إبراهيم: ١)

وهذه الظلمات ليست روحية وحسب؛ فهي تشمل الجهل والفقر والفساد والضعف الحضاري. وكذلك النور الذي يهدي إليه القرآن لا يقتصر على الحلال والحرام، بل يشمل المعرفة بالكون والمجتمع والنفس البشرية، والسنن الحاكمة للطبيعة والأمم على حدٍّ سواء.

القرآن روحٌ ونور

يصف القرآن نفسه بأنه روحٌ ونور في آن واحد:

وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ (الشورى: ٥٢)

فالجسد بلا روح جثة هامدة، والسائر بلا نور ضائع في الظلام. وكذلك الأفراد والمجتمعات لا تنهض ولا تزدهر بمعزل عن الحياة والهداية التي يمنحها الوحي. القرآن لذلك ليس كتاب أحكام وشعائر فحسب، بل هو ينبوع الحياة وبوصلة الاتجاه ومصدر التجديد الدائم.

خطاب موجَّه إلى كل أهل الاختصاص

يدعو القرآن أهل كل تخصص إلى التأمل والاكتشاف في آيات الله المبثوثة في الآفاق وفي الأنفس:

سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ (فصلت: ٥٣)

هذه دعوة مفتوحة للعلماء والمختصين والمفكرين ليُثروا تخصصاتهم بالتأمل القرآني، ويُغنوا في الآن ذاته علاقتهم بكتاب الله.

ويرسم القرآن معالم الأمة المثالية التي تنهض لتكون خير شاهد على الإنسانية:

كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ (آل عمران: ١١٠)

وهذه الأمة لا تُعرَّف بنجاحها المادي وحده؛ فهي تجمع بين الفضيلة الأخلاقية والقوة العملية: حكم عادل، ومعرفة راسخة، واقتصاد سليم، وقدرة علمية، وصون للعدل، وهوية ثقافية ثرية.

الركائز السبع للحضارة القرآنية

يحمل القرآن الكريم توجيهات مؤثرة في كل من ميادين الحياة الإنسانية. وقد تولّى العلماء على مر القرون استكشاف معانيه وحفظها، غير أن إطلاق طاقته الحضارية الكاملة يستلزم انخراطًا أوسع يشمل المتخصصين في شتى المجالات ممن يستضيئون بالقرآن في اختصاصاتهم.

وقد ازدهرت الحضارة الإسلامية الكلاسيكية حين التقت هذه الروافد؛ علماء الدين وعلماء طبيعة والساسة يستنيرون جميعًا بمصدر إلهي واحد.

وتقوم الرؤية القرآنية للحضارة على سبع ركائز متكاملة:

وتسري في هذه الركائز السبع أربعة سمات يُنميها القرآن: البصيرة، والمرونة، والابتكار، والصمود.

ركيزة الحضارة	المفاهيم المحورية
الأساس الأخلاقي والقيمي	العدل، التقوى، التماسك الاجتماعي
الحكم والعدالة	الشورى، الأمانة، سيادة القانون والمساءلة
المعرفة والتعليم	طلب العلم، التدبر، الاعتبار من التاريخ
الازدهار الاقتصادي	الكسب الطيب، الزكاة والصدقة، العدل في التبادل
العلم والتقنية	تسخير الموارد، إعمار الأرض، البحث العلمي
الدفاع والأمن	الإعداد والاستعداد، التوازن بين القوة والضبط
الازدهار الثقافي والفني	احترام التنوع، الاحتفاء بالجمال، التعبير الإبداعي

المحكم والمتشابه: قرآن لكل مستوى

يُعالج القرآن هذه الركائز جميعها من خلال المحكمات، وهي الآيات الواضحة الدلالة الراسخة المعنى، والمتشابهات، وهي الآيات المتعددة الوجوه المنفتحة على التأمل المتجدد.

هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ (٧) (آل عمران: ٧)

يستوعب هذا البناء الثنائي قراء من كل المستويات، من المبتدئ إلى المتخصص الراسخ. فالمحكمات تُرسي القواعد الثابتة، والمتشابهات تفتح أفق التأمل والاكتشاف جيلًا بعد جيل، شريطة أن يبقى التفسير مُقيّدًا بأصول المحكمات.

والمتشابهات من أبرز خصائص القرآن الإعجازية؛ فهي في متناول الجميع على المستوى التأسيسي، وفي الوقت ذاته تحمل معاني عميقة لا تتكشف إلا بالتدبر والتخصص. وكلما تقدم الفهم الإنساني، تجلّت طبقات أعمق من المعنى.

ولا تنهى الآية عن التعامل مع المتشابهات، بل تحذر من أولئك الذين يتخذونها ذريعة لبث الفتنة أو احتكار التأويل. وهذا تصميم يكفل للقرآن حيويته و قدرته في مواجهة كل جيل وكل تحدٍّ.

دعوة إلى القارئ

هذا الكتاب دعوة إلى العلماء والمربين والعلماء والمهندسين والأطباء والاقتصاديين لإعادة اكتشاف القرآن الكريم بوصفه مصدرًا حيًا للمعرفة والإلهام. غير أن التخصص وحده لا يكفي؛ لا بد أن يقترن بالتقوى:

وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ (البقرة: ٢٨٢)

أجدر القراء بالقرآن هم الذين يتدبرونه حق التدبر ويُطبّقون هداه خير تطبيق. تدعوك هذه السلسلة لا إلى استبدال علاقتك الروحية بكتاب الله، بل إلى إثرائها: بأن تُضيف إلى التلاوة تفاعلًا، وإلى التعظيم تأملًا، وإلى الإيمان التزامًا فكريًا منضبطًا.

خارطة الكتاب

يتألف الكتاب من ثلاثة أقسام، يبني كل منها على ما سبقه، وتُشكّل مجتمعةً حجة متكاملة تُقدّم القرآن الكريم الوثيقةَ الأساسية لحضارة أثبتت جدواها تاريخيًا وباتت اليوم ضرورة ملحّة.

القسم الأول: الأُسُس

يعرض الركائز السبع للحضارة القرآنية، وهي الميادين السبعة التي لا يقوم مجتمع بدونها: الأساس الأخلاقي والقيمي، والحكم والعدالة، والمعرفة والتعليم، والازدهار الاقتصادي، والعلم والتقنية، والدفاع والأمن، والازدهار الثقافي والفني. يُؤصَّل كل ركيزة بآيات قرآنية محددة، وتُستخلص منها المبادئ الحاكمة، وتُربط بتبعاتها الحضارية حين تُؤخذ مأخذ الجِد. ويجيب هذا القسم عن السؤال: على أي أسس تُبنى الحضارة؟

القسم الثاني: التطبيق

ينتقل من العمارة الحضارية إلى الحياة المعاشية، ويستكشف كيف يُشكّل الهدي القرآني واقع الإنسان اليومي. تتناول فصوله السبعة تعاليم قرآنية بعينها في أعماقها، كلٌّ منها اختيرت لما تحمله من معنى يفوق ظاهره، وكلٌّ منها متصلة اتصالًا مباشرًا بحياة الإنسان الذي يسكن الحضارة القرآنية. ويجيب هذا القسم عن السؤال: ماذا يطلب مني القرآن في واقعي المعيشي ؟

القسم الثالث: الأفق

يتناول كيف يتجاوز القرآن حدود المعرفة الإنسانية الراهنة. تفتتح فصوله السبعة بالشاهد التاريخي على هذه الحقيقة: الحضارة الإسلامية في عصرها الذهبي، حين أخذ جيل من العلماء دعوات القرآن للمعرفة مأخذ الجِد فأنتجوا أعظم حضارة علمية وفكرية عرفها العالم قبل الحداثة. ثم تستعرض الفصول التالية الآفاق التي لا يزال القرآن فيها متقدمًا على العلم الإنساني. ويجيب هذا القسم عن السؤال: إلى أين يقودنا القرآن حيث لم نبلغ بعد؟

وتُقدّم هذه الأقسام مجتمعةً جوابًا موحدًا عن السؤال الذي افتتحنا به:

ماذا نستفيد من القرآن؟

كل ما تحتاجه الحضارة لتنهض. وكل ما يحتاجه الإنسان ليحيا بهدف ونزاهة وحكمة. واتجاهًا نحو أفق لم يبلغه جيل بعد.

كانت الكلمة الأولى من الوحي أمرًا، ولم يُنسخ هذا الأمر قط:

ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ (العلق: ١)

القسم الأول: الأُسُس

الركائز السبع للحضارة القرآنية

المنهاج لا يبني شيئًا بذاته. إنه يصف ما ينبغي بناؤه، وبأي نسب، ومن أي مواد، ووفق أي مبادئ. وتكمن قيمته في اكتمال رؤيته وتماسكها؛ فالمخطط الذي يُغفل الأساس، أو يتجاهل الأحمال الهيكلية، أو يترك العلاقة بين مكوناته غير محددة.

والمنهاج القرآني للحضارة مكتمل اكتمالًا لافتًا. فهو يعالج كل ميدان رئيسى لا يقوم مجتمع بدونه: الطابع الأخلاقي لأفراده، وعدل حكمه، وعمق معرفته، ونزاهة اقتصاده، ورسوخ علمه، وقوة دفاعه، وثراء ثقافته. وليست هذه سبعة موضوعات متفرقة تجمعها لافتة دينية مشتركة، بل هي سبع ركائز حاملة لبنيان واحد، كل منها يعتمد على الأخريات، وكل منها يضعف بغياب أي واحدة منها.

تستعرض فصول القسم الأول كل ركيزة على حدة، مستقية مباشرة من الآيات القرآنية التي تؤسسها، والمبادئ التي تُعرّفها، والتبعات الحضارية لأخذها مأخذ الجِد. وتُقدّم مجتمعةً أشمل إجابة متاحة عن السؤال الذي يفتتح به هذا الكتاب: ماذا يقول القرآن الكريم عن الكيفية التي ينبغي أن ينظم بها البشر حياتهم المشتركة على هذه الأرض؟

الفصل الأول: الأساس الأخلاقي والقيمي

يولي القرآن الكريم عناية بالغة للأخلاق والقيم والفضائل بوصفها حجر الزاوية في بناء الإنسان الفرد ورقي المجتمع على حدٍّ سواء. وهذه الركيزة هي التي تدعم القوانين والمعايير الاجتماعية والمؤسسات، لأنها تُحدد التماسك الداخلي والثقة المتبادلة والاستقرار على المدى البعيد. وبغيرها لا تصمد حضارة مهما بلغت من تقدم مادي.

يُقدّم القرآن توجيهًا شاملًا لهذا الأساس، يتناول القيم والأعراف الاجتماعية والرحمة والعدل وحقوق كل فرد.

أولًا: العدل والإنصاف

العدل من أكثر القيم التي يأمر بها القرآن. ومما يلفت النظر أن معياره مطلق؛ إذ يسري حتى حين يكون في مواجهة النفس أو الوالدين أو الأقربين.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا (النساء: ١٣٥)

فالعدل ليس مسألة ذوق أو ثقافة أو ظرف، بل هو أمر إلهي ملزم لكل مؤمن. ويُعزز القرآن هذا المبدأ بواحد من أشمل تصريحاته الأخلاقية، إذ يقرن الأمر بالعدل بالإحسان والصلة والوفاء، وينهى عن كل صور التجاوز:

إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ (٩٠) وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمۡ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلۡأَيۡمَٰنَ بَعۡدَ تَوۡكِيدِهَا وَقَدۡ جَعَلۡتُمُ ٱللَّهَ عَلَيۡكُمۡ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ (٩١) (النحل: ٩٠-٩١)

وقد وصف الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه هذه الآية بأنها تجمع أخلاق الإسلام كله. فهي تقرن الأمر بالعدل بالإحسان والكرم والوفاء بالعهود، وتنهى عن الفحشاء والمنكر والبغي. وتُثبّت الآيتان معًا أن العدل في القرآن فضيلة شخصية وواجب اجتماعي في آنٍ واحد.

ثانيًا: الإحسان في السلوك

العدل يُحدد الحد الأدنى من المعيار. وحضارة تُبنى على الحدود الدنيا قد تصمد؛ أما حضارة تُبنى على الإحسان فإنها تتألق. يدعو القرآن المؤمنين إلى ما هو أرقى: الإحسان، أي التميز والجمال في العمل وبذل أكثر مما يُكتفى به.

وَأَحۡسِنُوٓاْۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ (البقرة: ١٩٥)

ويمتد هذا المعيار من السلوك الفردي إلى الهوية الجماعية للأمة المسلمة. فالقرآن لا يُعرّف خير أمة بعرق أو ثروة أو قوة، بل بالتزامها الأخلاقي بما هو معروف:

كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ (آل عمران: ١١٠)

وبغير الأساس الأخلاقي الراسخ لا تستحق أي حضارة لقب "الخيرية" مهما بلغت من إنجاز مادي. فالقرآن يُصرّح بأن هذا اللقب يُكتسب بالسلوك الأخلاقي لا يُورَث بالنسب.

ثالثًا: الصدق والأمانة

الحضارة الأخلاقية تقوم على الصدق. والمجتمع الذي يُستساغ فيه الكذب لا يستطيع المحافظة على الثقة في مؤسساته وعقوده وعلاقاته. يأمر القرآن المؤمنين بأن ينتسبوا إلى الصادقين كمسألة هوية:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ (التوبة: ١١٩)

والصدق هنا لا يقتصر على تجنب الكذب، بل هو دعوة إلى مصاحبة أهل النزاهة وبناء مجتمع تتجذر ثقافته في الأمانة.

رابعًا: التواضع واجتناب الكبر

الكبر من أشد العوامل هدمًا في الشخصية الفردية والحياة الاجتماعية على حدٍّ سواء. يُفسد القيادة، ويُدمر العلاقات، ويُعمي عن الحق. ويتناوله القرآن بصراحة:

وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ (لقمان: ١٨)

والتصوير الحركي هنا بليغ: إعراض الخد والمشية الخيلاء علامتان خارجيتان على داء داخلي. فالتشكيل الأخلاقي في القرآن يعمل على المستويين معًا: يُهذّب الباطن ويُوجّه الظاهر.

خامسًا: البر بالوالدين والأقارب والمحتاجين

يضع القرآن البر بالوالدين مباشرة بعد الأمر بعبادة الله وحده، مما يدل على أن السلوك الأخلاقي يبدأ من البيت ثم يمتد إلى المجتمع بأسره:

وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا (٢٣) وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا (٢٤) (الإسراء: ٢٣-٢٤)

ثم يُوسّع القرآن هذا الإحسان ليتجاوز نطاق الأسرة، فيرسم دوائر المسؤولية الأخلاقية الكاملة من الوالدين إلى الأقارب فالأيتام فالجيران فالمسافرين وكل محتاج:

وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا (النساء: ٣٦)

ومدى هذه الآية استثنائي؛ تنطلق من أوثق العلاقات وتتسع في دوائر متراكزة حتى تبلغ الغريب على قارعة الطريق. هذه هي عمارة الحضارة الواعية أخلاقيًا: تلك التي لا تقف رعايتها عند حدود الأسرة أو القبيلة أو الأمة.

سادسًا: العفو والصبر ومقابلة السيئة بالحسنة

الحضارة التي تفقد القدرة على العفو والصبر تنهكها دوامات الصراع والثأر. ويُقدّم القرآن مبدأً تحويليًا:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ (البقرة: ١٥٣)

وما يتجاوز الصبر وحده، يدعو القرآن إلى ما هو أعمق أثرًا: مقابلة الإساءة بالإحسان، بما له من قدرة على قلب العداوة إلى مودة:

وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ (فصلت: ٣٤)

وهذا ليس سذاجة، بل استراتيجية أخلاقية رفيعة؛ فمقابلة الخطأ بالحسن قادرة على إذابة العداوة وإعادة بناء الروابط الإنسانية.

سابعًا: الكرامة الإنسانية والمساواة والتماسك الاجتماعي

يُؤسّس القرآن المساواة الإنسانية على وحدة الأصل، ويُقرر أن المعيار الوحيد ذا المعنى الحقيقي بين البشر هو مستوى التقوى:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ (الحجرات: ١٣)

فتنوع الأعراق واللغات والثقافات لم يُقصد به أن يكون مصدر نزاع، بل هو بتصميم إلهي يرمي إلى التعارف المتبادل والإثراء المشترك. ويُوكّد القرآن التماسك الاجتماعي بصورة الحبل الواحد الذي لا يُفرَّق:

وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْ (آل عمران: ١٠٣)

فالوحدة المبنية على القيم الأخلاقية والروحية المشتركة أمتن بكثير وأدوم من الوحدة المبنية على العرق أو المصلحة السياسية.

ثامنًا: ميثاق شامل للأخلاق: آيات سورة الإسراء

من أبرز مقاطع القرآن الكريم تلك السلسلة في سورة الإسراء من الآية الثالثة والعشرين إلى السابعة والثلاثين، التي تنهض بمثابة ميثاق أخلاقي جامع. ففي خمس عشرة آية يستوعب القرآن الطيف الكامل للأخلاق الفردية والاجتماعية: واجبات نحو الوالدين، ورعاية الأقارب والفقراء، وقصد في الإنفاق، وصون الأنفس، وحماية اليتامى، والوفاء بالعهود، وأمانة في التعامل، ومسؤولية فكرية، وتواضع في السلوك.

وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا... وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا (الإسراء: ٢٣-٣٧)

ليس لهذه الآيات نظير في أي منظومة قانونية أو أخلاقية في عصرها. فهي في آن واحد مدونة سلوك شخصية، وعقد اجتماعي، وميثاق حضاري. ولكل أمر من أوامرها انعكاسات مباشرة على الحكم والاقتصاد والحياة الأسرية والنزاهة العامة.

تاسعًا: التعريف الجامع للبر

لا يترك القرآن مفهوم البر ضبابيًا مفتوحًا أمام التأويل الانتقائي. ففي واحد من أكثر تصريحاته الأخلاقية حسمًا يُقدّم تعريفًا كاملًا ومنظمًا:

لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ (البقرة: ١٧٧)

هذه الآية هي تعريف القرآن نفسه لما يعنيه البر الحق. تبدأ بتصحيح خطأ شائع: اختزال الدين في شكليات التوجه أو المظاهر الخارجية. والبر الحق في القرآن كلٌّ متكامل يجمع:

- **الإيمان :**يُرسّخ الإنسان في الغاية والمساءلة
- **الجود :**يصل الإنسان بمجتمعه وبمن يحتاج
- **العبادة والزكاة :**يُديمان الصلة بالله وبالمجتمع
- **الوفاء بالعهود :**يبني الثقة التي تقوم عليها الحياة الاجتماعية والاقتصادية
- **الصبر :**يمنح الصمود الذي يُثبّت كل ما سبق حين تشتد الأحوال

وتصف هذه الأبعاد الخمسة مجتمعةً إنسانًا كاملًا وحضارة متكاملة. فالمجتمع الذي يُجسّد الخمسة جميعًا هو الذي يستطيع أن يدّعي حق لقب "خير أمة" الذي وردت به الآية الكريمة.

خاتمة: الأخلاق جذر الحضارة

التعاليم الأخلاقية والقيمية في القرآن الكريم ليست مجموعة من الأوامر المنفصلة، بل هي منظومة متكاملة متماسكة تُعالج كل مستوى من مستويات الحياة الإنسانية: الذات الداخلية، والأسرة، والمجتمع، والأمة. كل فضيلة تُقوّي الأخريات؛ العدل يستلزم الصدق، والصدق يستلزم التواضع، والتواضع يُمكّن من العفو، والعفو يصون التماسك الاجتماعي، والتماسك يُهيئ لتحقق التميز الجماعي.

ولهذا يضع القرآن التأهيل الأخلاقي في مقدمة سائر ركائز الحضارة. فحكومة عادلة لا تعمل دون أفراد عادلين. واقتصاد مزدهر لا يدوم دون تجارة أمينة. ودفاع منيع لا يُؤتمن دون قيادة ذات مبادئ.

غير أن الأخلاق وحدها لا تكفي. فالأفراد الفضلاء، حين يعملون في عزلة، لا يستطيعون بأنفسهم ضمان العدل أو صرف الفساد أو الفصل في النزاعات أو صون حقوق الضعفاء. الأخلاق بلا مؤسسات تغدو عاجزة. والمؤسسات بلا أخلاق تغدو جائرة. فالقوانين والمحاكم والحكومات تستمد شرعيتها وفاعليتها من الطابع الأخلاقي للناس الذين يبنونها ويُديرونها.

كل ركيزة تلي هذه في الكتاب تقوم في نهاية المطاف على هذه الركيزة.

ولا يكتفي القرآن بوصف هذا الأساس الأخلاقي، بل يبنيه آية بعد آية، وقيمة بعد قيمة، في قلوب الذين يقرؤونه بإخلاص ويعملون بما يجدون فيه.

الفصل الثاني: الحكم والعدالة

الحكم هو الآلية التي تنظّم بها المجتمعات شؤونها، وتُقيم العدل، وتوزع الموارد، وتفض النزاعات، وتصون قيمها. وتشمل المفاهيم المحورية لهذه الركيزة: سيادة القانون، والأنظمة السياسية، والإدارة العامة، والأطر القانونية، والمسارات القضائية. وهذه الركيزة ضرورية لأن أرقى الأخلاق الفردية لا تستطيع وحدها أن تمنع الظلم على المستوى الاجتماعي. فلا بد من بنى مؤسسية: مؤسسات موثوقة، وقيادة خاضعة للمساءلة، وإجراءات شفافة، وقانون نافذ.

ولا يترك القرآن الكريم الحكمَ لنظريات السياسة وحدها، بل يُرسي مبادئ أساسية لا تقل صلةً بالمؤسسات الديمقراطية الحديثة والإدارة العامة عن صلتها بالمجتمع الإسلامي الأول. وهذه المبادئ تتجاوز مجرد وجود حاكم؛ إذ تصف نظامًا متينًا ومتكيفًا وعادلًا مستندًا إلى الأمر الإلهي.

أولًا: الأمر الإلهي بالعدل في الحكم

أجمع تصريح قرآني في شأن الحكم يجمع بين واجبَين لا انفصال بينهما: أداء الأمانات وإقامة العدل بين الناس. وهذان الواجبان يُحددان معنى السلطة المشروعة:

إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا (النساء: ٥٨)

هذه الآية أساس الفكر السياسي الإسلامي. وقد جعلها العلماء الكبار كشيخ الإسلام ابن تيمية محور نقاشاتهم في الحكم، واصفين إياها بأنها الوصية القرآنية الجامعة لأولي الأمر. ويتضح منها مبدآن أساسيان:

الأمانة :المناصب السلطوية أمانات لا امتيازات. فالحاكم والقاضي والمسؤول يمارسون أدوارهم نيابةً عن الناس وبين يدي الله، وعليهم أداؤها بإخلاص ووضعها في أيدي الأكفأ لحملها. والأمانة لا تقتصر على النزاهة وحدها، بل تستلزم أيضًا الكفاءة؛ إذ ينبغي أن تُسند المهام إلى القادرين على الوفاء بمتطلباتها، فحسن النية لا يُعوّض غياب الأهلية، كما أن الأهلية دون نزاهة تغدو خطرًا.

ويتجلى هذا المبدأ في قصة نبي الله يوسف عليه السلام، حين عرض خدماته لإدارة خزائن مصر في مواجهة الأزمة الاقتصادية المقبلة، فلم يحتج بصلاحه وحده، بل احتج بنزاهته وكفاءته معًا:

ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ (يوسف: ٥٥)

وصف نفسه بصفتين لا تنفصلان: الحفيظ الأمين، والعليم الكفء. فالحكم السليم يستلزم كلتيهما، وغياب أي منهما يُعرّض الأمانة العامة للخطر.

العدل :حين يُحكم بين الناس، فالمعيار هو العدل لا الولاء ولا المحاباة ولا القرابة ولا المصلحة السياسية. وهذا يسري على القضاة في المحاكم، والقادة في المجالس، والمسؤولين في المؤسسات على كل مستوياتها.

وقد أُمر النبي ﷺ نفسه بتجسيد هذا المعيار:

وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ (الشورى: ١٥)

فالعدل في الحكم ليس تنازلًا للظرف السياسي، بل أمر إلهي ملزم لأعلى سلطة في البلاد. ويُوسّع القرآن هذا الأمر ليشمل إطارًا أخلاقيًا ومدنيًا شاملًا يتضمن النهي الصريح عن البغي، ذلك الطغيان الذي إذا مارسه أصحاب السلطة، سواء باستغلال الموارد العامة أو إسكات المعارضة أو إنكار الحقوق أو التطبيق الانتقائي للقانون، فقد أسقطوا أولى شروط شرعيتهم في الميزان القرآني.

ثانيًا: الشورى ومبدأ الحكم التشاركي

من أبرز ما أسهم به القرآن في الفكر السياسي الإنساني مبدأ الشورى، وقد أمر به القرآن صراحةً حتى مع النبي ﷺ نفسه:

وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ (آل عمران: ١٥٩)

ودلالة هذه الآية بالغة العمق؛ فالنبي ﷺ كان يتلقى الوحي، وكان يملك من التوجيه الإلهي ما لا يملكه قائد قبله ولا بعده، ومع ذلك أمره الله بمشاورة أصحابه. فهذا يُرسي مبدأً دائمًا: الشورى ليست ضعفًا ولا ترددًا، بل واجب أخلاقي ومؤسسي للقيادة.

ويذهب القرآن أبعد من ذلك فيجعل الشورى سمةً مُعرِّفة للمجتمع المؤمن في ذاته، إذ يضعها في آية واحدة مع الصلاة والإنفاق:

وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ (الشورى: ٣٨)

بجعل الشورى قرينة الصلاة والإنفاق يُعلن القرآن أن الحكم التشاركي ليس ترتيبًا سياسيًا وحسب، بل هو عبادة وتعبير عن الطابع الأخلاقي للجماعة. والمجتمع الذي يتخذ قراراته من خلال مشاورة حقيقية تستقطب علم أعضائه ووجهات نظرهم، هو مجتمع يُكرّم كرامة كل فرد فيه ويُعلي من شأن إسهامه.

وتتجلى الانعكاسات العملية لهذا المبدأ في الحكم الحديث في أن الشورى تستلزم:

- آليات مؤسسية تُتيح لصوت المجتمع وخبراته المساهمة الفعلية في صنع القرار
- أن يكون القادة منفتحين حقًا على الرأي الآخر لا يؤدون طقس التشاور شكليًا
- أن يكون المستشارون أهل اختصاص وكفاءة حتى يكون المشورة مبنية على العلم لا الهوى
- أن لا يحق لأحد مهما علا منصبه أن يحتكر السلطة كلها في يده

ثالثًا: مساءلة الحكام

يُرسي القرآن إطارًا حاكميًا لا يُعفى فيه أي مسؤول من المساءلة. وهذه المساءلة تعمل على مستويين: المساءلة أمام الله، والمساءلة أمام الناس.

على المستوى الإلهي، سيُسأل كل صاحب سلطة عن كيفية ممارسته إياها:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ (النساء: ١٣٥)

وعبارة "ولو على أنفسكم" تنطبق بكامل قوتها على الحكام والمسؤولين. فلا منصب يمنح حصانة من واجب العدل. والحاكم الذي يتلاعب بالشهادة أو يحمي الفساد أو يُطبّق القانون بصورة انتقائية حماية لمصالحه أو مصالح حلفائه قد خالف هذا الأمر مخالفة صريحة.

وعلى المستوى الإنساني، يُضمّن مفهوم الأمانة القرآني مساءلةً بنيوية. وبما أن الحكم أمانةيحملها المسؤول نيابةً عن المجتمع، فإن للمجتمع حق مشروع في معرفة كيفية أداء تلك الأمانة. وقد قال النبي ﷺ: "كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته"، وهذا مبدأ الاستخلاف يمتد من البيت إلى أعلى المناصب في الدولة.

لقد فهم الخلفاء الراشدون الأوائل هذا المبدأ، بل ودعوا إلى مساءلتهم من قبل المجتمع، مبيّنين كيف ينبغي أن يعمل الحكم القرآني في الواقع. ففي خطبته الأولى، قال أبو بكر رضي الله عنه:

"أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم".

وفي هذا التصريح البالغ الأهمية، قيّد أبو بكر الطاعة السياسية بطاعة الله ورسوله، مؤكدًا أن أي سلطة بشرية ليست مطلقة. فلم يقدّم السلطة بوصفها امتيازًا فوق المساءلة، بل باعتبارها أمانة مشروطة بالالتزام بالهدي الإلهي.

ويعكس كلام أبي بكر مبدأً أصيلاً في القرآن نفسه. فحتى في بيعة النبي ﷺ، أُمر المؤمنون ألا يعصوه "في معروف" (الممتحنة 60:12). وهذه القيود لافتة للنظر، إذ إن النبي ﷺ لا يأمر إلا بما هو حق. لكنها تؤسس لقاعدة أوسع: طاعة السلطة البشرية مرتبطة بالحق والعدل، لا بمجرد وجود السلطة. فالولاء الأعلى لله وهدايته، لا لأي إنسان معرّض للخطأ.

وقد عبّر عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن هذا المبدأ بوضوح أشد. فقد سأل الناس يومًا: "ماذا تفعلون لو رأيتموني انحرفت عن الطريق المستقيم؟" فقام رجل وقال: "والله لو رأينا فيك اعوجاجًا لقوّمناه بسيوفنا." فلم يغضب عمر، بل حمد الله أن في الأمة من يقوم حاكمها.

وتوضح هذه الأمثلة مبدأً أساسيًا في الحكم الإسلامي: إن المساءلة تُعزّز السلطة الشرعية ولا تُضعفها. فخير الحكّام ليسوا الذين يضعون أنفسهم فوق النقد، بل الذين يرحّبون بالتقويم، ويُدركون أنهم، كسائر الناس، خاضعون لأوامر الله وميزان العدل.

ولا يمكن أن يكون التباين أوضح بين هذا النموذج القيادي والنموذج الذي يمثّله فرعون.

ويُورد القرآن فرعون أكثر من أي حاكم سياسي آخر، مُسلّطًا الضوء على خطر السلطة المنفلتة من المساءلة. وليست هذه مجرد قصص تاريخية، بل تحذيرات ضُمّنت القرآن عبرةً لكل جيل:

قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ (غافر٢٩)

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ... (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ (١٠) ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ (١١) فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) (الفجر: ٦-١٣)

والدرس ثابت في القرآن: السلطة بلا مساءلة تُنتج فسادًا، والفساد يقود في نهاية المطاف إلى الانهيار. والدلالة الحضارية لذلك جلية: إن الحكم المستدام لا يحتاج فقط إلى حكّام صالحين، بل إلى بنى مؤسسية وثقافة مساءلة تمنع أي حاكم من التفرد بالسلطة دون رقابة.

رابعًا: الوفاء بالعهود والعقود والمعاهدات

لا يقوم أي نظام حكم بدون تنفيذ موثوق للاتفاقيات. فالمحاكم والعقود والدساتير والمعاهدات الدولية جميعها تقوم على الافتراض الأساسي بأن الالتزامات ستُحترم. وقد أمر القرآن بذلك في أجلى صوره:

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ (المائدة: ١)

والكلمة العربية "العقود" تشمل كل صور الاتفاق الملزم: العقود التجارية، والمعاهدات السياسية، والالتزامات الدستورية، والعهود بين الأفراد ومجتمعاتهم. والأمر مطلق لا قيد عليه، ولا يُجيز الامتثال الانتقائي بحجة المصلحة أو تقلب الأهواء السياسية.

ويُؤكد القرآن هذا في سياق العلاقات الدولية حيث يبلغ الإغراء بنقض الاتفاقيات أشده:

وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا (النحل: ٩١)

فالدولة أو الحكومة التي تنقض معاهداتها أو تُخل بالتزاماتها الدستورية أو تُتيح لمسؤوليها الإخلال بواجباتهم قد نقضت الأساس الذي تقوم عليه شرعيتها. والقرآن يُنزّل الوفاء بالعهد منزلة الواجب الديني لا المجاملة الدبلوماسية، ويجعل الله شاهدًا أعلى على كل اتفاق يُبرم.

خامسًا: تحريم الفساد والرشوة

يُعدّ الفساد العدوّ الأكثر استمرارية للحكم؛ إذ يُفرغ المؤسسات من مضمونها، وينقل الموارد من العامة إلى أصحاب النفوذ، ويقوّض الثقة التي تقوم عليها كل سلطة مشروعة. وقد عالج القرآن هذه الظاهرة بوضوح لافت:

وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (البقرة: ١٨٨)

إن عبارة "وأنتم تعلمون" ذات دلالة خاصة؛ فهي ترفع أي دعوى للجهل أو الالتباس. فالرشوة والفساد ليسا من قبيل الأخطاء أو سوء الفهم، بل هما أفعال مقصودة يرتكبها من يدرك تمامًا حقيقتها. ويخاطب القرآن هذا الانحراف الواعي مباشرة، ويخضعه لأقصى درجات المساءلة الأخلاقية.

ولا يقتصر التحريم على الرشوة، بل يشمل كل صور أكل أموال الناس بالباطل، ومن ذلك

:

- اختلاس المال العام من قِبل المسؤولين
- المحسوبية والمحاباة في التعيينات العامة
- التلاعب بالإجراءات القضائية لتحقيق مكاسب خاصة
- استخدام النفوذ السياسي لانتزاع ثروات المواطنين

وقد أكّد النبي ﷺ هذا المبدأ من خلال حادثة مشهورة تتعلق بأحد عمّال الزكاة الذين عيّنهم. فلما عاد الرجل من مهمته قال: "هذا لكم، وهذا أُهدي إليّ." فأنكر النبي ﷺ هذا التفريق علنًا، وقال: "فهلا جلس في بيت أبيه أو أمه فينظر أيُهدى له أم لا؟" (رواه البخاري ومسلم).

والدلالة هنا عميقة؛ فالهدايا لم تُعطَ لصفات الرجل الشخصية، وإنما للمنصب الذي يشغله. ولذلك اعتبرها النبي ﷺ من حقوق المنصب لا من حقوق الشخص. وهذا يقرّر قاعدة أساسية في الحكم الإسلامي: المنصب العام أمانة، وليس وسيلة للإثراء الشخصي. وكل منفعة تُنال بسبب المنصب تعود إلى أمانته، ولا يجوز تحويلها إلى مكسب خاص. ويشمل ذلك الأموال، والهدايا، والمنافع، والعقود، والتعيينات، وأي ميزة تُكتسب من خلال السلطة العامة.

وفي المجتمعات الحديثة نادرًا ما يظهر الفساد في صورة رشوة مباشرة، بل يتخذ أشكالًا من الاتجار بالنفوذ، والمحاباة التنظيمية، وإساءة استخدام الموارد العامة، والتداول بالمعلومات الداخلية، وتوظيف المؤسسات لخدمة المصالح الخاصة. والنهي القرآني يطال هذه الأشكال جميعها لأن كلًا منها يُخل بالعدل ويُفسد الثقة العامة.

كل هذه الصور تندرج تحت النهي القرآني عن أكل الأموال بالباطل. وكلمة "الباطل" لا تعني المحرم القانوني وحسب، بل تعني أيضًا ما لا أساس له ولا قيمة حقيقية، فالمكسب الفاسد في الميزان القرآني ليس جريمة فحسب، بل هو عدم وبطلان، أخذٌ لا بركة فيه ولا نفع دائم.

سادسًا: المساواة أمام القانون

النظام الحاكم العادل هو الذي يُطبّق القانون على الجميع بصرف النظر عن المنصب أو الثروة أو النسب. وقد أوضح النبي ﷺ هذا المبدأ في حديثه الشهير الذي رواه البخاري ومسلم، حين طُرحت مسألة إعفاء شريفة النسب من الحد:

"والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها."[مسلم]

هذا القول يُعبّر بدقة عن المعيار القرآني. فنزاهة المنظومة القانونية رهينة باتساق تطبيقها؛ فالقانون الذي يحمي الأقوياء ويُعاقب الضعفاء ليس عدلًا، بل هو ظلم منظّم يرتدي ثوب القانون.

ويُعزز القرآن هذا بتشديده المتكرر على أداء الشهادة بالحق ودون تحيز، كما في الآية السابقة من سورة النساء، وبتأكيده أن الحكم في نهاية المطاف لله وحده:

إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ يَقُصُّ ٱلۡحَقَّۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰصِلِينَ (الأنعام: ٥٧)

فالتشريع البشري يستمد شرعيته من انسجامه مع مبادئ العدل الإلهي. فإذا حاد القانون البشري عن تلك المبادئ، فقد سلطانه الأخلاقي وإن احتفظ بقوة الإكراه.

خاتمة: الحكم أمانة مقدسة

الرؤية القرآنية للحكم مطلبُها شاقٌّ لأن مستواها رفيع. فهي لا تُعامل السلطة السياسية باعتبارها جائزة تُنتزع أو امتيازًا يُستمتع به، بل أمانة تُحمل بتواضع وعدل ومساءلة. وكل مبدأ في هذا الفصل، من أداء الأمانات إلى تحريم الفساد، يصبّ في خلاصة واحدة:

الحكم خدمة لا سيادة.

والحضارة التي تبني بنيتها الحاكمة على هذه المبادئ تُشيّد ما يصمد ويدوم: مؤسساتها جديرة بالثقة لأن مسؤوليها خاضعون للمساءلة، وقوانينها محترمة لأنها تُطبّق بالتساوي، وقراراتها حكيمة لأنها تُتخذ بمشاورة حقيقية، واتفاقياتها موثوقة لأن قادتها يُدركون أن الله شاهد على كل عهد يُبرم.

هذا هو المعيار الذي يضعه القرآن. مطلبه ثقيل. لكنه كذلك، كما يشهد التاريخ، المعيار الوحيد الذي يُنتج حكمًا جديرًا بهذا الاسم.

الفصل الثالث: المعرفة والتعليم

المعرفة محرك التقدم الحضاري. ولا يزدهر مجتمع بغير القدرة على تراكم المعرفة وحفظها ونقلها وتطبيقها عبر الأجيال. وتشمل هذه الركيزة منظومات التعليم الرسمي، والاكتشاف العلمي، والتوثيق التاريخي، والبحث الفلسفي، والقراءة والكتابة، والوصول إلى المعلومة. وهي الركيزة التي تصل الماضي بالحاضر والحاضر بالمستقبل.

وما يُميّز المنهج القرآني في التعامل مع المعرفة هو الثقل الاستثنائي الذي يُلقيه على التعلم والتأمل والسعي إلى الفهم. فالقرآن لا يبدأ بأمر عبادي ولا بحكم شرعي ولا بتقرير عقدي، بل يبدأ بكلمة واحدة غيّرت مجرى التاريخ الإنساني.

أولًا: أول أمر إلهي في التاريخ

لم تكن أول كلمة نزلت على النبي محمد ﷺ "صلِّ" ولا "صُم" ، بل كانت: اقرأ.

ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ (٢) ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ (٣) ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ (٤) عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ (٥) (العلق: ١-٥)

يحمل هذا الوحي الأول رسالة حضارية عميقة. فالأمر بالقراءة يقترن فورًا بحقيقتين أساسيتين: أن الله هو خالق الحياة كلها، وأنه هو الذي علّم الإنسان بالقلم. فالمعرفة في المنظور القرآني ليست مجرد أداة عملية، بل هي صلة بالخالق. والقلم، أداة تسجيل المعرفة ونقلها، يُكرَّم بوصفه الوسيلة التي بها رفع الله الإنسان من ظلمة الجهل.

والأمر بالقراءة جاء مرتين في هذا المقطع القصير تأكيدًا لأهميته. وجاء باسم الله لا تمرينًا دنيويًا، بل عبادة. فطلب العلم في الإطار القرآني امتثال لأمر إلهي.

وفي هذا الأمر الأول جينات حضارة كاملة. وليس من قبيل الصدفة أنه في غضون قرنين من هذا الوحي أنتج العالم الإسلامي أرقى مراكز العلم على وجه الأرض: بيت الحكمة في بغداد، ومكتبات قرطبة، وجامعات القاهرة وتمبكتو. كان الأمر بالقراءة هو البذرة، وكانت الحضارة التي أنتجته ثمرتها.

ثانيًا: مكانة أهل العلم

لا يكتفي القرآن بالأمر بالتعلم، بل يُرسّخ العلم شرفًا ومصدر تكريم إلهي. والسؤال البلاغي في سورة الزمر من أحدّ أسئلة القرآن:

قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ (الزمر: ٩)

والجواب بديهي يعرفه كل عاقل. فالمعرفة تصنع فارقًا جوهريًا في قدرة الإنسان على الفهم والحكم والإسهام والقيادة. ثم يُقرر القرآن أن الله يرفع الجامعين بين الإيمان والعلم:

يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ (المجادلة: ١١)

وقرن الإيمان بالعلم في هذه الآية مقصود ودال. فالقرآن لا يُكرّم علمًا مجرّدًا من الأساس الأخلاقي، ولا يُكرّم إيمانًا خاليًا من الفهم. وأرفع الناس درجةً في المنظور القرآني من يزيد علمُه إيمانَه عمقًا وتوجيهًا، ويزيد إيمانُه علمَه رسوخًا وتنقية.

وتذهب الآيات أبعد من ذلك لتكشف أن التعمق في معرفة الخلق لا يُفضي إلى الغرور بل إلى الخشية:

أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلۡجِبَالِ جُدَدُۢ بِيضٞ وَحُمۡرٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٞ (٢٧) وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ مُخۡتَلِفٌ أَلۡوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَۗ إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٞ (٢٨) (فاطر: ٢٧-٢٨)

تُقرر هذه الآية حقيقة مدهشة: العلماء أعمق الناس خشيةً لله. فكلما ازداد الإنسان فهمًا لدقة الخلق وتعقيده وتنوعه، ازداد إدراكًا لعظمة خالقه. فالعلم والإيمان في المنظور القرآني ليسا متنافسين، بل رفيقان في رحلة واحدة نحو الفهم.

ثالثًا: لزوم طلب العزيد من العلم

يُقدّم القرآن طلب العلم فريضة مستمرة مدى الحياة؛ فلا لحظة يحق للمؤمن أن يُعلن فيها اكتفاءه. بل إن النبي ﷺ نفسه يُؤمر بالدعاء بالزيادة في العلم. ولافت أن هذا هو الشيء الوحيد الذي أُمر النبي في القرآن صراحةً أن يسأل الزيادة منه:

وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا (طه: ١١٤)

وهذا الدعاء المُضمَّن في القرآن نموذجًا يُرسّخ التواضع الفكري موقفًا دائمًا للمؤمن. فمهما بلغ الإنسان من علم، ثمة ما هو أكثر ينتظره. ومهما تقدمت الحضارة، بقيت طبقات من خلق الله تستحق المزيد من الفهم. والدعاء بزيادة العلم لذلك ليس شخصيًا وحسب، بل هو توجه حضاري: الالتزام بأن لا يتوقف التعلم، ولا يتوقف التساؤل، ولا يتوقف السعي نحو فهم أعمق.

رابعًا: التأمل في آيات الله في الكون والخلق

يُوجّه القرآن مرارًا العقل الإنساني نحو العالم المشهود مصدرًا أصيلًا للمعرفة والفهم. وكلمة "آية" في العربية تعني في آنٍ واحد آية من آيات القرآن وعلامة في الكون. وهذه الوحدة اللغوية مقصودة؛ إذ يُقدّم القرآن الكون نصًا يُقرأ بالجدية والتعمق ذاتيهما اللذين يُقرأ بهما النص الموحى.

الكون والأرض

إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ (١٩٠) ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ (١٩١) (آل عمران: ١٩٠-١٩١)

تصف هاتان الآيتان النموذج الأمثل للعالم في أتم صوره القرآنية: إنسان يجمع بين ذكر الله المتواصل والتفكر الدائم في الخلق. والتأمل العميق في الكون، بنيته وأنماطه وقوانينه، ليس في هذا الإطار تمرينًا فكريًا دنيويًا بل عبادة. فعلم الفلك والفيزياء والجيولوجيا والأرصاد الجوية وكل علم يدرس الطبيعة هو في هذا الإطار تعبيرات عن أعمق صور الخشية من الله.

الإنسان ذاته

وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ (٢١) (الذاريات: ٢٠-٢١)

الجسد الإنساني نفسه ميدان بحث يدعو إليه القرآن صراحةً. فعلوم الأحياء والطب وعلم الأعصاب وعلم النفس والوراثة كلها مسارات لفهم الآيات التي أودعها الله في الإنسان. وكل اكتشاف عن آليات عمل الجسد أو طريقة معالجة الدماغ للمعلومات أو كيفية انتقال الحياة عبر الشيفرة الجينية هو لقاء مع دقة الخالق وحكمته. والقرآن يستشرف هذا الميدان المعرفي كله بسؤال بسيط عميق: "أفلا تبصرون؟"

الحيوان والظواهر الطبيعية

يلفت القرآن الأنظار إلى الكائنات الحية والظواهر الطبيعية مصادر للتعلم والتأمل:

أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ (١٧) وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ (١٨) وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ (١٩) وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ (٢٠) (الغاشية: ١٧-٢٠)

كل ظاهرة من هذه الظواهر الأربع، الإبل والسماء والجبال والأرض، حقل معرفي مستقل. فالفسيولوجيا المذهلة للإبل، وقدرتها على تحمل الجفاف الشديد وتنظيم حرارة الجسم وتخزين الطاقة، لا تزال موضوع بحث بيولوجي فاعل. وبنية السماء بطبقاتها الجوية وديناميكياتها الجاذبية ميدان الفيزياء والفيزياء الفلكية. وتشكّل الجبال وامتداد سطح الأرض موضوعات علم الجيولوجيا وتكتونيات الصفائح. ولا يكتفي القرآن بذكر هذه الظواهر بل يأمر الإنسانية بالتأمل فيها تأملًا جادًا ومعمّقًا.

ويستخلص القرآن عبرة بالغة من الأنعام والعمليات البيولوجية:

وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ (النحل: ٦٦)

والكلمة المستخدمة هنا "عبرة": درس يُستخلص. يُشير القرآن إلى عملية بيولوجية، إنتاج لبن نقي من خليط معقد من الفرث والدم داخل جسم الحيوان، بوصفها آيةً تستحق الدراسة والتأمل. وهذه دعوة صريحة إلى علوم الأحياء والكيمياء الحيوية في إطار من الشكر والفهم.

النحل: نموذج في الهندسة الملهمة

من أبرز الأمثلة التي يُقدمها القرآن للتأمل العلمي النحل:

وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلٗاۚ يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٞ مُّخۡتَلِفٌ أَلۡوَانُهُۥ فِيهِ شِفَآءٞ لِّلنَّاسِۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ (٦٩) (النحل: ٦٨-٦٩)

يستحق هذا المقطع تأملًا دقيقًا. يُشير القرآن إلى أن النحل يبني بيوته في الجبال والأشجار وما يصنعه الناس، ويصف تغذيته وملاحته، ويُلفت إلى إنتاج مادة متعددة الألوان ذات خصائص شفائية. غير أن الغرض الأساسي من المقطع ليس تقديم تفسير علمي، بل توجيه الانتباه؛ إذ يختم بعبارة: "إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون".

وتكشف هذه الأمثلة مجتمعةً نمطًا ثابتًا: القرآن لا يُقدّم الإجابات فحسب، بل يُوجّه الأنظار. يُشير مرارًا وتكرارًا إلى ظواهر في الكون ويطلب من القارئ أن يُراقب ويتأمل ويبحث ويتعلم. وبذلك يُحوّل دراسة الخلق إلى عبادة، ويُرسي الأساس الفكري للبحث العلمي.

خامسًا: التدبر والتفكير النقدي

لا يكتفي القرآن بالأمر باكتساب المعلومات، بل يشترط نوعية من التعامل مع المعرفة تذهب أبعد بكثير: التدبر، وهو التأمل العميق والتفكير النقدي.

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا (النساء: ٨٢)

يدعو القرآن قارئيه لا إلى القبول السلبي بل إلى التفاعل النقدي الفاعل. والحجة هنا عقلية تجريبية: افحص النص بدقة، واختبره للاتساق الداخلي، وتوصل إلى استنتاجاتك بنفسك. هذا منهج العالِم والمحقق مُطبَّقًا على النص الإلهي ذاته. والحضارة التي تعتمد هذا المنهج في التعامل مع نصها التأسيسي ستجلب بطبيعتها المنهج نفسه الرصين إلى سائر حقول المعرفة.

ويُحرّم القرآن صراحةً التقليد الأعمى وتبني الافتراضات الموروثة دون فحص:

وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا (الإسراء: ٣٦)

ملكات السمع والبصر والفؤاد، أي الإدراك الحسي والملاحظة والحكم العقلي، مُقدَّمة هنا أدوات للمساءلة. وكل إنسان سيُسأل عن كيفية توظيفه هذه الملكات: هل أصغى بانتباه؟ هل راقب بدقة؟ هل تعقّل بأمانة؟ وتُرسي هذه الآية الأساس الأخلاقي للنزاهة الفكرية: وجوب بناء الاستنتاجات على الدليل، والاعتراف بحدود المعرفة، ومقاومة إغراء القول والعمل بالجهل.

سادسًا: الاعتبار بالتاريخ

لا يُقدّم القرآن التاريخ مجموعة أحداث مضت، بل مصدرًا حيًا للدروس في الحاضر. ومفهوم "العبرة" القرآني، بمعنى استخلاص الدرس والعبور من الماضي إلى الحاضر فهمًا وإدراكًا، أحد أبرز الأساليب التعليمية في القرآن:

فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (الأعراف: ١٧٦)

لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ (يوسف: ١١١)

يسرد القرآن قيام الحضارات وانهيارها، وعواقب العدل والظلم، ونتائج العلم والجهل، لا ليُسلّي بل ليُعلّم. فالتاريخ في المنظور القرآني منهج دراسي. ودارس التاريخ الذي يقرؤه بعيون قرآنية تستشرف العبرة سيجد فيه أنماطًا تُنير الحاضر وتُرشد صنع القرار في المستقبل.

أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ (يوسف: ١٠٩)

يأمر القرآن بالسياحة الجسدية والفكرية في الأرض منهجًا للتعلم التاريخي. فعلم الآثار والأنثروبولوجيا ودراسة الحضارات ليست هنا متعًا دنيوية بل واجبات قرآنية: وسائل لفهم أنماط صعود الإنسانية وسقوطها حتى تتصرف الأجيال الحاضرة بحكمة.

سابعًا: العلم فريضة جماعية

يُقرر القرآن أن ليس على كل فرد أن يتخصص في كل ميدان، لكن على الأمة مجتمعةً أن تُنتج من يتعمق في كل ميدان تحتاجه:

وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗۚ فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ (التوبة: ١٢٢)

وإن كانت هذه الآية نزلت في سياق التفقه في الدين، فإن مبدأها يمتد إلى كل حقل معرفي تحتاجه الأمة. فالحضارة تحتاج أطباءها ومهندسيها واقتصادييها ومؤرخيها وعلماءها تمامًا كما تحتاج علماء الشريعة. والالتزام بإنتاج متخصصين في كل ميدان يخدم الأمة واجب ديني جماعي. والأمة التي تُهمل أي ميدان معرفي جوهري تُصبح عالة على غيرها فيه، وتفقد تدريجيًا قدرتها على صياغة مستقبلها.

خاتمة: العلم عبادة وحضارة

الرؤية القرآنية للمعرفة والتعليم أكثر طموحًا مما صاغه أي نص تأسيسي آخر. فهي تجعل القراءة أول فعل من أفعال الإيمان، وتُعلي العالِم على الجاهل، وتُوجّه العقل الإنساني نحو الكون والأرض والجسد الإنساني وعالم الحيوان وصفحات التاريخ، جميعها حقولًا لآيات إلهية تنتظر من يقرأها ويفهمها. وتشترط التفكير النقدي والنزاهة الفكرية والتعلم مدى الحياة. وتُقرر إنتاج المعرفة واجبًا جماعيًا لا فضيلة فردية.

والحضارة التي تأخذ هذه الأوامر مأخذ الجِد ستبني الجامعات وتُموّل البحث وتُكرّم المعلم وتحفظ المكتبات وتُخرّج العلماء في كل ميدان من ميادين المعرفة الإنسانية. وهذا بالضبط ما فعلته الحضارة الإسلامية الأولى، وهذا بالضبط ما يجب على العالم الإسلامي أن يستعيده اليوم.

بدأ القرآن بأمر القراءة. والحضارة التي يسعى إلى بنائها تبدأ من المكان ذاته.

الفصل الخامس: العلم والتقنية

العلم والتقنية من أقوى محركات التقدم الحضاري. وهما يجسّدان التطبيق العملي للمعرفة في حل المشكلات وتحسين مستوى الحياة وتوسيع آفاق القدرة الإنسانية. وتشمل هذه الركيزة: البحث العلمي والتطوير التقني والهندسة والتقدم الطبي والابتكار في كل ميادين الجهد البشري.

القرآن ليس كتاب علم بالمعنى التقني؛ فهو لا يُقدّم معادلات ولا إجراءات تجريبية ولا مواصفات فنية. غير أنه يُقدّم ما هو أعمق من ذلك وأرسخ أساسًا: رؤية كونية تجعل العلم ليس مباحًا فحسب بل واجبًا. فهو يُقدّم دراسة الطبيعة عبادةً، وتنمية الأرض فريضةً إلهية، وتسخير موارد الخلق أمانةً منحها الله للإنسانية.

وليس من قبيل المصادفة أن الحضارة التي أخذت القرآن أشد الأخذ دليلًا على المعرفة أنتجت بين القرنين الثامن والثالث عشر أرقى ثقافة علمية على وجه الأرض. فقد أسّس علماء المسلمين أو طوّروا تطويرًا جوهريًا علوم الجبر والخوارزميات والبصريات والفلك والطب والكيمياء والهندسة. ولم يفعلوا ذلك على الرغم من إيمانهم بل بسببه؛ فالقرآن كان قد علّمهم أن ينظروا ويتفكروا ويتساءلوا ويبنوا.

أولًا: الإنسان مستخلَف في الأرض

يُقرر القرآن منذ البداية أن الإنسان استُخلف في الأرض لغرض يشمل تعميرها الفعّال. وليس هذا وصاية سلبية، بل هو مهمة للبناء والزراعة والتحسين:

وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا (هود: ٦١)

الكلمة العربية المستخدمة هنا "استعمركم" مشتقة من جذر "عمارة" بمعنى البناء والتوطين والزراعة والإعمار. وهذه إحدى أبلغ الكلمات في القرآن للتعبير عن موقفه من العلم والتقنية؛ فالإنسانية لم تُؤذن لها بتنمية الأرض وحسب، بل كُلّفت بذلك تكليفًا. والهندسة والزراعة والتخطيط العمراني والبنية التحتية والطب وكل تطبيق علمي يُحسّن حال الإنسان على الأرض هو في هذا الإطار وفاء بالمهمة الإلهية.

ويُعزز القرآن هذا بوصف تسخير السماوات والأرض لخدمة الإنسان بوصفه هبة إلهية تستوجب الشكر والتأمل والاستخلاف المسؤول:

وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (الجاثية: ١٣)

أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً (لقمان: ٢٠)

وعبارة "ظاهرة وباطنة" لافتة للغاية. فالنعم الظاهرة هي تلك التي تصل إلى الحواس مباشرة: الغذاء والماء والضوء والدفء. أما الباطنة فهي تلك التي لا تكشفها إلا الدراسة والتجربة والعلم: الطيف الكهرومغناطيسي وبنية الذرة والشيفرة الجينية والخصائص الدوائية للنباتات والطاقة المخزونة في الوقود الأحفوري وقوى الطبيعة. والقرآن يستشرف أن الاكتشاف الإنساني سيواصل الكشف عن منافع لم يتخيّلها جيل من قبل.

ثانيًا: أصل الكون والأرض

يتضمن القرآن مقاطع تصف أصل الكون وبنيته بعبارات استقطبت اهتمامًا علميًا وفكريًا متواصلًا:

أَوَلَمۡ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۖ أَفَلَا يُؤۡمِنُونَ (الأنبياء: ٣٠)

كلمتا "رتقًا" و"ففتقناهما" تصفان وحدة أصلية تشققت وانفصلت. وقد لُوحظ أن هذا المقطع يتسق مفهوميًا مع الفهم الكوني الحديث للانفجار الكبير الذي نشأ فيه الكون من حالة أولية بالغة الكثافة ثم توسّع وتمايز. كما تُقرر الآية أن كل شيء حي مصنوع من الماء، وهو ما يؤكده علم الأحياء الحديث؛ إذ الماء المذيب الكوني للحياة يُشكّل غالبية كل خلية حية ويُمثّل الوسط الذي تجري فيه كل العمليات الكيميائية الحيوية.

ويصف القرآن أيضًا التمدد المستمر للكون بدقة استثنائية في سياقه التاريخي:

وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (الذاريات: ٤٧)

صيغة المضارع المستمر "لموسعون" دالّة؛ فهي لا تقول "وسّعنا" فعلًا مضى وانتهى، بل تصف عملية جارية. وهذا التوسع الذي تصفه الآية يتسق مع الاكتشاف الحديث بأن الكون في حالة توسع مستمر، التي أثبتتها مشاهدات إدوين هابل عام ١٩٢٩.

ثالثًا: دورة المياه والزراعة

يلفت القرآن الأنظار إلى الدورة الهيدرولوجية آيةً على قدرة الله وركيزةً للحضارة الزراعية:

هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ (١١) وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ (١٢) (النحل: ١٠-١٢)

ينتقل هذا المقطع في ثلاث آيات من علم الهيدرولوجيا إلى علم النبات فعلم الفلك، مُتتبّعًا منظومة متصلة: المطر يُغذّي النباتات، والنباتات تُعيش الحيوان والإنسان، والإيقاعات الفلكية لليل والنهار والفصول تُنظّم الدورة كلها. وعلم الزراعة الحديث وعلم المناخ وإدارة البيئة كلها مشغولة بفهم هذه المنظومة بالضبط والعمل ضمنها. والقرآن يُقدّم النظام الطبيعي كله تصميمًا متكاملًا هادفًا جديرًا بالدراسة المعمّقة.

رابعًا: علم الأجنة

من أكثر المقاطع العلمية القرآنية تداولًا ودراسةً وصفُه لمراحل تطور الجنين البشري:

وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ (١٢) ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ (١٣) ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ (المؤمنون: ١٢-١٤)

يصف هذا المقطع المراحل المتتالية لتطور الجنين بدقة تتوافق توافقًا لافتًا مع المراحل التي حددها علم الأجنة الحديث. والمصطلحات المستخدمة ذات دلالة بيولوجية محددة:

- **النطفة :**البويضة المخصَّبة أو الزيجوت في حالتها السائلة الأولى
- **العلقة :**تصف في آنٍ واحد تعلّق الجنين بجدار الرحم أثناء الانغراس وشكله الشبيه بالعلقة في أسابيعه الأولى المرئية بالتصوير المجهري
- **المضغة :**الجنين في نحو الأسبوع الرابع الذي يشبه قطعة لحم ممضوغة بخطوطه التقسيمية المرئية على ظهره
- **العظام :**تكلّس الهيكل العظمي وتصلّبه
- **كسوة العظام باللحم :**التطور اللاحق للأنسجة العضلية حول الإطار العظمي

التسلسل الموصوف، من سائل إلى متعلق إلى نسيج منتظم إلى عظام إلى لحم فكائن جديد مكتمل، يتطابق مع المراحل المعروفة لتطور الجنين البشري بتفصيل لا مقابل له في أي معرفة طبية متاحة في القرن السابع. وتختتم الآية بإعلان الدهشة: "فتبارك الله أحسن الخالقين"، دعوةً للقارئ إلى مقابلة هذه المعرفة بالإجلال والشكر.

خامسًا: علم الفلك والأجرام السماوية

يصف القرآن الأجرام السماوية وهي تسبح في مدارات محددة بدقة، وهو ما لم يكن جزءًا من الإجماع العلمي في عصره:

وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ (الأنبياء: ٣٣)

كلمة "فلك" تعني المسار الدائري أو المدار. وكلمة "يسبحون" تصف حركة سلسة متواصلة ذاتية الاستدامة. وقد أثبت علم الفيزياء الفلكية الحديث أن الشمس والقمر يتحركان في مسارات مدارية محسوبة بدقة: القمر حول الأرض، والأرض والشمس حول مركز درب التبانة. واستخدام صيغة الجمع "كل" لوصف أجرام متعددة في مداراتها في سياق تاريخي لم يكن فيه علم الفلك قد أدرك حركات الأجرام السماوية بالكيفية التي يفهمها الفلك الحديث يستحق التأمل.

سادسًا: علم المحيطات والحاجز بين البحرين

وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞ وَجَعَلَ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٗا وَحِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا (الفرقان: ٥٣)

مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ يَلۡتَقِيَانِ (١٩) بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٞ لَّا يَبۡغِيَانِ (٢٠) (الرحمن: ١٩-٢٠)

يُقارن علم المحيطات الحديث هذه الآيات بظاهرة التقاء مجسّمات مائية مختلفة الكثافة والحرارة والملوحة دون أن تتمازج تمامًا. وهذه الظاهرة المعروفة بـ"الهالوكلاين (تتغير فيها الملوحة)" أو "البيكنوكلاين (تتغير فيها الكثافة)" تحدث عند حدود التيارات المحيطية وعند مصبّات الأنهار حيث يلتقي العذب بالمالح. وتحتفظ كتلتا الماء بخصائصهما المتمايزة على مسافات ممتدة رغم تلامسهما، تُمسكهما الفوارق في الكثافة. ولم يكن هذا معروفًا في علم القرن السابع ولم يُفهم فهمًا كاملًا إلا من خلال أبحاث علم المحيطات الحديث.

سابعًا: الانتفاع بالموارد الطبيعية: الحديد والبحر وخيرات الأرض

يُسمّي القرآن الحديدَ مادةً ذات منفعة عسكرية ومدنية، أنزلها الله لخدمة الإنسان:

لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ (الحديد: ٢٥)

إيراد الحديد في الآية إلى جانب الكتاب وميزان العدل دال عميق الدلالة. فالحديد ليس مجرد مورد مادي، بل وُضع في الآية ذاتها مع أدوات الحضارة: الوحي والعدل والمادة التأسيسية للصناعة والدفاع. وقد أثبت علم الفيزياء الفلكية الحديث أن الحديد يُصنَّع في النجوم من خلال عمليات تسبق تشكّل المنظومات الكوكبية. ومن ثَمّ فإن الحديد ينشأ أصلًا خارج الأرض، مما يجعل التعبير القرآني "وأنزلنا الحديد" بالغ الإيحاء. والحديد عمود كل حضارة صناعية من البناء والنقل إلى إنتاج الطاقة والتصنيع.

ويُقدّم القرآن البحر موردًا إلهيًا مُسخَّرًا يخدم احتياجات إنسانية متعددة في آنٍ واحد:

وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ (النحل: ١٤)

تغطي هذه الآية الواحدة الثروة السمكية واستخراج الموارد المعدنية والبحرية وبناء السفن والملاحة والتجارة الدولية: الاقتصاد البحري بأسره في مقطع واحد. ويُقدّم القرآن هذه كلها هباتٍ تستلزم جهدًا إنسانيًا واتقانًا وشكرًا، لا استحقاقات سلبية بل انخراط فاعل مع خلق أُودع في خدمة الإنسانية.

ثامنًا: الدقة والإتقان في الصناعة والهندسة

يُكرّم القرآن صراحةً الدقة في الصنعة والهندسة، مستشهدًا بالأمر الموجَّه للنبي داود عليه السلام نموذجًا:

وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ (١٠) أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ وَقَدِّرۡ فِي ٱلسَّرۡدِۖ (سبأ: ١٠-١١)

عبارة "وقدّر في السرد" أمر مباشر بتطبيق الدقة الهندسية. وكلمة "قدّر" تعني القياس والحساب والضبط التام للنسب. وهذا الأمر الصادر في سياق تشغيل المعادن والتصنيع يُرسي مبدأً يمتد إلى كل التقنيات: الدقة والقياس الدقيق والحساب المتقن قيم إلهية معتمدة. والهندسة المتهاونة ليست قصورًا تقنيًا وحسب؛ ففي الإطار القرآني هي إخفاق في أداء الأمانة.

تاسعًا: أصل المعرفة: آدم والأسماء

يرُدّ القرآن أصل كل المعرفة الإنسانية إلى فعل تعليم إلهي:

وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا (البقرة: ٣١)

"الأسماء" في هذه الآية تتجاوز المفردات إلى ما هو أعمق. ففي التراث الفكري العربي، معرفة اسم الشيء تعني إدراك طبيعته وخصائصه وعلاقاته بسائر الأشياء. وهذا أساس التصنيف والتبويب والمعرفة المنهجية. وأول هبة إلهية للإنسانية لم تكن أداةً ولا مصدر طعام، بل كانت معرفة: القدرة على التسمية والتصنيف والفهم والتواصل حول العالم. وكل علم وكل تقنية وكل حضارة ترتكز على هذه الهبة التأسيسية.

عاشرًا: الخشية العلمية أسمى صور الوعي بالله

يربط القرآن ربطًا مباشرًا بين عمق المعرفة العلمية وعمق الخشية من الله:

إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ(فاطر: ٢٨)

سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ (فصلت: ٥٣)

تُشكّل هاتان الآيتان معًا الفلسفة القرآنية للعلم. فكلما عمق الإنسان معرفته بالخلق، ازداد وضوحًا له أثر الخالق. فالاكتشاف العلمي ليس طريقًا يبعد عن الإيمان بل طريقًا يُقرّب منه. والكون نصٌّ، وكل اكتشاف جديد آيةٌ جديدة تُقرأ بلغة الخلق.

كما يَعِد القرآن بأن الآيات ستُكشف عبر الزمان "في الآفاق وفي أنفسهم". فالآفاق تُمثّل الكون: المجرات وقوى الفيزياء وبنية الزمكان. والأنفس تُمثّل الجسد والعقل البشريين: الوراثة وعلم الأعصاب والوعي وأسرار الحياة البيولوجية. وكلا الميدانين يبقى حدًّا من حدود البحث العلمي الفاعل، والقرآن يُقدّمهما نصَّين إلهيَّين ينتظران من كل جيل متعاقب قراءةً أكثر عمقًا.

خاتمة: العلم عبادة

انخراط القرآن مع العالم الطبيعي ليس عارضًا بل بنيوي. فمن أول كلمة فيه "اقرأ" إلى أوامره المتكررة بالملاحظة والتأمل ودراسة الخلق، يُرسي القرآن طلب المعرفة العلمية واجبًا دينيًا ومسارًا نحو فهم أعمق لله.

والمقتضيات الحضارية واضحة. الجماعة المسلمة التي تأخذ بهذه الأوامر حق الأخذ ستستثمر في العلم وتُكرّم العلماء وتبني مؤسسات البحث وتُطوّر التقنية وتُطبّق الدقة الهندسية وتُسخّر الموارد الطبيعية التي أودعها الله في خدمة الإنسانية، كل ذلك بروح من الشكر والاستخلاف والدهشة.

والعلم الممارَس بهذه الروح لا يُنتج غرورًا بل يُنتج تعجبًا. والتعجب كما يُعلّمنا القرآن بداية الحكمة.

الفصل السادس: الدفاع والأمن

الدفاع والأمن ركيزتان أساسيتان لبقاء أي حضارة واستمرار ازدهارها. فبغير القدرة على الحماية من العدوان الخارجي وصون النظام الداخلي، لا يستطيع مجتمع أن يُحافظ على مؤسساته وقيمه وثمار جهده في سائر الركائز. وتشمل هذه الركيزة: القوة العسكرية وإنفاذ القانون والاستخبارات وحماية النظام المدني والقدرة على التصدي لكل أشكال التهديد سواء من خارج المجتمع أو من داخله.

ومنهج القرآن في الدفاع لا سلمية مطلقة فيه ولا عسكرة شاملة، بل هو منهج مبدئي. فهو يُجيز بل يأمر بالإعداد لدفاع منيع، ويُأذن بالقتال في مواجهة الظلم والعدوان، ويفرض في الوقت ذاته ضوابط أخلاقية صارمة على سلوك القتال. ويُؤصّل الإطار كله في حرمة الحياة الإنسانية والواجب في السعي إلى السلام متى أمكن، مع الإدراك بأن القوة وسيلة للردع والعدل لا رخصة للهيمنة.

أولًا: حرمة الحياة: الأساس الذي يقوم عليه الأمن

قبل أن يتناول القرآن أدوات الدفاع، يُرسي القيمة التي يقوم الدفاع لحمايتها: الحياة الإنسانية ذاتها. وفي واحد من أبلغ التصريحات الأخلاقية في أي كتاب مقدس، يُساوي القرآن بين قتل نفس بريئة واحدة وقتل الناس جميعًا، وبين إحياء نفس واحدة وإحياء الناس جميعًا:

مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗا (المائدة: ٣٢)

تُرسي هذه الآية الثقل الأخلاقي الذي يُؤسَّس عليه هذا الفصل كله. فكل حياة إنسانية بريئة تحمل قيمة عظيمة لا تُنتهك في الإطار القرآني. وليس هذا مبالغة بلاغية، بل مبدأ تأسيسي ذو انعكاسات مباشرة على الحكم وإنفاذ القانون والسلوك العسكري وتصميم منظومات الأمن. والحضارة التي تستوعب هذا المبدأ تبني جهازها الأمني لحماية الحياة لا لتهديدها، وتُخضع قواتها المسلحة وجهات إنفاذ القانون فيها لأعلى معايير المساءلة.

ويُعزز القرآن هذا بالنهي المباشر عن قتل النفس بغير حق:

وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورٗا (الإسراء: ٣٣)

حتى حق القصاص حين يثبت مُقيَّد بحدوده. فالعدل لا يُجيز الإفراط. وهذا المبدأ، وهو أن الاستجابة للأذى يجب أن تكون متناسبة ومحدودة، هو أساس كل إطار حديث لقوانين الحرب والقانون الإنساني الدولي وقواعد الاشتباك التي تُميّز السلوك العسكري الحضاري من البربرية.

ثانيًا: حق الدفاع عن النفس

أول إذن قرآني بالقتال لم يكن دعوة إلى الغزو، بل كان استجابةً للظلم. فقد احتمل المسلمون الأوائل سنواتٍ من الاضطهاد والتهجير من ديارهم والعنف قبل أن يأذن لهم القرآن بالدفاع عن أنفسهم:

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ (٣٩) ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَـٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) (الحج: ٣٩-٤٠)

هذا المقطع هو أول إذن قرآني بالقتال المسلح، وصياغته بالغة الدلالة. وثمة ثلاث نقاط تستحق الوقوف عندها:

أولًا: الإذن ردّ فعل لا ابتداء. فهو صادر لمن "يُقاتَلون" لا لمن يُريدون القتال. فالشرعية الأخلاقية للدفاع المسلح مستمدة كليًا من جور المعتدي السابق.

ثانيًا: القضية المُدافَع عنها صراحةً هي حرية العبادة لا الطموح الإقليمي ولا السلطة السياسية. وتُسمّي الآية الصوامع والبِيَع والصلوات والمساجد مؤسساتٍ ستُهدَّم لو تُرك الظلم دون رادع. والقرآن هنا يُقدّم الدفاع عن حرية العبادة لجميع الجماعات لا للمسلمين وحدهم مسوّغًا للقتال المسلح.

ثالثًا: تُرسي الآية مبدأ التوازن الإلهي: أن الله يدفع بعض الناس بعضًا، فيمنع الأرض من أن تقع كلها تحت هيمنة الظالمين. وهذا هو الأساس القرآني لما تُسميه الفكر السياسي الحديث توازن القوى، وهو يُؤطّر الأمن لا باعتباره هيمنة بل صونًا لنظام عادل متنوع.

ثم يحدد القرآن بذات الدقة شروط القتال المباح:

وَقَـٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ (البقرة: ١٩٠)

الأمر والحد يأتيان في نَفَس واحد: قاتلوا من يُقاتلكم، فالدفاع مأذون به، ولا تعتدوا، فالعدوان والإفراط واستهداف غير المقاتلين محرّم. وعبارة "إن الله لا يحب المعتدين" تحذير أخلاقي صارم. فالتجاوز في القتال من قتل للمدنيين وتدمير للمحاصيل والبنية التحتية واستخدام للقوة المفرطة يجعل المقاتل أخلاقيًا مكافئًا للمعتدي الذي يدّعي مواجهته.

ثالثًا: الأمر بالإعداد لدفاع منيع

لا يكتفي القرآن بإباحة الدفاع، بل يأمر بالإعداد له. فالجماعة التي تُهمل قدراتها الدفاعية تستجلب العدوان وتُخفق في أداء أمانة الاستخلاف:

وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ (الأنفال: ٦٠)

تتجلى من هذه الآية مبادئ تنطبق مباشرةً على سياسة الدفاع الحديثة:

- **أقصى قدرة ممكنة" :**ما استطعتم" أمر بتطوير أفضل وسائل الدفاع المتاحة. وفي القرن السابع كان ذلك الخيل والسلاح، أما اليوم فهو التقنية العسكرية المتقدمة والبنية التحتية للأمن السيبراني والقدرات الاستخباراتية والردع الاستراتيجي.
- **الردع لا العدوان :**الغرض الصريح من هذا الإعداد "ترهبون"، أي جعل ثمن العدوان باهظًا فيُحجم المعتدون المحتملون عن الهجوم. وهذا يعكس مبدأ مماثلًا لما تُسميه نظرية الأمن الحديثة الردع: امتلاك قوة كافية لاستبعاد العدوان قبل وقوعه.
- **التهديدات المجهولة :**عبارة "وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم" تُقرّ بأن التهديدات ليست دائمًا مرئية أو متوقعة. وهذا بالضبط التحدي الذي تواجهه أجهزة الاستخبارات ومحللو الأمن السيبراني ومخططو إدارة الكوارث.
- **الإنفاق الدفاعي استثمار :**ضمان ردّ ما يُنفق في سبيل الله يُزيل الإطار الخاطئ للدفاع بوصفه تكلفة محضة؛ فالاستثمار في الأمن استثمار في الاستقرار الذي يُتيح لسائر ركائز الحضارة القيام.

ويمتد الأمر بإعداد القوة إلى ما هو أبعد من ساحة المعركة؛ ليشمل البحث العلمي والطاقة الصناعية وسلاسل الإمداد الآمنة والبنية التحتية الصامدة وأمن الطاقة والابتكار التقني. والحضارة التي تعتمد كليًا على غيرها في تقنياتها الحيوية أو دفاعاتها تُعرّض أمنها واستقلالها للخطر.

رابعًا: السلام فريضة واجبة

القوة والاستعداد ليسا غاية في ذاتهما. والقرآن صريح في أنه متى أبدى الخصم ميله إلى السلام، كان الواجب القبول لا استغلال موقع القوة:

وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ (الأنفال: ٦١)

التتابع في آيتي الأنفال ٦٠ و٦١ مقصود. فالقرآن يأمر أولًا بالقوة ثم يأمر بالسلام. فالقوة ليست بديلًا عن السلام بل إحدى الوسائل التي يُؤمَّن بها السلام. والآيتان معًا تُعرّفان الموقف الأمني القرآني الكامل: أن تكون قويًا بما يكفي لردع العدوان، وأن تكون راغبًا في صنع السلام حين تتاح الفرصة. القوة في خدمة السلام لا بديلًا عنه.

ويصف القرآن السلام قيمةً ذاتية، ويجعله اسمًا من أسماء الله:

وَهُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ (الحشر: ٢٣)

"السلام" اسم من أسماء مصدر كل سلام. والحضارة التي تسعى إلى السلام إنما تتوافق مع صفة إلهية. وتلك التي تُديم الصراع حين يكون السلام ممكنًا قد حادت عن المثل القرآني الأعلى.

خامسًا: صون النظام الداخلي وتحريم الفساد

الأمن ليس تحديًا خارجيًا وحسب؛ فالاضطراب الداخلي والفساد والإفلات من القانون وإساءة استخدام السلطة لا تقل تدميرًا للاستقرار الحضاري. ويعالج القرآن الأمن الداخلي من خلال مفهوم "الفساد في الأرض"، إذ يُقدّمه أحد أشد الأخطار على المجتمع:

وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ (البقرة: ٢٠٥)

التصوير هنا دقيق: المفسد يدمر القاعدة الزراعية والسكان، وهما الركيزتان اللتان تقوم عليهما استمرارية أي حضارة. والتاريخ يُثبت مرارًا أن الحضارات كثيرًا ما يوهنها الفساد الداخلي أكثر مما يُضعفها الأعداء الخارجيون.

ويأمر القرآن بقمع الاضطراب والحرابة بحزم:

إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (المائدة: ٣٣)

شدة هذا المقطع تعكس الجدية التي يعالج بها القرآن التهديدات الأمنية الداخلية وصون النظام العام. وتعقبه مباشرةً آية تُقرّر مسار التوبة والإصلاح، دلالةً على أن غاية قانون الأمن هي استعادة النظام وحماية المجتمع لا مجرد العقاب:

إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ (المائدة: ٣٤)

سادسًا: الوحدة ضرورة أمنية

الانقسام الداخلي من أشد نقاط ضعف أي حضارة. ويعالج القرآن الوحدة الاجتماعية والجماعية لا باعتبارها قيمة روحية فحسب بل ضرورة استراتيجية:

وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا (آل عمران: ١٠٣)

الجماعة المنقسمة لا تستطيع إقامة دفاع فاعل. فالخصوم الخارجيون يستغلون شقوقها حتمًا. ومؤسساتها تتشلّ بفعل الصراع الداخلي. ووصف النبي ﷺ المجتمع المسلم في حالته المثالية بأنه "كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى." وهذا التضامن العضوي ليس طموحًا روحيًا وحسب، بل أصل أمني ذو قيمة عملية بالغة.

ويُحذّر القرآن صراحةً من الخلاف الداخلي بين المؤمنين:

وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ (الأنفال: ٤٦)

نزلت هذه الآية في سياق المواجهة العسكرية لكن مبدأها يمتد إلى كل ميدان من ميادين العمل الجماعي. فالخلاف الداخلي يُضعف العزيمة ويُبدد الطاقة ويستجلب الهزيمة. والوحدة في الهدف المحفوظة بالصبر والالتزام المشترك هي ذاتها ضرب من القوة الاستراتيجية.

سابعًا: أخلاقيات السلوك في القتال

يصدر الإذن القرآني بالدفاع مصحوبًا بإطار أخلاقي شامل يُحدد كيفية إدارة القتال. وهذه المبادئ تسبق في كثير من جوانبها وتتجاوز القانون الإنساني الدولي الحديث:

النهي عن العدوان:

وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْ (البقرة: ١٩٠)

الكف عند توقف القتال:

فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ (البقرة: ١٩٢)

التناسب:

فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ (البقرة: ١٩٤)

حماية دور العبادة:

كما رأينا في الحج ٣٩-٤٠، يُذكر صون الصوامع والبِيَع والصلوات والمساجد صراحةً مسوّغًا للدفاع، مما يُرسّخ حُرمة المواقع الدينية حتى في حالة النزاع.

وقد قنّن النبي ﷺ هذه المبادئ في نواهٍ محددة إبان الحملات العسكرية؛ فنهى عن قتل النساء والأطفال والشيوخ والرهبان والمزارعين الذين لا يُقاتلون، ونهى عن تدمير المحاصيل والأشجار والبنية التحتية المدنية. وتُمثّل هذه التوجيهات المستمدة من الأخلاقية القرآنية للدفاع المتناسب المحدود بضوابطه واحدة من أوائل الأطر المُقنَّنة لقوانين الحرب في تاريخ الإنسانية.

ثامنًا: الثبات والشجاعة فضيلتان حضاريتان

يُدرك القرآن أن الدفاع لا يستلزم الإعداد المادي وحده بل يستلزم أيضًا الصفات الأخلاقية التي تُثبّت الجماعة تحت الضغط. والثبات والشجاعة مُقدَّمان هبةً إلهية وفضيلة مدنية لا غنى عنها لبقاء أي حضارة:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ (الأنفال: ٤٥)

وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ (آل عمران: ١٣٩)

الحضارة التي تحتفظ بعزمها الأخلاقي والروحي تحت الضغط، فلا تنهار في اليأس ولا تتنازل عن قيمها حين تُمتحن، هي حضارة تستطيع الصمود. والجمع بين الإعداد المادي والثبات الداخلي هو الإطار الأمني القرآني الكامل: قوة كافية للردع، وانضباط كافٍ للقتال بعدل، وصمود كافٍ للتحمل.

خاتمة: الأمن حارس الحضارة

الإطار القرآني للدفاع والأمن واقعي ومبدئي في آنٍ واحد. فهو لا يتوهم إمكانية صون السلام بغير قوة، ولا يتخيّل أن مجتمعًا يستطيع البقاء وهو يترك نفسه عاجزًا أمام من يُريد تدميره.

وهو بالقدر ذاته صريح في أن القوة المجردة من المبدأ تغدو ظلمًا، وأن الحضارة التي تُقاتل بلا ضوابط أخلاقية قد خسرت ما هو أهم من أي معركة.

ويرتكز الإطار الأمني القرآني على خمسة مبادئ متكاملة:

١ .**حرمة الحياة** القيمة التأسيسية التي يقوم الأمن كله لحمايتها

٢ .**الإذن الدفاعي** المستند إلى العدل والاستجابة للعدوان الفعلي

٣ .**أقصى إعداد ممكن** للردع في خدمة السلام لا الحرب

٤ .**حرص دائم على السلام** متى أتيح بصرف النظر عن الموقف العسكري

٥ .**ضوابط أخلاقية** على سلوك القتال تحمي المدنيين وتصون التناسب وتحفظ الطابع الأخلاقي للجماعة المُدافِعة

الحضارة التي تبني جهازها الدفاعي والأمني على هذه المبادئ ستكون قوية بما يكفي للبقاء، ومنضبطة بما يكفي لتبقى عادلة، وحكيمة بما يكفي لتختار السلام على إطالة الصراع متى أجاز ذلك العدل.

الفصل السابع: الازدهار الثقافي والفني

الثقافة والفن هما روح الحضارة. فهما تعبير عن أعمق قيم شعب ما وفهمه للجمال وذاكرته المشتركة ورؤيته للحياة الطيبة. وبينما تُوفّر سائر ركائز الحضارة البنى الضرورية للبقاء والرخاء، توفر هذه الركيزة المعنى. فهي لا تجيب فقط على "كيف نعيش؟" بل على "لماذا نعيش؟" و"ما معنى أن نحيا حياةً طيبة؟"

وتشمل هذه الركيزة: العمارة والفلسفة والأدب والفنون البصرية والنشاط الفكري وجودة الحياة اليومية. وهي ما يُميّز الحضارة من مجرد منظومة من الأنظمة الوظيفية. والمجتمع الذي يُحكم التسيير ويُنصف في التجارة ويُجيد الدفاع عن نفسه، ثم لا يُبدع شيئًا جميلًا ولا يروي قصة ولا يُنمّي ثقافة مشتركة، لم يبلغ بعدُ رتبة الحضارة بمعناها الأتم.

وانخراط القرآن مع الثقافة والجمال أوسع مدىً وأكثر إيجابيةً مما يُدرك كثيرون. وقد تبنّت بعض التفسيرات التاريخية موقفًا مُقيِّدًا للتعبير الفني أشد مما يستدعيه الإطار القرآني الأشمل في ذاته. وقراءة متأنية للقرآن تكشف نصًا يحتفي بالجمال صفةً إلهية، ويُكرّم التنوع تصميمًا ربانيًا، ويتخذ من السرد واللغة أبرز وسائل رسالته، ويُوبّخ صراحةً من يُحرّم التمتع بما أبدعه الله وأحلّه.

أولًا: الجمال صفة إلهية وهبة ربانية

أساس الحجة القرآنية للازدهار الثقافي والفني هو طبيعة الله تعالى ذاته. وقد أفصح النبي ﷺ عن هذا في واحد من أبلغ التصريحات في علاقة الإيمان بالجمال:

إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ (صحيح مسلم)

هذا الحديث ليس قولًا هامشيًا بل أساس عقدي. فإذا كان الله جميلًا يُحب الجمال، فإن خلق الجمال وتذوّقه فعل منسجم مع الطبيعة الإلهية. والجمال ليس شاغلًا عن الإيمان بل هو تعبير عنه. فالفنان والمعماري والشاعر والحِرَفي والبستاني الذين يسعون إلى الجمال بإخلاص وفي حدود الأخلاق، إنما هم في هذا الإطار منخرطون في فعل يتردد صداه مع أسمى صفات خالقهم.

ويُعزز القرآن هذا بتوبيخ من يُحرّم الجمال باسم الدين:

يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ (٣١) قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ (٣٢) (الأعراف: ٣١-٣٢)

القوة البلاغية للآية الثانية مُوجَّهة صراحةً ضد التشدد الديني المُقيِّد: "من حرّم زينة الله؟" والجواب الضمني: لا أحد يملك صلاحية ذلك. فالله أخرج هذه الزينة لعباده. وكلمة "زينة" تشمل كل أشكال الجمال والتحلّي والتجميل الجمالي: الثياب الجميلة والطعام الطيب والبيئات البهيجة والفضاءات المُزيَّنة،

وبالامتداد الطبيعي كل الفنون والحِرَف التي تُجمّل الحياة الإنسانية. والقرآن يُصرّح بأن هذه النعم للمؤمنين في الدنيا وخالصة لهم في الآخرة. وليس هذا إذنًا على مضض بل إقرار بأن الجمال ميراث المؤمنين في الدارين.

ثانيًا: التذوق الجمالي للعالم الطبيعي

يُدرّب القرآن قراءه على رؤية الجمال في الخلق، مُنمّيًا الحساسية الجمالية التي تقوم عليها كل تعبير فني. ويبدأ هذا بأبسط مصادر الجمال وأقربها:

وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ (النحل: ٦)

هذه الآية لافتة تحديدًا لما تختار تسميته. فمن بين كل المنافع العملية للأنعام يقف القرآن ليُقرّ بجمالها: المتعة البصرية في مشاهدة الحيوانات تسير على الأرض في مطلع النهار وختامه. وهذا فعل تربية جمالية متعمد: يُعلّم القرآن قارئه أن يُلاحظ الجمال، وأن يُقدّره، وأن يعرفه هبةً من الله حتى في أعاديها ظروف الحياة اليومية. فقبل أن تُبدع الحضارة الجمال يجب أن تتعلم أولًا كيف ترى الجمال.

والحضارة ذات هذه الحساسية ستُعبّر عنها في كل ميدان: في تصميم مبانيها وتخطيط مدنها وتزيين بيوتها وتنسيق حدائقها وإتقان مصنوعاتها اليومية. وقد فعلت الحضارة الإسلامية تاريخيًا هذا بالضبط، فأنتجت بعض أجمل عمارة وحدائق ومنسوجات وخزفيات وفنون تطبيقية عرفها العالم، من الحمراء في غرناطة إلى مساجد أصفهان إلى المخطوطات المُذهَّبة في البلاط العثماني، كلها ضاربة جذورها في تقليد إيماني يرى الجمال هبةً إلهية تستحق التكريم والتعبير.

ثالثًا: تنوع اللغات والثقافات آياتٌ إلهية

يُؤطّر القرآن التنوع الثقافي الإنساني لا باعتباره مشكلة تُحلّ أو انقسامًا يُتجاوز، بل آيةً إلهية تُدرَس ويُحتفى بها:

وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ (الروم: ٢٢)

وضع التنوع اللغوي والثقافي في الآية جنبًا إلى جنب مع خلق السماوات والأرض أمر بالغ الدلالة. فاللغات الإنسانية والثقافات التي تحملها تُقدَّم آياتٍ إلهية من مرتبة الكون ذاته. فكل لغة طريقة فريدة في إدراك الواقع وتنظيمه، وكل ثقافة تعبير متميز عن الاستجابة الإنسانية للوجود. والقرآن يُقدّم هذا التنوع ليس نتيجةً للتفرق الإنساني والتشتت، بل بُعدًا مقصودًا في الخلق الإلهي جديرًا بعناية "أولي العلم".

و لهذه الصياغة انعكاسات عميقة على السياسة الثقافية في الحضارة الإسلامية؛ إذ يُقصي الاستعمار الثقافي، أي قمع اللغات والتقاليد والتعبيرات المتنوعة باسم التوحيد. ويُشجّع التواصل الثقافي والتعلم والتقدير عبر الحدود. ويُؤكد مشروعية الحفاظ على التقاليد المحلية والفنون الإقليمية والهويات الثقافية المتنوعة بوصف ذلك كله تكريمًا للتصميم الإلهي للتنوع الإنساني.

وتُضاف الأبعاد الاجتماعية في سورة الحجرات:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ (الحجرات: ١٣)

الغاية من التنوع الإنساني هي التعارف: المعرفة المتبادلة والفهم المتبادل والإثراء المتبادل. فالتبادل الثقافي، تشارك القصص والتقاليد والموسيقى والطعام والعمارة والفلسفة بين الجماعات، ليس تهديدًا للهوية الإسلامية بل تحقيقًا لغرض قرآني. والحضارة التي يرسمها القرآن هي تلك التي تستقي من إبداع الإنسانية كلها مع الحفاظ على أسسها الأخلاقية.

رابعًا: القرآن تحفة أدبية وفنية

القرآن ذاته أحد أعظم الأعمال التعبيرية الأدبية والفنية في تاريخ الإنسانية. وتستند معجزته في جزء كبير منها إلى كماله اللغوي: عمق عربيته ودقتها وإيقاعها وجمالها، الذي لم يتمكن أربعة عشر قرنًا من الدراسة وعدد لا يُحصى من محاولات المحاكاة من بلوغه.

قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا (الإسراء: ٨٨)

هذا التحدي المعروف بإعجاز القرآن ليس مجرد إعلان عقدي بل إعلان أدبي. وقد نزل القرآن في حضارة كانت تُكرّم البلاغة فوق كل شيء تقريبًا، وكانت تُعلّق قصائد عظمائها على جدران الكعبة تكريمًا أعلى. وحين تُلي القرآن أذعن حتى ألدّ خصومه لسلطانه. وسمعه فصحاء العرب فأسلموا لا عن حجة بل عن هيبة لغته وجمالها.

وغدت هذه المعجزة اللغوية بذرة تقليد ثقافي شامل:

- **فن الخط العربي** ظهر أسمى صور الفن البصري في الحضارة الإسلامية، مدفوعًا بالرغبة في إكساء كلمات القرآن جمالًا بصريًا. وامتد تأثيره ليشمل العمارة والمخطوطات والخزف والمنسوجات والمعادن وكل سطح لمسه الصانع المسلم.
- **تجويد القرآن** تطوّر إلى نظام موسيقي وصوتي رفيع أنتج أحد أكثر تقاليد الأداء الصوتي في العالم تميزًا وتأثيرًا، وغدت التلاوة فنًا مستقلًا يخضع لقواعد دقيقة في النَّفَس والإيقاع والنبرة والمخارج.
- **الشعر العربي والأدب** شهدا انفجارًا إبداعيًا في القرون الإسلامية الأولى، مستلهَمًا مباشرة من المعايير اللغوية والموضوعات القرآنية. فشعراء كالمتنبي ومفكرون كابن خلدون وفلاسفة كابن رشد كلهم نهضوا من حضارة كانت حياتها الفكرية مُشبَّعة باللغة القرآنية والفكر القرآني.
- **العمارة الإسلامية** طوّرت جماليتها المميزة: تداخل الأنماط الهندسية والزخرفة العربية والنقش الخطي والضوء، خادمةً في مجملها لتهيئة بيئات من الجمال والنظام والسمو. وكان المسجد والمدرسة والقصر كلها مُفهَّمة تعبيراتٍ عن التنظيم الإلهي للفضاء.

خامسًا: فن القصة والحِكَم الأمثال

يستخدم القرآن ذاته أساليب أدبية رفيعة: السرد الحيّ والحوار الدرامي والمَثَل والاستعارة والقوس العاطفي الممتد لقصصه. وهذا ليس عارضًا بل القرآن هو الذى يعرض لقرّائه قوة القصة وسيلةً للحقيقة:

لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثٗا يُفۡتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ (يوسف: ١١١)

قصة يوسف عليه السلام، التي تختتم بهذه الآية، وصفها القرآن بأنها "أحسن القصص" (يوسف: ٣). وفيها كل عناصر الأدب الرفيع: بطل استثنائي، وغدر من الأهل، وسجن ظالم، وصبر، وحكمة، وخاتمة تُنصف العدل وتُجلي العناية الإلهية. وهي قصة عن النفس الإنسانية وديناميكيات الأسرة والسلطة السياسية والإغراء والمغفرة والقوس البعيد للإرادة الإلهية. ولا يُمكن لقارئ يُعاملها بجدية إلا أن يخرج منها بفهم أعمق للحال الإنساني.

بوضع هذه القصة وعشرات غيرها في قلب وحيه، يُقرّ القرآن بأن فن السرد أحد المسالك الكبرى للحكمة والحضارة. والثقافة التي تأخذ القرآن مأخذ الجِد ستُنتج أدبًا ومسرحًا وسينما وفنًا قصصيًا يتعامل مع تعقيد التجربة الإنسانية بكاملها، مستخلصًا دروسها وناقلًا حقيقتها بالقصة لا بالوعظ وحده.

ويوظّف القرآن المَثَل توظيفًا مساويًا في الأهمية:

وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ (العنكبوت: ٤٣)

المَثَل والاستعارة والصورة المستمدة من الطبيعة أو الحياة اليومية لإضاءة حقيقة مجردة أسلوب تعليمي قرآني أصيل. وهو في الوقت ذاته أساس كل فن رفيع: القدرة على العرض بدلًا من الإخبار، وتجسيد الحقيقة في صورة تستطيع الخيال والقلب استيعابها مباشرة.

سادسًا: العمارة وفن أماكن العبادة

يُقرّ القرآن ببناء العمائر الكبرى والحِرَف الماهرة من خلال روايته لأعمال النبي سليمان عليه السلام المُيَسَّرة إلهيًا:

يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ (سبأ: ١٣)

هذه الآية من أبلغ الآيات القرآنية في مسألة الفن والعمارة؛ إذ تذكر صراحةً المحاريب، وهي الغرف الرفيعة أو الأضرحة، والتماثيل، وهي الأشكال النحتية، بوصفها أعمالًا أُنجزت بإذن إلهي للنبي سليمان. وقد تأمّل العلماء الكلاسيكيون هذه الآية بعناية، وخلص كثيرون منهم إلى أنها تدل على الحاجة إلى نقاش متوازن في شأن التصوير الفني لا إلى معالجة شاملة لكل أشكال الفن البصري.

والمبدأ الأشمل هو أن الحِرَفة المُتقَنة المُؤدَّاة شكرًا لله ضرب من العبادة. فالأمر "اعملوا آل داود شكرًا" يجمع بين العمل الماهر والإنتاج الفني وشكر الله في أمر واحد. والحضارة التي تبني مساجد جميلة ومبانٍ عامة وبيوتًا ومدنًا، وتُزيّن فضاءاتها بمهارة وعناية، وتُكرّم الحرفين والمعمارين بوصفهم مُسهمين في الخير المشترك، هي حضارة تأخذ بهذا الأمر.

سابعًا: الثقافة الفكرية: الفلسفة والحكمة وحياة العقل

يُكرّم القرآن الحكمة بوصفها من أعظم ما يهبه الله:

يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ (البقرة: ٢٦٩)

الحكمة في المفهوم القرآني تتجاوز المعرفة الدينية إلى ما هو أرحب: حسن التقدير وعمق الفهم والقدرة على استشراف المعنى الأعمق للأحداث والتجارب وتطبيق المعرفة بتمييز وبصيرة. وهي الصفة التي تُميّز الفيلسوف والحكيم والقائد العظيم والفنان الموهوب من المجرد صاحب المعلومة.

ويحفظ القرآن حوارًا لافتًا في قصة لقمان الحكيم، وصيته لابنه التي تُشكّل واحدًا من أكمل الأدلة على الحياة المهذَّبة الفاضلة في أي نص مقدس. وتتناول التواضعَ والشكر ومعاملة الوالدين وطبيعة المعرفة والسلوك الاجتماعي والحياة الداخلية، كلها معبَّر عنها في وسيط الحوار الحميم بين أب يُوصي ابنه بحب وحكمة.

وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ (لقمان: ١٢)

الحضارة التي تُقدّر الحكمة وتُهيّئ الأسباب للتأمل الفلسفي وتُنمّي الإرشاد عبر الأجيال وتُكرّم المتعمّقين في التفكير بالحال الإنساني، ستكون حضارة ذات ثقافة فكرية ثرية. وقد كان التقليد الفلسفي الإسلامي العظيم من الكندي والفارابي إلى ابن سينا وابن رشد امتدادًا لحضارة القرآن لا خروجًا عنها، بل كان من أرقى تعبيراتها.

ثامنًا: التعبير الإبداعي في إطار الضوابط الأخلاقية

إقرار القرآن بالجمال والتنوع والحِرَفة والتعبير الثقافي ليس مطلقًا. فهو يعمل ضمن منظومة القيم الأخلاقية التي تسري في كل ركائز هذا الكتاب. والآية ذاتها التي تُقرّ بالزينة تُحذّر من الإسراف:

وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ (الأعراف: ٣١)

مبدأ التوازن، الوسطية بين الزهد المفرط والإسراف، يحكم الحياة الثقافية كما يحكم الحياة الاقتصادية. والفن الذي يُهين الكرامة الإنسانية، والثقافة التي تُطبّع الرذيلة، والترفيه الذي يُخدّر الضمير أو يُهدر إمكانات جمهوره، هذه تجاوزات يُحدّدها الإطار القرآني ويتصدى لها.

والحل للإسراف ليس التحريم بل الحكمة والتهذيب الأخلاقي وتنمية الذوق. والحضارة التي يُشكّلها القرآن ستُطوّر أشكالًا ثقافية جميلةً دون انحلال، معبِّرة دون إسفاف، مسليةً دون ابتذال، مبتكرةً دون التفريط في القيم التي تمنح إبداعها معنى واتجاهًا.

خاتمة: الثقافة روح الحضارة

رؤية القرآن للازدهار الثقافي والفني أوسع مدىً وأكثر إيجابيةً وأرحب آفاقًا مما يُعترف به في الغالب. فهي تبدأ بالإعلان بأن الله جميل يُحب الجمال، وتُوبّخ من يُحرّم الزينة المباحة والملاذّ الطيبة، وتحتفي بتنوع اللغات والثقافات الإنسانية آياتٍ إلهية، وتتخذ من السرد والمَثَل والجمال اللغوي وسائلها الكبرى لنقل الحقيقة، وتُكرّم الحِرَفة الماهرة والبناء الرفيع فعلًا من أفعال الشكر، وتجعل الحكمة من أعظم ما يُعطيه الله.

الحضارة التي تأخذ بهذه التعاليم ستُنتج فنًا وعمارة وأدبًا وفلسفة وجودة حياة يومية تعكس جمال إيمانها. ستكون حضارة لها روح.

وهذا في نهاية المطاف ما يُميّز الحضارة التي يرسمها القرآن من كل نموذج أدنى منها. إنها ليست حضارة تعمل وحسب بل حضارة جميلة. وليست عادلة فحسب بل حكيمة. وليست تعيش فحسب بل مُزدهرة بأتم المعاني: ماديًا وفكريًا وأخلاقيًا وجماليًا، تسترشد في كل مستوياتها بنور القرآن الكريم.

الجسر بين القسمين: من الأُسُس إلى التطبيق

الركائز السبع التي عرضها القسم الأول هي عمارة الحضارة المزدهرة. وهي تُحدد البنى التي تُقيم الحياة الإنسانية: الطابع الأخلاقي، والحكم العادل، والمعرفة، والحيوية الاقتصادية، والتقدم العلمي، والأمن، والثقافة.

غير أن العمارة وحدها لا تصنع حضارة.

فقد يمتلك المجتمع مؤسسات وقوانين ومدارس وأسواقًا وتقنيات ومبانيَ جميلة، ولكن إذا افتقر ساكنوها إلى النزاهة والانضباط والحكمة والتقوى، أخذت البنية كلها تضعف وتنهار في نهاية المطاف. فالحضارة لا تُبنى بالأنظمة وحدها، بل تُبنى بالبشر الذين يتجسّدون القيم التي صُمّمت تلك الأنظمة للتعبير عنها.

لذا يتجاوز القرآن رسم المبادئ للمجتمعات إلى تشكيل شخصية الأفراد وعاداتهم وسلوكهم اليومي، أولئك الأفراد الذين يجعلون تلك المجتمعات ممكنة.

الركيزة	الأساس القرآني
الأساس الأخلاقي والقيمي	العدل، التقوى، التماسك الاجتماعي
الحكم والعدالة	الشورى، الأمانة، سيادة القانون
المعرفة والتعليم	اقرأ، التدبر، العبرة
الازدهار الاقتصادي	الطيب، الزكاة، تحريم الربا
العلم والتقنية	إعمار الأرض، الآيات في الخلق، الدقة
الدفاع والأمن	الإعداد، العدل في القتال، السلام
الازدهار الثقافي والفني	الجمال، التنوع، الحكمة، التعبير الإبداعي

القسم الثاني: التطبيق

القرآن حياةً معاشة: من المبادئ إلى اليوميات

الحضارة لا تُبنى بالمبادئ وحدها، بل تُبنى بأناس يُجسّدون تلك المبادئ في اللحظات العادية من حياتهم: في كيفية تفكيرهم وتعلّمهم وتعليمهم وعملهم وإدارة شؤونهم والاستجابة للتحديات وحملهم وعيَ الله معهم من سجادة الصلاة إلى السوق وعودة.

إن كان القسم الأول قد وصف عمارة الحضارة المزدهرة، فإن القسم الثاني يستكشف الحياة التي تملأ تلك العمارة.

تنتقل الفصول السبعة من المؤسسات إلى الأفراد، مستعرضةً ما يطلبه القرآن منّا في اللحظات التي تتشكّل منها حياتنا فعلًا. وتتناول معنى الأمر الإلهي الأول، وأخلاقيات النزاهة المالية، والنموذج القرآني للتعليم، وتنمية الفضول والبحث، والعلاقة بين القدرة والمسؤولية، والسعي إلى الجمال والتميز، ودور الصلاة في تشكيل الشخصية والسلوك.

ويتعمق كل فصل في تعليم قرآني بعينه متجاوزًا ظاهره؛ فكلمة تكشف رؤية للعالم، واستعارة تُجلّي منظومة، وقصة تغدو نموذجًا في التربية والقيادة والنمو الشخصي. وتُثبت هذه التأملات مجتمعةً أن القرآن لا يُكافئ الألفة السطحية ولا الإعجاب السلبي، بل يُكافئ التدبر: التأمل المستدام المنضبط المتواضع الذي يتتبع الهدى الإلهي إلى أعمق مقتضياته.

الركائز تُخبرنا بما نبني.

وهذه الفصول تُريانا كيف نعيش في داخل ما نبني.

لأن قوة الحضارة في نهاية المطاف لا تتحدد بجودة مؤسساتها وحدها، بل بجودة الناس الذين يسكنونها.

الفصل الثامن: في معنى أول أمر إلهي: اقرأ

أول أمر افتتح به الله بحكمته اللانهائية وحيَه الخاتم إلى الإنسانية جدير بأعمق تأملاتنا. فهذا الأمر الأول لم يكن أمرًا بالصلاة، ولا بالصيام، ولا بالإنفاق. بل كان كلمة واحدة جبّارة:

اقرأ!

حين أبلغ جبريل عليه السلام هذا الأمر إلى النبي محمد ﷺ، أجاب رسول الله بالجواب الصادق الوحيد المتاح له: "ما أنا بقارئ." وعاد الأمر مرة بعد مرة: اقرأ.

وهذا اللقاء من أعمق اللحظات في تاريخ الإنسانية. فالنبي ﷺ لم يكن يقرأ بالمعنى المتعارف عليه، والله علم بذلك قبل أن يُنزل الأمر. فالله إذن لم يطلب منه النظر إلى رموز على صفحة وإخراج حروف. بل طلب شيئًا أعمق من ذلك، شيئًا لا يعتمد على الإلمام بالقراءة، شيئًا يقدر عليه كل إنسان سواء أكان عالمًا أم أميًا.

ما الذي يعنيه الإقراء حقًا؟

لفهم ما كان الله يأمر به، علينا النظر في الجذر العربي لكلمة "اقرأ" وهو " قَرَأَ". فبما يتجاوز ترجمتها الشائعة "اقرأ"، يحمل الجذر "قرأ" في العربية معنى الجمع والضم. وهذا المعنى الأوسع يدعو إلى التأمل في القراءة بوصفها أكثر من مجرد التعرف على الكلمات؛ إنها عملية جمع المعلومات وربط الأفكار واستخلاص الفهم.

وهذه العملية من الجمع والربط والاستخلاص هي ذاتها مفهوم "العقل" الذي يعني حرفيًا ربط الأشياء وضمّها معًا لتُفهم في علاقتها ببعض.

فحين أمر الله بـ"اقرأ" كان يأمر بفعل عقلي. كان يأمر بالتفكير النقدي المنهجي. كان يأمرنا بالنظر إلى العالم وجمع عناصره وربط خيوطه واستخلاص المعنى مما نُشاهد. كان يأمر بالبحث والاستقصاء والتفكير المنضبط.

وهذا أمر موجّه إلى كل عقل إنساني في كل جيل: راقب، وتساءل، وتأمل، وافهم.

اقرأ ماذا؟

ولأن "اقرأ" أمر بالتحقيق والاستقصاء، فالسؤال الطبيعي المباشر لأي طالب هو: اقرأ ماذا؟

تُجيب الآيات الأولى من سورة العلق على هذا بدقة استثنائية؛ إذ ترسم في خمس آيات فحسب ثلاثة حقول معرفية متمايزة فتحها الله أمام العقل البشري. ثلاثة كتب، وثلاثة ميادين للمعرفة، كلها مأمور بها بكلمة واحدة.

ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ (٢) ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ (٣) ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ (٤) عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ (٥) (العلق: ١-٥)

الكتاب الأول: كتاب الخلق (العلوم الطبيعية)

ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ (العلق: ١)

تركت الآية مفعول الخلق مُبهمًا مفتوحًا. فهو يستوعب كل ما في الوجود خارج الذات الإنسانية: النجوم وحركاتها، والمحيطات وأعماقها، والجبال وتشكّلاتها، والكائنات الحية ومنظوماتها البيولوجية، والقوانين الفيزيائية التي تحكم المادة والطاقة. كل ما في الكون يندرج تحت كلمة واحدة: "خلق".

والكون في المنظور الإسلامي نصٌّ كتبه الله، والإنسانية مأمورة بقراءته. وتأكيدًا لذلك، يضم القرآن أكثر من ألف ومئتي آية تُشير إلى الخلق آياتٍ إلهية، كل منها دعوة للنظر والدراسة والفهم.

هذا هو أساس العلوم الطبيعية. فعلم الفلك والفيزياء والأحياء والجيولوجيا والكيمياء ليست ممارسات دنيوية منفصلة عن الإيمان. وكل عالم يُشاهد ظاهرة ويُصيغ سؤالًا ويُصمّم تجربة إنما يُؤدي فعل "اقرأ". إنه يقرأ كتاب الخلق.

وقد فهم العلماء المسلمون العظام هذا فهمًا عميقًا شخصيًا؛ فحين درس ابن الهيثم سلوك الضوء وأسّس علم البصريات لم يكن يفعل شيئًا مستقلًا عن إيمانه. وحين استخدم البيروني الحسابات الثلاثية وارتفاعات الجبال وانخفاض الأفق لحساب محيط الأرض بفارق لا يتجاوز واحدًا بالمئة عن القياس الحديث لم يكن مُبتعدًا عن الإسلام. كانوا يستجيبون للأمر الأول. كانوا يقرؤون ما خلق الله، وبذلك كانوا يُكرّمونه.

الكتاب الثاني: كتاب الذات الإنسانية (العلوم الإنسانية والاجتماعية)

خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ (العلق: ٢)

ميدان هذا الكتاب الثاني هو الإنسان: جسمك وعقلك ونفسك وتطوّرك وإمكاناتك وحدودك. ولهذا الكتاب أودع الله في القرآن أكثر من ستمئة آية تُشير إلى الداخل الإنساني موضوعًا جديرًا بأجدّ الدراسات وأديمها.

ولاحظ دقة ما اختار الله إيحاءه: حدّد أصلنا من علق، مادة متعلقة. وهذه دعوة مزدوجة: للنظر داخلًا في طبيعتنا الراهنة، وللنظر خلفًا في أصولنا البيولوجية المتواضعة. وهذا الإذن الإلهي يُسبغ الشرعية على الطب وعلم الأجنة وعلم النفس والأنثروبولوجيا والفلسفة.

وثمة درس عميق في التواضع مُضمَّن هنا:

قبل أن تدّعي فهم الكون، افهم ما أنت.

وقبل أن تدّعي الحكمة في شأن العالم، ابحث في العقل الذي تستخدمه لإدراكه. فمعرفة الذات ليست مستقلة عن معرفة الكون بل هي رفيقتها الضرورية.

ويفتح هذا الكتاب الثاني أيضًا باب فهم السلوك الإنساني والمجتمع: كيف نتعامل؟ وما الذي يبني الجماعات وما الذي يهدمها؟ ولماذا تنهض الحضارات ولماذا تسقط؟ وعلم الاجتماع والاقتصاد والأخلاق

والتاريخ والقانون كلها قراءات حيوية في هذا الكتاب الثاني، تحقيقات في الإنسان الذي خلقه الله وأمرنا بفهمه.

الكتاب الثالث: كتاب القلم (المعرفة الإنسانية المتراكمة)

ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ (٤) عَلَّمَ ٱلۡإِنسَـٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ (٥) (العلق: ٤-٥)

بعد أن أمر بقراءة الكون من حولنا والإنسان من داخلنا، تفتح السورة ميدانًا ثالثًا جوهريًا: المعرفة المتراكمة التي جمعتها الإنسانية وسجّلتها وحافظت عليها عبر الأجيال.

ولا يُعدّ ذكر القلم هنا عارضًا ولا زخرفيًا. فالقلم أداة التوثيق والحفظ والنقل عبر الزمان والمكان؛ فالمعرفة التي لا تُكتب تموت مع صاحبها، والمعرفة المكتوبة تغدو إرثًا لكل جيل يأتي بعدها. وكل مكتبة وكل كتاب وكل ورقة بحثية وكل تجربة موثّقة امتداد لما كرّمه الله في هذه الآية. وكل مجلة علمية وكتاب مرجعي وأرشيف وقاعدة بيانات ومستودع رقمي هو الامتداد الحديث للهبة التي رمز إليها القلم.

يقول الله: أنتم لا تبدؤون من الصفر. فأنتم بوصفكم طلابًا وعلماء مدعوون للوقوف على أكتاف من سبقوكم، مُكرّمين الاكتشافات والبيانات والرؤى التي حفظتها الإنسانية بالقلم عبر القرون. وتجاهل هذا الإرث المتراكم، والتصرف كأن الاستقصاء الإنساني بدأ بك أنت، ضرب من الجحود بالهبة التي وصفها الله في هذه الآية.

ثلاثة كتب ومؤلف واحد

وإن تمايزت هذه الكتب الثلاثة، كتاب الخلق وكتاب الذات الإنسانية وكتاب المعرفة المتراكمة، فإن لها مؤلفًا واحدًا. مادتها مختلفة لكن مصدرها واحد. لذا لا يمكن للمعرفة الحقيقية أن تتعارض في نهاية المطاف مع الوحي الحقيقي، فكلاهما من خالق واحد.

كتاب الخلق يُجلّي قدرة الله. وكتاب الإنسان يُجلّي حكمة الله. وكتاب المعرفة المدوّنة يصلنا بالفهم الذي أتاح الله للإنسانية تراكمه عبر التاريخ كله. وهي معًا تُشكّل تكليفًا فكريًا متكاملًا.

ويجب أن يُعيد هذا تشكيل فهمنا للتعليم تشكيلًا جذريًا. فالدراسة ليست مهمة دنيوية، بل واجب روحي. والذهاب إلى المدرسة والجلوس في قاعات المحاضرات وإجراء الأبحاث وكتابة الأوراق العلمية ودفع حدود المعرفة إلى الأمام ليس مجرد وسيلة عملية للكسب. بل هو استمرار لتقليد كرّمه الله بدأ في غار حراء ولا تاريخ لانتهائه.

انظر إلى هذه الميادين الثلاثة معًا وستُدرك أن آيات العلق الأولى ليست مجرد تعليم بتعلّم الحروف. إنها تكليف فكري متكامل، أجندة بحث إلهية سُلّمت إلى الإنسانية في اللحظة الأولى من الوحي.

تحذير: المعرفة الحقيقية مقابل وهم القراءة

غير أننا يجب أن نكون واضحين تمام الوضوح بشأن ما تستلزمه "اقرأ" وما لا تقبله بديلًا.

"اقرأ" تستلزم تفكيرًا فاعلًا منضبطًا. وتشترط انخراطًا حقيقيًا مع العالم الطبيعي وأعماق التجربة الإنسانية والمعرفة المتراكمة الجادة لمن سبقونا. وهو عمل يستلزم جهدًا مستدامًا وتأملًا صادقًا وتواضعًا فكريًا.

فلا تخلط بين هذا وبين قضاء ساعات في تصفح منصات التواصل الاجتماعي وتعليقاتها وعناوينها. فمعظم ذلك المحتوى لا يُعطيك فهمًا للكون، ولا فهمًا للذات، ولا فهمًا للحكمة الإنسانية المتراكمة. إنه يُحاكي القراءة دون أن يُنتج شيئًا من ثمارها.

لنكن صريحين تمامًا: التلقّي المعلوماتي ليس تعليمًا. والترفيه ليس تعلّمًا. والانشغال بالتحديق في الشاشات ليس امتثالًا للأمر الإلهي "اقرأ".

الوحي الأول لم يدعُنا إلى الاستهلاك. دعانا إلى الفهم.

أمر لم يُرفع قط

الكلمة الأولى من الوحي لم تكن مجرد أمر بقراءة نص؛ كانت أمرًا مدى الحياة بالسعي إلى الفهم حيثما أودع الله آياتٍ تُقرأ.

أمر "اقرأ" لم ينتهِ حين غادر النبي ﷺ غار حراء. ولم ينتهِ حين اكتمل القرآن. ولم ينتهِ بالعصر الذهبي للخوارزمي وابن سينا وابن خلدون. ولم يوجَّه لجيل واحد أو شعب واحد أو حقبة واحدة.

ذلك الأمر موجَّه إليك أنت اليوم، أينما كنت تقرأ هذه الكلمات.

إلى كل طالب يسهر الليل ليفهم مفهومًا عسيرًا. وإلى كل باحث يبحث عن الحقيقة التجريبية في مختبره. وإلى كل مهندس وطبيب ومبرمج ومعلم يُقبل كل يوم ليُطبّق تفكيرًا منضبطًا على المشكلات أمامه: الكلمة الأولى من الوحي لا تزال أمرك الدائم الملزم.

- راقب بإمعان
- تأمل بعمق
- تعقّل بأمانة
- تعلّم باستمرار
- وثّق بإتقان
- علّم بسخاء
- ابنِ بمسؤولية
- أسهم بمعنى

وحين تفعل كل ذلك، افعله بفخر وقصد واعٍ وباسم ربك الذي خلق.

الفصل التاسع: الشفافية في المعاملات المالية

في أعقاب الآيات التي تتناول صيام رمضان والتي غايتها الكبرى تنمية التقوى، تأتي آية تضرب في صميم الفساد المجتمعي بدقة استثنائية:

وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ لِتَأۡكُلُواْ فَرِيقٗا مِّنۡ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلۡإِثۡمِ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ (البقرة: ١٨٨)

هذه الآية ليست نهيًا بسيطًا عن السرقة. إنها تشريح بالغ الدقة لآلية عمل الفساد المالي في المجتمعات: لا بوصفه جريمة تُرتكب في ظلام بعيد عن متناول القانون، بل بوصفه جريمة تعمل من خلال القانون نفسه، تُحنيه وتشتريه وتُحوّله سلاحًا ضد الناس الذين قُصد به حمايتهم.

الطابع الجماعي للثروة

من أبرز الاختيارات في هذه الآية عبارتها الافتتاحية. فالقرآن لا يقول "لا تأكلوا أموال الناس"، بل يقول "لا تأكلوا أموالكم". وليس هذا من قبيل المصادفة اللغوية، بل هو تصريح عقدي واجتماعي عميق: الثروة في المجتمع ليست مجموعة ممتلكات منفصلة معزولة، بل هي مورد مشترك يعود استقراره على الجميع. فحين يُفسد أحدهم النظام المالي، لا يضر ضحية بعينها فحسب، بل ينخر في الأساس الذي يقوم عليه الثقة الاقتصادية كلها.

والفساد بهذا المفهوم ليس جريمة مالية فحسب، بل جريمة في حق النظام الجماعي برمّته. فهو يسرق الثقة من المؤسسات، ويُجرّد العدالة من معناها، ويُرخص قيمة كل شخص نزيه اختار المنافسة بالكفاءة والحق. والمجتمع الذي يزدهر فيه المفسدون يغدو مجتمعًا يُعاقَب فيه الصادق وتُصبح فيه النزاهة عائقًا أمام التقدم.

والقرآن بتوظيفه ضمير المتكلمين يُذكّرنا بأننا جميعًا أصحاب مصلحة في السلوك الأخلاقي بعضنا لبعض. ما يفعله شخص واحد بالنظام المالي إنما يفعله بنا جميعًا. وبذلك تتحوّل الآية الفسادَ من جريمة خاصة إلى ضرر عام.

وفي المجتمعات الحديثة كثيرًا ما يكون الفساد أقل وضوحًا من مظروف يمتلئ نقودًا يُمرَّر في السر. فهو يظهر على هيئة وصول تفضيلي وتضارب مصالح وامتيازات داخلية ومحاباة تنظيمية وعمليات مشتريات مُتلاعَب بها واستثمار نفوذ شخصي للحصول على مكاسب لا يُتاح للآخرين الوصول إليها. تتبدل الأشكال لكن المبدأ يبقى ثابتًا. وفي كل مرة يُستخدم فيها المال أو النفوذ أو الاتصالات لتشويه العدالة يبقى تحذير الآية ساريًا في كامل حجمه.

نطاق الباطل: ما هو أوسع من مجرد اللاقانونية

تُحدد الآية الوسيلة المحرمة بـ"الباطل"، المترجم عادة بـ"الزور" أو "الظلم". لكن معناه هنا عمد القرآن إلى توسيعه، وإرجاعه إلى حدّ اللاقانونية يُضيّع البُعد الأبلغ في الآية.

الباطل لا يقتصر على السرقة الصريحة أو الاحتيال. فهو يشمل كل وسيلة يحصل بها شخص على ما لا يستحقه أخلاقيًا حتى حين يكون ما يحصل عليه مشروعًا قانونيًا. الرشوة والممارسات الاحتكارية والتزوير واستغلال النفوذ السياسي والتلاعب بالإجراءات التنظيمية لتحقيق مكاسب خاصة كلها تندرج تحت هذه الكلمة.

القرآن يرسم الحدود على مستوى الأخلاق لا على مستوى القانون وحده.

فالمعاملة يمكن أن تكون موثّقة توثيقًا كاملًا ومعتمدة رسميًا ومحتفًى بها علنًا وتظل باطلًا إن كانت قد استُحصلت بتشويه العدالة. فالقانون ليس المحكّم الأخير في الحق والباطل. المحكّم هو الضمير والميزان الإلهي.

وهذا التمييز بالغ الأهمية في العالم الحديث حيث ارتقى الفساد المالي إلى حد أن يعمل بالكامل ضمن الأطر القانونية. فالسيطرة التنظيمية والامتيازات الداخلية والمحاباة المؤسسية قد لا تُرتّب أي مسؤولية جنائية. ومع ذلك يعالج القرآن هذه المساحة بالذات: المساحة الفاصلة بين ما هو قانوني وما هو عادل. ويرفض القبول بالقانونية بديلًا عن الأخلاق.

صورة "تُدلوا": إنزال الدلو

الكلمة العربية "تُدلوا" تحمل صورة لا تنقلها الترجمة على وجهها الكامل. فهي مشتقة من جذر "دَلْو"، وهو الدلو الذي يُنزَل في البئر لاستخراج الماء. وتستخدم الآية هذه الصورة لوصف فعل تمرير المال إلى أصحاب السلطة.

والاستعارة مُضيئة. فحين تُنزل دلوًا في بئر لا تسقط به وحسب، بل تستخدمه آلةً لاستخراج شيء لا يمكنك الوصول إليه بغيره. وبالمثل يُقدَّم المال لأصحاب السلطة لا هديةً بل رافعة: أداة لانتزاع الأحكام والتراخيص والعقود والامتيازات التي لا يستطيع الإنسان العادي من غير تلك الرافعة بلوغها.

وهنا تكشف الآية عن أعمق مخاوفها. فهي لا تصف الرشوة معاملةً بين طرفين راضيين، بل تصف نظامًا تتحوّل فيه السلطة ذاتها إلى سلعة، يمكن الوصول إليها واستخراج ما فيها وشراؤها وبيعها. وحين يحدث هذا تفقد المؤسسات نزاهتها بالكامل. والناس الذين أُسّست لخدمتهم يجدون أنفسهم بلا ملجأ. والسلطة لم تعد تتدفق من القانون والمبدأ بل من الدلو الأعمق.

الصورة دقيقة لأن الواقع الذي تصفه دقيق. فاستعارة الدلو تُجسّد ميكانيكيا الفساد بالضبط: الفعل المتعمد المقصود لاستخدام المال أداةً لانتزاع ما لا ينبغي أن يكون قابلًا للوصول إليه بغير الكفاءة والعدالة.

اتهام الضمير: وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ

تختتم الآية بعبارة تحمل ثقلًا أخلاقيًا هائلًا: "وأنتم تعلمون".

ثلاث كلمات. تُسقط كل عذر.

الفساد لا يُقدَّم هنا نتاجًا للجهل أو الفقر أو الظرف الثقافي أو الحتمية المنهجية. القرآن يُصرّح: من يرتكبه يعلم. يعلم في اللحظة التي يمد فيها يده بالدفع. ويعلم حين يوقّع الوثيقة. ويعلم حين يقبل الحكم المُشترى لا المكتسب.

غير أن الضمير الفاسد طوّر على مرّ الزمن منظومة متقنة من التبريرات الذاتية: "الكل يفعل هذا." "النظام يُجبر عليه." "القانون يُجيزه." "السلطة اعتمدته." "دوري كان صغيرًا." والقرآن يُخاطب هذا الحوار الداخلي مباشرة ويرفض الأخذ بأي منها. يُعيد الإنسان إلى صفاء الضمير النقي، إلى الفطرة، الوعي الأخلاقي الفطري السابق لكل مبرر متعلَّم وكل عذر مُصنَّع.

وهذه العبارة الختامية تربط الآية بسياقها المحيط بها: مقطع رمضان والتقوى. فالصيام مُصمَّم لتحديد هذا الوعي الداخلي بالضبط. والشخص الواصل إلى تقوى حقيقية لا يستطيع الانخراط في الفساد وتسميته ضرورة. فوعي الله المُنمَّى بالصيام يُزيل الأعذار الاجتماعية ويُبقي الإنسان وجهًا لوجه مع ما يعرفه بالفعل حقًا.

وليس وضع هذه الآية مباشرةً في أعقاب مقطع رمضان مصادفة، بل هو بناء معماري محكم. فالتقوى ليست روحانيةً محبوسة في العبادات، بل معيار نزاهة يجب أن يدخل السوق وقاعة المحكمة وطاولة التفاوض. والصوم الذي لا يُنتج صدقًا في المعاملات المالية صوم ناقص. والمجتمع الذي يُنمّي التقوى في مساجده ويتسامح مع الباطل في مؤسساته قد أضاع الغرض من كليهما معًا.

مساءلة شخصية

من السهل قراءة آية عن الفساد المالي وإسقاط معناها على الأقوياء وحدهم: المسؤولين الذين يقبلون الرشاوى، والسياسيين الذين يبيعون نفوذهم، والمديرين التنفيذيين الذين يتلاعبون بالأنظمة لمكاسب شخصية. والآية تخاطبهم بالتأكيد. لكن قراءتها نقدًا للآخرين فحسب هو التفريط في أشد تحدياتها شخصيةً وإزعاجًا.

القرآن لا يُخاطب المجردات. بل يُخاطبك أنت.

اسأل نفسك بصدق: هل استخدمت يومًا علاقة شخصية لتنال ما لم تكسبه بجهدك؟ هل سكتّ يومًا على معاملة كنت طرفًا فيها ولم تكن نظيفة تمامًا، مُقنعًا نفسك بأن دورك كان ثانويًا، وأن الآخرين يتحملون المسؤولية الأكبر، وأن هكذا تسير الأمور؟

وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ. وأنت تعلم.

الآية لا تستلزم قضيةً في المحكمة للإدانة. ولا تنتظر انتهاكًا للقانون. إنها تصل إلى اللحظة الخاصة بين الإنسان وضميره: اللحظة التي تسبق بناء التبرير، حين لا تزال الحقيقة جليّة بلا زخرف. وهناك بالضبط يضع القرآن ثقله كله. لا في قاعة المحكمة. في تلك اللحظة.

هذه هي طبيعة التقوى في الحياة المالية. ليست مجرد اجتناب المحرّم الصريح، بل الرفض الفاعل لاستساغة الظلم. والاستعداد لكسب أقل والتقدم أبطأ وخسارة فرصة بدلًا من المساومة على نزاهة معاملة. وهي الإدراك بأن كل مرة يختار فيها شخص الشفافية على الامتياز، لا يتخذ مجرد قرار مالي خاص، بل يُشارك في الحفاظ على العدل لكل من يأتي بعده.

لأنك تذكر ما أرسته الآية في مطلعها: هذا ليس مالك وحدك. إنه مالنا جميعًا. والفساد الذي تشارك فيه مهما بدا دورك صغيرًا يُضعف بنيةً يعتمد عليها آخرون. والنزاهة التي تصونها مهما كانت بعيدة عن الأضواء ومهما كان ثمنها، تُمسك شيئًا في موضعه يحتاجه المجتمع كله.

بداية الإصلاح

القرآن لا يطلب منك تغيير النظام كله وحدك. ولا يطالبك بأن تُفكّك بمفردك شبكات الفساد الراسخة أو تواجه قوى أكبر بكثير من أي فرد. بل يطلب شيئًا أكثر إلحاحًا، وبكثير من الجوانب أشق من ذلك.

يطلب منك أن ترفض أن تكون سبب إخفاق النظام.

يطلب منك أن تكون الشخص في الغرفة الذي يقول: لا، بهذه الطريقة لا. أنا أعرف أفضل من هذا. وسأتصرف وفق ما أعرف.

هذه بداية الإصلاح. لا التشريع ولا آليات التنفيذ ولا الأطر الدولية لمكافحة الفساد، وإن كان لكل هذه قيمتها. الإصلاح يبدأ بشخص واحد في لحظة واحدة يختار فيها أن يُكرّم ما يعرفه ضميره بالفعل.

ضاعف هذه اللحظة عبر مجتمع. أديمها عبر جيل. اجذّرها في التقوى التي صُمّم رمضان لتنميتها. وستكون لك الأساس لما وعد به القرآن دومًا بأنه ممكن: مجتمع تتداول فيه الثروة بالعدل، وتخدم فيه المؤسسات الناس الذين بُنيت لأجلهم، ولا يحتاج فيه الفارق بين ما هو قانوني وما هو عادل إلى التفاوض عليه في لحظات خاصة من تبرير الذات.

وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ.

أنت تعلم بالفعل. والسؤال الوحيد هو ماذا ستفعل بما تعلم.

الفصل العاشر: النموذج القرآني للتعليم: دروس من لقمان

المجتمع المستلهِم من القرآن مدعو إلى بناء مؤسسات مكرّسة للتعلم والبحث العلمي والسعي إلى الحقيقة، متجذّرةً دومًا في التواضع أمام الخالق. لكن قبل أن يبني مؤسسات عظيمة يجب أن يبني بشرًا عظماء. وهذا العمل لا يبدأ في الجامعات والأكاديميات، بل في العلاقة بين الوالد وولده.

يُقدّم القرآن نموذجًا من أكمل نماذج التربية وأعمقها نفسيًا في أي نص مقدس، ولا يُوصله بتعليمات مجردة بل من خلال مثال حيّ: قصة لقمان وابنه في سورة لقمان. وما يجعل هذا النموذج استثنائيًا ليس ما علّمه لقمان فحسب، بل التسلسل الدقيق الذي علّم به، والروح التي أُودعت في كل درس.

من كان لقمان؟

يُعرّف القرآن لقمان بوصف واحد جامع:

وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ (لقمان: ١٢)

لم يكن نبيًا ولا ملكًا، ولم يُعرَّف بثروته ولا نسبه ولا نفوذه السياسي. بل عُرِّف بصفة واحدة: الحكمة. وكرّمه القرآن تحديدًا لأن الحكمة، القدرة على إدراك ما يهم حقًا والتصرف وفقه على النحو الصحيح، هي أعلى المؤهلات لتعليم الأبناء.

وهذا في ذاته أول دروس نموذج لقمان: أهم مؤهل للمعلم ليس الوثيقة ولا منصب السلطة، بل الحكمة، تلك الصفة التي تُتيح لصاحبها فهم الإنسان الذي أمامه ومعرفة ما يحتاجه ومتى يحتاجه وكيف ينبغي أن يُقدَّم له.

الخطوة الأولى: ابدأ بالكون لا بالقواعد

قبل أن يُلقي لقمان على ابنه تعليمًا دينيًا واحدًا، يضع القرآن في السورة ذاتها وصفًا للخلق كان يُشكّل خلفية تعليمه:

خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ (١٠) هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ (١١) (لقمان: ١٠-١١)

المعلم الحكيم لا يبدأ بالأوامر. يبدأ بالدهشة. فقبل أن يُطلب من الطفل الالتزام بعقيدة، يجب أن يُعطى سببًا للإيمان. وقبل أن يُطلب منه اتباع قواعد، يجب أن يعرف ويُحبّ من صدرت عنه تلك القواعد.

والتسلسل المنطقي الكامن في توضيع هذه الآيات قبيل وصايا لقمان يُشير إلى منهج تربوي متجذّر في التأمل بالعالم المشهود. السماء بلا أعمدة ترى، والجبال تُرسّخ الأرض، والمطر يُنبت أزواجًا كريمة متنوعة، والمخلوقات تعمر كل أنحاء الأرض. فكأن لقمان أشار إلى كل هذا وسأل: من فعل هذا؟ هل يستطيع أحد غير الله؟

هذا تعلّم قائم على الاستفسار بأسلوب قرآني. لا يُسلّم الطفل نتيجة ويطلب القبول، بل يقوده في رحلة الدليل ويدعوه إلى خلاصة يصل إليها بنفسه. وهذه القناعة المكتسبة بالملاحظة والتأمل لا تُقارن في رسوخها بأي قناعة ناشئة عن التلقين أو الخوف.

تعليم الأطفال الانبهار بعجائب الخلق لا يُنافس الإيمان بل هو أساسه.

الخطوة الثانية: تأسيس التوحيد بالعقل لا بالخوف

بعد هذا الأساس من الدهشة والملاحظة فحسب أعلن لقمان تعليمه المحوري:

وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (لقمان: ١٣)

لاحظ كيف صِيغ هذا النهي. لم يقل لقمان: "لا تشرك لأن العقاب سيحلّ بك." بل قال: "لا تشرك لأنه ظلم عظيم".

وهذا خيار تربوي عميق. فهو لا يستحضر خوف الطفل بل حسّه بالعدل ومنطقه الأخلاقي. فالطفل الذي يفهم أن الشرك جريمة في حق الكون، إذ ينسب إلى مخلوق الامتنان والولاء اللذين يستحقهما الخالق وحده، قد استوعب النهي باستيعاب لا يبلغه الخوف قط. فالخوف يُنتج الامتثال ما دام التهديد قائمًا. والفهم يُنتج القناعة التي تصمد حين لا يراقب أحد.

هذه هي الفلسفة التربوية التي يجسدها القرآن: ابنِ الإيمان على الفهم لا الإكراه. علّم الطفل لماذا قبل أن تعلّمه ماذا.

الخطوة الثالثة: قدّم الله من خلال رفقه لا قوته وحسب

بعد تأسيس التوحيد بالعقل والدهشة، لم ينتقل لقمان مباشرة إلى الواجبات والمحرمات. بل عمّق علاقة ابنه بالله بالكشف عن بُعد من أبعاد الصفة الإلهية يُغفله كثير من المعلمين تمامًا:

يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (لقمان: ١٦)

الاسمان الإلهيان اللذان اختار لقمان أن يُعرّف بهما ابنه في هذه المرحلة بالغا القصد والحكمة. "اللطيف": الرفيق الذي يُدرك كل تفصيلة دقيقة ويتصرف بعناية رقيقة. و"الخبير": العالم بالحقيقة الباطنة لكل شيء. وهما معًا يرسمان صورة إله ليس بعيدًا مرعبًا، بل حاضر في كل تفصيلة، مُطّلع على كل مخفيّة، رقيق في إطلاعه.

يُعلّم لقمان ابنه أن الله يرى حبة الخردل في الصخرة. يرى كل فعل خير صغير. ويرى كل صراع خاص. ويعلم ما يحمله الطفل في قلبه قبل أن يستطيع التعبير عنه بكلمات. هذا ليس إلهًا يُقاد إلى طاعته بالخوف. هذا إله يُقاد إلى وفائه بالحب.

فالطفل الذي يكبر مدركًا أن الله اللطيف سيصلي لا لتفادي العقاب بل لصون علاقة مع إله يهتم به في كل تفصيلة. وهذا شكل مختلف جذريًا من الإيمان وأعمق ثباتًا بما لا يُقاس.

الخطوة الرابعة: قدّم الممارسة الدينية بعد الشخصية لا قبلها

بعد تأسيس لماذا الإيمان، وبعد تجذير ابنه في عجائب الخلق ومنطق التوحيد ورفق الله، أدخل لقمان الماذا: الممارسات والمسؤوليات المحددة لحياة المؤمن.

يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ (لقمان: ١٧)

التسلسل هنا ليس مصادفة. فالصلاة تُقدَّم لا أول ما يتعلمه الطفل بل التعبير الطبيعي عن إيمان سبق تأسيسه. فالصلاة المنبثقة من قلب يعرف الله ويُحبه فعل اتصال حيّ. أما حين تُقدَّم قبل إرساء هذا الأساس، فقد تُصبح طقسًا فارغًا يُؤدَّى للوالدين أو المعلم لا لله.

ولاحظ كذلك أن الصلاة يعقبها مباشرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فلقمان أدرك أن العبادة الشخصية والمسؤولية المدنية ليستا ميدانين منفصلين. فالطفل الذي يُصلي بصدق هو طفل يهتم بالمجتمع الذي يعيش فيه. وكلاهما ينبتان من جذر واحد.

ويختتم هذا التعليم بأمر الصبر في مواجهة المحن. وهذه ليست إضافة ثانوية، بل إقرار بأن الطفل سيواجه صعوبة وخيبة أمل وظلمًا. ولقمان لا يُحصّن ابنه من هذا الواقع. بل يُعدّه له، مُزوّدًا إياه بالمرونة الداخلية التي تُمكّنه من الحفاظ على قيمه حين يُصبح ذلك عسيرًا.

الخطوة الخامسة: الشخصية والسلوك في العالم

بعد ترسيخ الإيمان والممارسة والصمود، انتقل لقمان إلى التعبير الخارجي عن الشخصية: كيف يحمل ابنه نفسه في تعاملاته مع الآخرين.

وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ (١٨) وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ (١٩) (لقمان: ١٨-١٩)

أبعاد عدة في هذا التعليم تستحق التأمل.

أولًا، الصياغة: لم يقل لقمان "لا تتكبر لأن الناس سيكرهونك." بل قال "إن الله لا يُحب كل مختال فخور." فهو يُؤصّل التعليم في العلاقة مع الله لا في القبول الاجتماعي، وهذا أساس دافعية أثبت بكثير.

ثانيًا، المادية: يخاطب لقمان الجسد. يتحدث عن الخد المُصعَّر والمشية المرحة والصوت المرفوع. فالشخصية ليست حالة داخلية فحسب، بل تتجلى في الوضعية والمشية والنبرة. والتعليم الكامل يعالج الإنسان كله: عقله وقلبه وجسده.

ثالثًا، الصورة المستخدمة لرفع الصوت: نهيق الحمير. وهي صورة حية بل مضحكة في مباشرتها. فلقمان لا يتكلم بمجردات بل يستخدم صورة ملموسة لا يُنساها الطفل أبدًا. والمعلمون العظماء يُدركون أن التعليم الراسخ يحتاج إلى الصورة لا إلى المبدأ وحده.

منهج لقمان التعليمي

وإن جاء على هيئة نصيحة من أب لابنه، فإن هذا التسلسل يصف طريقة تطور الإيمان في كل إنسان، صغيرًا كان أم كبيرًا. وحين ننظر إلى تعليم لقمان بوصفه منظومة متكاملة تتكشّف عمارة واضحة مقصودة:

المرحلة	المحتوى	الغرض
١	الدهشة أمام الخلق	بناء القدرة على الفضول والانبهار
٢	التوحيد بالعقل	تأسيس الإيمان بالفهم لا بالخوف
٣	العلاقة مع الله من خلال اللطيف والخبير	بناء علاقة محبة مع الله
٤	الصلاة والمسؤولية الاجتماعية	تقديم الممارسة بعد تشكّل الشخصية
٥	الصبر في الشدائد	تجهيز الطفل للعالم الحقيقي
٦	التواضع والسلوك	تشكيل التعبير الخارجي عن الشخصية الداخلية

كل مرحلة تبني على سابقتها. أزل أي مرحلة أو اعكس التسلسل وضعف البناء. ولهذا تُخفق كثير من المناهج التربوية حسنة النية: تبدأ بالقواعد والطقوس وتتخطى أساس الدهشة والفهم والعلاقة المحبة التي تمنح تلك القواعد معناها.

ما يعنيه هذا للوالدين والمعلمين اليوم

نموذج لقمان ليس أثرًا تاريخيًا بل إطار تربوي متكامل يخاطب مباشرة إخفاقات التعليم الإسلامي المعاصر وفرصه.

كثير من أطفالنا يكبرون عارفين قواعد الإسلام قبل أن يعرفوا لماذا توجد تلك القواعد. ويتعلمون ميكانيكا الصلاة قبل أن يتعلموا محبة من يُصلّون إليه. ويُعلَّمون ما هو محرّم قبل أن يفهموا الحكمة وراء الحدود. وحين يُواجهون عالمًا يُشكّك في تلك القواعد دون أن يكونوا قد بنوا القناعة الداخلية التي تجعل القواعد ذات معنى، لا يجدون ما يتمسكون به.

ونموذج لقمان يعكس هذا النهج كليًا:

- **ابنِ الإيمان قبل القواعد :**ابدأ بتعليم الأطفال عن الله خالقًا يتجلّى في عجائب العالم الذي يُشاهدونه.

- **استخدم العقل لا الخوف :**أعن الأطفال على فهم لماذا الشرك ظلم بدلًا من الاكتفاء بالأمر باجتنابه.
- **عرّفهم برحمة الله ورفقه وإحاطته قبل التركيز على المساءلة والحساب :**أبرز اللطيف والخبير لكي ينشأ الأطفال في علاقة محبة ثقة مع الله قبل أن يتعاملوا معه أساسًا بوصفه قاضيًا.
- **التسلسل بالغ الأهمية :**قدّم الواجبات الدينية بعد تأسيس الإيمان والشخصية لكي تنبع الممارسة من القناعة لا تحلّ محلها.
- **أعدّ الأطفال للشدائد :**علّم الصبر مهارة مقصودة لا مجرد مقولة. والأطفال المُعدُّون للصعوبة أكثر ثباتًا بمراحل ممن يُجنَّبون الصعوبة.
- **شكّل الإنسان كله :**خاطب الشخصية في تجليّها الخارجي: الوضعية والسلوك والصوت وطريقة حضور الإنسان بين الناس.
- **أطّر التوجيه إيجابيًا :**أنطلق مما يُحبه الله لا مما يُعاقب عليه. فالأطفال الساعون إلى نيل المحبة أكثر دافعية داخلية ممن لا يسعون إلا إلى تفادي العقاب.

ويُلقي نموذج لقمان تحديًا أيضًا على المؤسسات التعليمية. فالمدارس والبرامج الدينية غالبًا تقيس النجاح بالمعلومات المحفوظة أو القواعد المحفوظة. ويقترح مثال لقمان معيارًا مختلفًا: هل طوّر المتعلم الدهشة والقناعة وحب الله والصمود والشخصية؟ فالمعرفة مهمة لكن غايتها التحوّل.

خاتمة: التعليم عبادة

كرّم القرآن لقمان لا لثروته ولا لنفوذه السياسي ولا لعلمه الديني الأكاديمي، بل لحكمته في تنشئة ابنه. وهذا يُخبرنا بشيء عميق عما يُقدّره الله.

تنشئة طفل يرى الكون آيةً على خالقه، ويؤمن بالله عن قناعة لا إكراه، ويُحب الله عن علاقة لا خوف، ويحمل إيمانه في صلاته ومسؤوليته الاجتماعية وصبره في الشدة وتواضعه في النجاح: هذا من أعلى العبادات التي يستطيع إنسان أداءها.

وهذا، يُوحي القرآن من خلال هذه القصة، في متناول الجميع. فلقمان لم يكن نبيًا. كان إنسانًا حكيمًا أحبّ ابنه وأدرك الترتيب الصحيح الذي يجب أن تُقدَّم به الحقيقة. وهذا المزيج من الحكمة والمحبة والتسلسل الصحيح متاح لكل والد وكل معلم وكل مؤسسة تأخذ القرآن مأخذ الجِد دليلًا.

باتباع هذا النموذج نستطيع تنشئة أطفال ليسوا عارفين فحسب بل مؤمنين حقًا، لا مطيعين فحسب بل مقتنعين عميقًا، قادرين فحسب بل متعاطفين، لا متعلقين بتراثهم فحسب بل قادرين على حمله بثقة إلى أي عالم سيسكنونه.

الفصل الحادي عشر: القرآن محرّكًا للفضول والبحث

الحضارة المزدهرة مبنية على الفضول ولا سيما في شبابها، وعلى شغف متجدد بالاكتشاف. فبغير الدافع إلى التساؤل والاستكشاف والسعي إلى فهم أعمق، تركد المعرفة وتتحجّر المؤسسات ويفقد المجتمع تدريجيًا قدرته على الاستجابة للتحديات والفرص الجديدة. الفضول ليس ترفًا لحضارات متقدمة، بل هو محركها الرئيس.

وقد أدرك القرآن هذا قبل أن تُعبّر عنه أي نظرية حديثة في الابتكار أو التعليم. ففي كلمته الأولى دعا القرآن العقل البشري إلى التفاعل: القراءة والتأمل والسياحة في الأرض والملاحظة والتساؤل والتعقّل في طريقه نحو الحقيقة. فهو لا يُقدّم جملة استنتاجات تُقبل بصمت، بل يُقدّم دعوة إلى عمر من البحث الفاعل المنضبط المتواضع.

أولًا: تحدي القرآن للعقول الخاملة

أكثر تصريحات القرآن مباشرةً في شأن التفاعل الفكري هو أيضًا من أكثرها إزعاجًا:

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ (محمد: ٢٤)

هذه الآية تحدٍّ لا طمأنينة. تُواجه القارئ ببديلين صارمين: إما أنك منخرط في تأمل عميق فاعل، أو أن شيئًا قد أقفل قدرتك على الفهم. والقرآن يُقدّم السلبية الفكرية لا حالة محايدة بل ضربًا من الانغلاق، إقفالًا للملكة التي يدخل من خلالها الهدى.

وكلمة "تدبر" هنا مهمة. فهي لا تعني قراءة عابرة أو استماعًا سلبيًا، بل الوصول إلى "الدُّبُر"، إلى أعمق الداخل وأبعد الأبعاد، متتبعًا الفكرة إلى أقصى مقتضياتها وتاليًا المفهوم إلى جذوره ومُكثًا مع الآية حتى تتكشّف طبقات معانيها. وهو نقيض الانخراط السطحي.

بوضع هذا التحدي في قلب القرآن، يقول الله لكل قارئ: الحد الأدنى المقبول للتفاعل مع هذا الكتاب هو التأمل العميق الفاعل. والتلاوة بلا فهم تُكرّم شكل القرآن وتتخطى غرضه. فالقرآن لم يُنزَّل ليُتلى فحسب، بل ليُفهَم ويُتدبَّر ويُعمَل به.

ثانيًا: الأوامر بالسياحة في الأرض والملاحظة والبحث

لا يحصر القرآن دعوته إلى البحث في جدران الفصل الدراسي أو صفحات الكتاب. بل يدفع الإنسان للخارج، إلى العالم ذاته، آمرًا بالانخراط الجسدي والفكري مع الخلق:

قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأَخِرَةَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (العنكبوت: ٢٠)

هذا الأمر "سيروا في الأرض" ليس توصية بالترفيه بل توجيه للبحث العلمي والتاريخي. والغرض المذكور دقيق: انظروا كيف بدأ الخلق. وهذا أمر بدراسة الأصول: أصول الكون والحياة والأنواع والحضارات والإنسان. وعلم الكونيات والجيولوجيا والأحياء وعلم الآثار والأنثروبولوجيا من الميادين التي تستجيب لهذه الدعوة القرآنية لاستقصاء الأصول. وكل عالم يسافر إلى موقع بحثي، وكل جيولوجي يقرأ طبقات الصخور، وكل فلكي يرنو إلى الكون الباكر يستجيب لهذا الأمر القرآني.

والآية تربط هذا الاستقصاء للأصول مباشرةً بحقيقة البعث. فعمق الفهم في طريقة الله في ابتداء الخلق يعمّق في العقل القدرة على قبول قدرة الله على الخلق الآخر. فالبحث التجريبي يخدم الإيمان هنا. وكلما عمق الإنسان فهمه للقوة الإبداعية في العالم الطبيعي، صارت وعد البعث أكثر اتساقًا فكريًا.

ويُعزز القرآن هذه الدعوة إلى المراقبة الكونية بواحدة من أكثر آياته شهرة:

إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ (آل عمران: ١٩٠)

"أولو الألباب" هم من يستخدمون طاقتهم العقلية الكاملة: لا من يُلاحظون فحسب، بل من يُفكّرون بعناية فيما يُلاحظون ويستخلصون منه المعنى. والسماوات والأرض والميكانيكا الدقيقة لدورة الليل والنهار والديناميكيات المدارية المُنتِجة لها والظروف الجوية الحافظة للحياة، كل هذه آيات تنتظر عقولًا مستعدة للانخراط معها بجدية.

ثالثًا: لغة الاستفسار: المعجم الفكري للقرآن

من أبرز سمات القرآن كثافة الأفعال والمفاهيم المتعلقة بالتفكير والتأمل والتعقل والفهم. ويُوظّف القرآن عبر صفحاته معجمًا فكريًا ثريًا يتراكم مجتمعًا ليُشكّل نظرية متكاملة في الكيفية التي ينبغي أن يُقارب بها العقل البشري العالم:

- **التدبر :**التأمل العميق النافذ، تتبّع الفكرة إلى أعمق مقتضياتها. يُستخدم لوصف الانخراط الصحيح مع القرآن والخلق على حدٍّ سواء.
- **التفكر :**التفكير الفاعل والتأمل، التمرين المتعمد للعقل التأملي. يُوظَّف في الآية الشهيرة عمن يذكرون الله ويتفكرون في خلق السماوات والأرض.
- **التعقل :**ممارسة الحكم العقلي والمنطق السليم. وجذر "العقل" يعني الربط والضم، مُعبّرًا عن عملية ربط الملاحظات في فهم متماسك.
- **التفقه :**الفهم العميق واكتساب الإدراك الشامل، يُطبَّق خاصةً على المعرفة ذات الانعكاسات الحضارية.
- **النظر :**الرؤية بعناية وتحليل، الفحص لا مجرد اللمحة. يُوظَّف في الأمر بمراقبة الخلق والسياحة في الأرض.

- **العبرة :**استخلاص الدروس من الملاحظة والتاريخ، القدرة على العبور من الجزئي إلى الكلي ومن الماضي إلى الحاضر.

هذه المصطلحات مجتمعة لا تصف أفعالًا ذهنية منفصلة بل ثقافة فكرية متكاملة. وكثافة هذا المعجم الفكري في نص واحد أمر لافت للغاية. فالقرآن يُوظّف هذه المصطلحات مئات المرات، مُقدّمًا باستمرار الانخراط الفكري لا خيارًا للمؤمن الجاد بل سمةً مُعرِّفة للإيمان ذاته. فمن لا يُفكر ولا يتأمل ولا يتعقل ولا يستخلص دروسًا مما يُشاهد لم يستوفِ المعيار القرآني للانخراط مع العالم الذي خلقه الله.

ومن العسير تصوّر حضارة يتكرر عليها هذا المعجم دون أن تُطوّر في نهاية المطاف تقاليد في البحث والدراسة والاستقصاء العلمي والجدل والاستكشاف والاكتشاف.

وهذا المعجم إذا أُخذ بجدية ينتج نوعًا معينًا من البشر: فضوليًا تأمليًا حساسًا للدليل مستعدًا لمتابعة المنطق أينما أفضى ومتواضعًا بما يكفي للاعتراف بحدود ما يعلم. وهذا بالضبط النوع الإنساني الذي يقود الاكتشاف العلمي والتقدم الحضاري.

رابعًا: التساؤل طريقًا إلى الإيمان: نموذج إبراهيم عليه السلام

لعل أبلغ دليل على أن القرآن يرحّب بالتساؤل الحقيقي قصة النبي إبراهيم عليه السلام. فإبراهيم يُقدَّم في القرآن النموذجَ الأمثل للباحث: الإنسان الذي استخدم العقل والملاحظة والتساؤل الصادق ليصل إلى أعمق اليقينيات.

رحلته إلى الإيمان بدأت بالاستقصاء المنهجي. فهو راقب العالم من حوله وفحص كل مرشّح للألوهية بدوره: النجم والقمر والشمس. واختبر كلًا منها ووجده قاصرًا ورفضه بدليل منطقي. حين أفلت وتغيّرت وكشفت عن نفسها ظواهر تابعة لا مستقلة، انتقل عنها. وهي عملية ملاحظة وتقييم وإقصاء منطقي مُطبَّقة على سؤال الحقيقة القصوى: ما مصدر الوجود؟

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ... إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (الأنعام: ٧٩)

لم تُسلَّم هذه الخلاصة لإبراهيم. بل توصّل إليها بالملاحظة والفرضية والاختبار والرفض. والقرآن يُقدّم هذه العملية لا دليلًا على ضعف الإيمان بل الأساس الذي يُقام عليه أقوى الإيمان: يقين مكتسب بالاستدلال لا مجرد موروث بالتقليد.

ثم حتى بعد الوصول إلى هذا اليقين، سأل إبراهيم المزيد. فحين أراد أن يفهم كيف يُحيي الله الموتى، سأل مباشرة:

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (البقرة: ٢٦٠)

ثلاثة عناصر في هذا الحوار ذات دلالة تربوية بالغة.

أولًا، إعلان إبراهيم: "بلى ولكن ليطمئن قلبي." لم يسأل من شك بل من رغبة في يقين أعمق، في النوع من الفهم الذي ينقل المعرفة من العقل إلى صميم الكيان. وهذا أرقى صور التساؤل: لا التساؤل الباحث عن التهرب من الالتزام بل الباحث عن تعميقه.

ثانيًا، استجابة الله: لم يُؤنّب إبراهيم ولم يقل "ليس لك أن تسأل." بل كرّم السؤال بجواب مباشر تجريبي، عرضًا مُصمَّمًا لتحويل إيمان إبراهيم القائم إلى يقين مشهود مُتجسَّد.

ثالثًا، طبيعة العرض ذاته: كان عقلانيًا وكاشفًا معًا. فالله أعطى إبراهيم إجراءً، منهجًا. خذ أربعة أطيار وألّفها ومزّقها وضع أجزاءها على الجبال وادعها. والجواب جاء من خلال فعل أداه إبراهيم بنفسه، تجربة من نوع ما، عاين نتيجتها مباشرة. فالله علّم إبراهيم لا بالإملاء بل بالاكتشاف الموجَّه.

هذه هي تربية الاستفسار القرآنية: كرّم السؤال ووجّه العملية ودع الباحث يصل إلى اليقين من خلال تجربته المنخرطة هو.

خامسًا: الكون حقل متّسع للآيات

يقطع القرآن وعدًا بعلاقة الاكتشاف العلمي بالإيمان يغدو أكثر إدهاشًا مع مرور كل قرن:

سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ (فصلت: ٥٣)

الزمن هو المستقبل المستمر: "سنريهم." هذا ليس فعلًا منتهيًا بل وعد بتكشّف الدليل تدريجيًا عبر الزمن. فكلما تقدمت المعرفة الإنسانية واتسع أفق الاكتشاف العلمي، صارت آيات الله أكثر جلاءً لا أقل. فكلما أمعنّا النظر في الكون، ازداد وضوحًا ضبطه الدقيق الاستثنائي لإمكان الحياة. وكلما أمعنّا النظر في الخلية البشرية، تجلّت تعقيداتها الاستثنائية أكثر. وكلما أمعنّا النظر في بنية المادة، بان ضبط ثوابتها الأساسية بدقة استثنائية.

الآفاق تُمثّل الكون الخارجي: الفيزياء الفلكية وعلم الكونيات ودراسة المجرات والحقول الجاذبية ورسم خرائط المادة المظلمة وهندسة الزمكان. والأنفس تُمثّل الكون الداخلي: علم الجينوم وعلم الأعصاب ودراسة الوعي ورسم خرائط الميكروبيوم البشري والتعقيد الاستثنائي للجهاز المناعي. وكلا الميدانين تُسمّيهما الآية صراحةً حقلَين لمواصلة الكشف.

هذه الآية دعوة قائمة لكل جيل من العلماء والمفكرين: الكون ليس كتابًا مختومًا بل نص متّسع، وكل اكتشاف جديد آية جديدة تُقرأ بلغة الخلق.

سادسًا: وحدة المعرفة: لا فصل بين الدنيوي والديني

من أبلغ الإسهامات الفكرية للرؤية القرآنية رفضُها تقسيم المعرفة إلى دينية ودنيوية. ففي الإطار القرآني كل حقيقة متصلة لأن كل الخلق يصدر عن مصدر واحد.

وهذه الوحدة عميقة التأثير في كيفية مقاربة الحضارة الإسلامية للتعليم والبحث والحياة الفكرية. وهي تعني أن عالم الأحياء الذي يدرس الآليات الخلوية، والفيزيائي الذي يستكشف الحقول الكمومية، والمؤرخ الذي يُحلل صعود الحضارات وسقوطها، والمتكلم الذي يتأمل في الصفات الإلهية، كلهم في ميادينهم المختلفة منخرطون في المشروع الأساسي ذاته: فهم خلق الله. تختلف مناهجهم ومعاجمهم وأسئلتهم المحددة. لكن موضوعهم الأعمق واحد.

والقرآن يُعبّر عن هذه الوحدة من خلال مفهوم "الآيات". فآية القرآن آية، وظاهرة الطبيعة آية. وكلتاهما من مؤلف واحد. والتعمق في قراءة إحداهما يُعدّ الإنسان لقراءة أفضل للأخرى. فالعالم الذي يفهم العالم الطبيعي بعمق ودقة يجد القرآن يُخاطبه بصدى لا يبلغه القارئ الجاهل بالعلم. والمتخصص في القرآن الذي يفهم إشاراته إلى الخلق بعمق علمي يجد أبعاد معنى لا يبلغها التحليل النصي المجرد.

ولذلك فأمر القرآن بطلب العلم لا حدود تخصصية له. فالمؤمن الذي يستشفّ ميكانيكا الكم يستجيب لذلك الأمر الإلهي ذاته الذي يستجيب له المؤمن الذي يستشفّ معنى آية قرآنية. كلاهما يقرأ آيات وكلاهما يُكرّم الأمر الأول.

سابعًا: شجاعة التساؤل

بُعد أخر من أبعاد انخراط القرآن مع البحث يستحق الإشارة الصريحة: الشجاعة التي يستلزمها. فالفضول الحقيقي لا يكون مريحًا دومًا. فهو يطرح أسئلة قد لا تجد إجابات فورية، ويتتبع المنطق في أراضٍ غير مألوفة وأحيانًا مُقلقة. ويستلزم التواضع الفكري الكافي للإبقاء على سؤال مفتوحًا بدلًا من إغلاقه مبكرًا بجواب موروث.

و يُجسِّد القرآنُ هذه الشجاعة في كل صفحاته. فهو لا يكبت الأسئلة الصعبة بل يتعامل معها. وأسئلة المُشكِّكين والمُتَرَدِّدِينَ والمُعَارِضِينَ مَنْقُولَةً بِنَصِّهَا في القرآن الكريم. ثم تُعقَّب بردود عقلية. فالقرآن لا يعامل الشك عدوًا للإيمان، بل يعامل القبول الكسول غير التأملي الخطرَ الأكبر:

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ (البقرة: ١٧٠)

يُواجه القرآن أعمق ميل إنساني ترسّخًا: راحة الافتراض الموروث. ويطرح أصعب سؤال يمكن أن يواجهه إنسان: ماذا لو لم يكن ما قيل لك دائمًا حقًا؟ ماذا لو أن اليقين الذي ورثته ليس يقينًا حقيقيًا؟ ماذا لو اقتضى اتباع الدليل والمنطق إعادة فحص مسلّمات ورثتها دون تأمل؟

هذا التحدي ليس هدّامًا بل محرِّر. فالإيمان الذي خُضع للفحص والتساؤل والاختبار بالدليل والعرض على نور العقل إيمان يستطيع إسناد صاحبه في كل شيء. والإيمان الذي لم يُتساءل فيه قط إيمان قد لا يصمد أمام أول اختبار جدي.

والقرآن يريد النوع الأول من الإيمان. وينتجه من خلال المسار الذي تتبّعه هذا الفصل بالضبط: الأمر بالتأمل، ودعوة الملاحظة، وتكريم الأسئلة، ونمذجة الاستقصاء في سيرة الأنبياء، والوعد بأن آيات الكون ستواصل تجلّيها لمن ينظر بعناية كافية.

خاتمة: دع القرآن يُشعل عقلك

القرآن ليس كتابًا يطلب منك إيقاف تفكيرك عند الباب. بل هو كتاب يطلب منك إحضار كامل طاقتك الفكرية إلى الداخل والانخراط مع الخلق بكل ملكة أعطاكها الله: البصر والسمع والعقل والتأمل والقلب الذي يعرف الحقيقة حين يلقاها.

الحضارة التي تأخذ هذا بجدية ستُنتج أطفالًا فضوليين لا يخشون السؤال عن لماذا. وستبني جامعات تُكرّم السؤال بقدر ما تُكرّم الجواب. وستموّل بحثًا ينفذ إلى المجهول مدركةً أن كل اكتشاف جديد لقاء جديد مع آيات الله. وستُنتج علماء يُصلّون وعلماء دين يُجرّبون، مدركين أن الهوّة بينهم لم تكن يومًا في القرآن.

دع القرآن يُشعل فضولك. دعه يدفعك لاستكشاف ما في الآفاق وما في نفسك. دعه يمنحك شجاعة طرح الأسئلة التي لم يُجب عنها تراثك بعد، والتواضع للإبقاء عليها مفتوحة بصبر حتى تتضح الآيات.

هذا هو الطريق إلى النمو الشخصي والتقدم الحضاري وذلك النوع من الإيمان الذي ظل القرآن يبنيه دائمًا: لا موروث ولا مفروض ولا مُؤدًّى، بل مكتشَف ومُختبَر ومُعمَّق، يمتلكه صاحبه بالثقة الهادئة الراسخة لمن أمعن النظر في الآيات وعرف إلى ماذا تُشير.

الفصل الثاني عشر: الأمن والدفاع والضرورة التكنولوجية

تستلزم القوة الحضارية الاستعداد والابتكار والقدرة المستدامة على الدفاع. في عصر يشهد تقدماً متسارعاً في الذكاء الاصطناعي، واستكشاف الفضاء، والحوسبة الكمية، والهندسة الجينية، لا يزال بعض المسلمين يقصرون تعاملهم مع القرآن على التلاوة الطقسية، أو الفقه في مسائل الحلال والحرام، فيفوتهم الرسالة الأعمق: أن القرآن منهج لبناء أمة قوية واعية بربها، مهمتها المحورية تبليغ رسالة الله إلى البشرية وإقامة العدل في الأرض.

غير أن الوفاء بهذه المهمة يستوجب قاعدة صناعية وتكنولوجية متقدمة، ودفاعاً راسخاً قادراً. فالأمة التي لا تستطيع حماية نفسها لا تستطيع حماية قيمها، والأمة التي تفتقر إلى الطاقة الصناعية لا تستطيع تطبيق مبادئها على نطاق واسع. والقرآن يعالج هذه المسألة مباشرة، وبتفصيل يفاجئ كلَّ من يقرأه بتأمل.

١. الأركان الثلاثة للتأييد الإلهي

تتضمن أشمل آية قرآنية في العلاقة بين الإيمان والعدل والقوة المادية، قوله تعالى في سورة الحديد:

"لقد أرسلنا رسلنا بالبينات، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس، وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب، إن الله قوي عزيز." (الحديد 57: 25)

هذه الآية بالغة الأثر في بنيتها؛ إذ تضع في جملة واحدة ثلاثة عناصر جنباً إلى جنب بوصفها مكونات لمهمة إلهية واحدة: الكتاب، وميزان العدل، والحديد. فالوحي والعدل والقدرة الصناعية العسكرية ليست ميادين منفصلة، بل هي أضلاع ثلاثة لمهمة حضارية واحدة.

ثم تطرح الآية السؤال الفاصل: من الذي ينصر الله ورسله حقاً؟ والجواب كامن في الآية ذاتها: هم الذين يتعاملون مع الأركان الثلاثة جميعاً؛ حاملو الرسالة الإلهية، المقيمون للعدل في كل شأن من شؤون الحياة، البُناة للقوة المادية والعسكرية اللازمة لحماية الاثنين والحفاظ عليهما.

ومن هذا المنطلق تترسخ ثلاثة أركان لا تقبل الاستغناء من النصر الإلهي:

أولاً: تبليغ كتاب الله إلى البشرية.
مهمة الأمة المسلمة ليست الحفاظ على الذات. إنها تبليغ الهدى الإلهي إلى الإنسانية كلها. والأمة التي تنكفئ على نفسها وتتخلى عن هذه المهمة تتخلى عن مبرر وجودها.

ثانياً: إقامة العدل في كل مناحي الحياة.
الميزان ليس استعارة؛ فهو يمثل منظومة الحكم العادل، والتجارة النزيهة، والقانون المتساوي، وصون الحقوق. والأمة التي تتلو الوحي وتتسامح مع الظلم قد فصلت الكتاب عن غايته.

ثالثاً: بناء القوة الصناعية والعسكرية.
الحديد في سياق هذه الآية يمثل الأساس المادي للقدرة الحضارية: البنية التحتية المعدنية والصناعية والعسكرية التي لا تُصان الرسالة ولا يُحفظ العدل دونها. والأمة التي تفتقر إلى هذه القدرة تظل أمة رهينة الاعتماد على غيرها في بقائها، وبذلك لن تكون حرة حقاً في أداء مهمتها.

والتاريخ يُثبّت هذا النمط بإيجاع ثابت: كل حقبة من حقب القوة الحضارية الإسلامية اتسمت بالأركان الثلاثة معاً: تعمق في الوحي، وأنظمة عدل فاعلة، وقدرة مادية متقدمة. وكل حقبة تراجع كانت نتاج إهمال ركن واحد على الأقل، وغالباً الأركان الثلاثة.

والوعد الإلهي بالنصر مشروط:
"يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم." (محمد 47: 7)
ونصرة الله تعني الوفاء بالأركان الثلاثة جميعاً، لا انتقاء الأيسر منها وإهمال سائرها.

٢. الحديد أساس الحضارة الصناعية

الصناعة الأساسية التي شيّدت عليها كل أمة متقدمة صرحها هي صناعة الحديد والصلب. وهذه ليست ملاحظة عصرية فحسب، بل أدرك القرآن مركزية الحديد في الحضارة البشرية منذ أربعة عشر قرناً، فأفرد له سورة كاملة وأشار إلى تطبيقاته في فصول متعددة.

وقد أضافت الفيزياء الفلكية الحديثة بُعداً لافتاً إلى الوصف القرآني لإنزال الحديد، إذ أثبت علم الفلك الحديث أن الحديد يُصنَع في النجوم عبر عمليات تسبق تكوّن المنظومات الكوكبية. فالحديد الموجود على الأرض نشأ في الأصل خارجها، مما يجعل التعبير القرآني "وأنزلنا الحديد" بالغ الإيحاء والدلالة.
ثم يضرب القرآن مثلين تاريخيين على توظيف الحديد بمهارة تقنية رفيعة: أحدهما في صناعة الدروع، والآخر في البنية التحتية الوقائية على نطاق واسع.

نبي الله داوود وفن صناعة الدروع

"وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم، فهل أنتم شاكرون." (الأنبياء 80)

يصف القرآن تعليمَ الله نبيَّه داوود عليه السلام صناعةَ الدروع مباشرة، وهى نعمة إلهية تستوجب الشكر. وهذا يرسّخ مبدأً بالغ الأهمية: إن تطوير التكنولوجيا الدفاعية ليس ضرورة عملية فحسب، بل هو نعمة من الله، وإن القدرة على تصنيع الحماية للناس هي في ذاتها فعل شكر ورعاية.

فالقرآن لا يثني على الشجاعة في المعركة وحسب، بل يثني على تطوير التكنولوجيا التي تحفظ الأرواح. والكلمة المستخدمة هي **"صَنعة"**، وتعني الحرفة والمهارة والتصنيع: الإنتاج المقصود المتعلَّم لمنتج متطور. وهذا ليس اكتشافاً عارضاً، بل هو تطوير تكنولوجي متعمد، كرّمه القرآن بوصفه تعليماً إلهياً.

ذو القرنين والهندسة على النطاق الحضاري
يقدم حساب ذي القرنين في سورة الكهف مثالاً أكثر تفصيلاً تقنياً على الهندسة القائمة على الحديد:

"آتوني زبر الحديد، حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا، حتى إذا جعله ناراً قال آتوني أُفرغ عليه قطراً." (الكهف 96)

يصف هذا المقطع عملية بناء مركّبة تشمل: استخراج كتل الحديد ونقلها، وتجميع هيكل ضخم بين جبلين، وتسخينه في أفران مضبوطة بالمنافخ، ثم صبّ النحاس المصهور فوق الإطار الحديدي لإنشاء حاجز معزّز. وهذا علم مواد وهندسة إنشائية مطبَّقان على نطاق حضاري، مقدَّمان لا بوصفهما معجزة، بل بوصفهما إنجازاً عملياً لحضارة قادرة منظّمة تعمل تحت قيادة رشيدة.

والأسلوب الذي انتهجه ذو القرنين، بدمج الحديد والنحاس في بنية طبقية مركّبة، يجسّد المبدأ الهندسي الراسخ القائم على الجمع بين المواد للاستفادة من مزايا كل منها. والقرآن يقدم هذا نموذجاً يُحتذى، لا مجرد قصة تُروى.

٣. الأمر ببلوغ أقصى الاستعداد

بعد أن أرسى القرآن قيمة الحديد وعرض نماذج تاريخية لتطبيقه، أصدر أشمل أمر مباشر يتعلق بالقدرة الدفاعية:
"وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم." (الأنفال 8: 60)

ثلاثة عناصر في هذا الأمر تستوقف العقل:
"ما استطعتم "لا يضع سقفاً لمستوى الاستعداد المطلوب. والفريضة هي تطوير القدرة إلى أقصى حد ممكن في ضوء الموارد والمعرفة المتاحة. في القرن السابع كان ذلك يعني الخيل والسلاح. وفي القرن الحادي والعشرين يعني الذكاء الاصطناعي، والدفاع السيبراني، والقدرات الفضائية المتقدمة، والتصنيع الدقيق، والحوسبة الكمية، وكل ميدان آخر من ميادين التكنولوجيا الاستراتيجية.

الأمر خالد بالضبط لأنه لم يحدد تكنولوجيا بعينها، بل حدد معياراً: أقصى قدرة ممكنة لديك.

والمعادل الحديث للحديد ليس مادة واحدة، بل هو المنظومة الكاملة للقدرة الاستراتيجية: التصنيع المتقدم، والبحث العلمي، والذكاء الاصطناعي، ومنظومات الطاقة، والاتصالات الآمنة، والتكنولوجيا الحيوية، وتكنولوجيا الفضاء، والمؤسسات التي ترعى الابتكار. فالأمر بتطوير القوة يستلزم إذن استثماراً متواصلاً في التعليم والبحث والريادة التكنولوجية.

"ترهبون "يُثبّت أن الغاية من هذا الاستعداد هي الردع لا العدوان. فالهدف من القوة العسكرية في الإطار القرآني هو رفع تكلفة الاعتداء على الأمة المسلمة إلى حد يجعل المعتدين المحتملين يختارون السلام

عوضاً. وهذا هو منطق نظرية الردع الحديثة، مُصاغاً بوضوح في نص أُنزل قبل أربعة عشر قرناً من صياغة تلك النظرية.
"وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم "عبارة لافتة تمتد بنطاق الاستعداد إلى ما وراء التهديدات المعلومة والمرئية. فالمنظومة الدفاعية الشاملة ينبغي أن تحسب حساب تهديدات لم تتبلور بعد، وأعداء لم يُفصحوا عن أنفسهم، ومخاطر لا تستطيع الاستخبارات الراهنة استيعابها كاملاً. وهذا تحديداً ما يدفع الاستثمار الحديث في الاستخبارات والأمن السيبراني ودراسة التكنولوجيات الناشئة بوصفها ناقلات محتملة للصراع.

٤. قصص القرآن نماذج للاستقصاء التكنولوجي

قصص القرآن ليست مجرد روايات تاريخية. إنها، كما يصفها القرآن ذاته، عبر لأولي الألباب. وحين تصف الأدوات التي وظّفها القدر الإلهي في مواجهة الأمم الظالمة، فإن القارئ المؤمن ذا الفضول العلمي مدعوٌّ إلى التساؤل: ما الفيزياء الكامنة وراء هذا؟ وماذا يكشف لنا عن قوى الطبيعة؟ وكيف يمكن أن يُفيد الإنسانيةَ توظيفُ فهم هذه القوى؟

حسابان على وجه الخصوص يستحقان هذا التأمل العلمي.

طير الأبابيل: الدقة الجوية المنسّقة
"وأرسل عليهم طيراً أبابيل، ترميهم بحجارة من سجيل." (الفيل 3-4)

الوصف هنا دقيق: عدد من العوامل الجوية المنسّقة، يُلقي كل منها قذيفة محددة على هدف أرضي بعينه. وكلمة **"أبابيل "**تصف طيوراً تطير في تشكيلات منظمة أو موجات متعاقبة، لا قطيعاً عشوائياً. وكل طائر يحمل قذيفة بعينها ويُطلقها.

وقد يلحظ القارئ المعاصر تشابهات لافتة بين هذا الوصف وبعض المبادئ الظاهرة في المنظومات الجوية المنسّقة: كالتحليق بالتشكيلات، والعمل الموزّع، والاستهداف الدقيق. وتكنولوجيا أسراب الطائرات المسيّرة من أكثر ميادين البحث العسكري الحديث نشاطاً، تحديداً لأنها تجمع بين الحجم، والتنسيق، والدقة، والصمود الموزّع، وهو ما تصفه سورة الفيل بدقة.

القرآن لا يقول إن الطيور طائرات مسيّرة. بل يصف، من خلال منظور الفعل الإلهي، نمطاً من الإيصال الجوي الدقيق المنسّق، يستطيع العقل البشري الذي يقرأه بفضول علمي أن يتعرف فيه نموذجاً يستحق الفهم والمحاكاة المحتملة.

الصيحة التي أهلكت ثمود: الصوت قوةً
يقدم حساب هلاك قوم ثمود دعوة علمية ثانية رائعة للتأمل. فقد أهلك الله قومَ ثمود الذين كذّبوا النبي صالحاً عليه السلام **بالصيحة**، الانفجار الصوتي الهائل:

"فلما جاء أمرنا نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ، إن ربك هو القوي العزيز. وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين." (هود 66-67)

"إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر." (القمر 31)

يسرد القرآن أربعة تفاصيل محددة عن هذا الحدث ذات دلالة علمية:

- كان الموت فورياً، ناجماً عن حدث صوتي واحد
- سقط الضحايا في أماكنهم :**جاثمين**، خامدين لا حراك بهم
- تفتّت أجسادهم وهشّت :**كهشيم المحتظر**، كالحطب اليابس المكسور
- بقيت مساكنهم الحجرية سالمة، بينما لم ينجُ ساكنوها من البشر

والعالِم المؤمن الذي يقرأ هذا الحساب بالفضول الذي يطلبه القرآن سيتساءل: هل هذا ممكن فيزيائياً؟ هل يمكن للصوت أن يقتل فعلاً؟ والجواب، الذي تُثبته الفيزياء الصوتية الحديثة، هو: نعم. فالعلاقة بين شدة الصوت والضرر البيولوجي تسير وفق تدرّج موثّق:

التأثير البيولوجي	مستوى الصوت
عتبة الألم	120ديسيبل
تمزق طبلة الأذن	150ديسيبل
تلف الرئة والأعضاء	200ديسيبل
الموت الفوري بتمزق الأعضاء	فوق 200 ديسيبل

عند مستويات شدة فائقة تتجاوز 200 ديسيبل، تُمزّق موجات الضغط الصوتيةُ الأنسجةَ البيولوجية الرخوة: الرئتين، والأمعاء، والدماغ، وهو ما يتسق على نطاق واسع مع عدة عناصر في الوصف القرآني للموت الفوري والانهيار الجسدي. أما نجاة المنشآت الحجرية فلها تفسير مماثل: ينفطر النسيج البيولوجي البشري الرخو عند ضغط زائد يبلغ 5 إلى 10 أرطال لكل بوصة مربعة، بينما تحتاج المنشآت الحجرية إلى 20 إلى 50 رطلاً لكل بوصة مربعة كي تتعرض لضرر هيكلي. وحدث صوتي مُعايَر بدقة عند التردد والشدة المناسبَين قادر على إهلاك كل مَن في المبنى من البشر مع إبقاء المبنى ذاته سالماً، وهو تحديداً ما يصفه القرآن.

وتُضيف الشواهد الأثرية طبقة أخرى: لا تزال مواقع سكن قوم ثمود في منطقة الحِجر بشمال غرب الجزيرة العربية ماثلةً للعيان حتى اليوم، ومنشآتها الحجرية محفوظة بصورة لافتة. وحساب القرآن والأدلة المادية متّسقان.

من السلاح إلى المنفعة: التطبيقات المدنية لعلم الصوت

هل تستطيع يد البشر صنع صيحة كصيحة ثمود؟ تقنية الأسلحة الصوتية لا تزال محدودة حتى اليوم. فالصوت ينتشر طبيعياً في كل الاتجاهات، وتتبدد الطاقة الصوتية المُركّزة بسرعة مع المسافة، ويظل حجم الجهاز المطلوب لإخراج طاقة قاتلة على مدى بعيد عائقاً عملياً. وقد طوّرت بعض الدول أجهزة صوتية بين 120 و150 ديسيبل لتفريق الحشود ، غير أن منظومة صوتية قاتلة محدّدة الهدف بالدقة التي يصفها القرآن لا تزال خارج نطاق قدرة الإنسان الراهنة.

لكن الدراسة العلمية للقوى الصوتية أثمرت تطبيقات مدنية تحويلية:

- **الحفر الصوتي :**يقطع الاهتزاز عالي التردد التكوينات الصخرية بكفاءة تفوق الحفر الميكانيكي التقليدي بمراحل، مع تطبيقات واسعة في التعدين والهندسة الجيوتقنية.
- **الاسترداد الزلزالي للنفط :**ترسل الموجات الصوتية المضبوطة عبر التكوينات الصخرية لتحرير النفط المحتجز، مما يرفع معدلات الاستخراج من الآبار القائمة دون الحاجة إلى حفر إضافي.
- **الموجات فوق الصوتية الطبية :**تخترق موجات صوتية عالية التردد الأنسجة البيولوجية بأمان، لتتيح التصوير غير الجراحي للأعضاء الداخلية ونمو الجنين والأوعية الدموية، وهي من أكثر أدوات التشخيص الطبي استخداماً في العالم.
- **العلاج بالموجات فوق الصوتية المُركّزة :**تُستخدم طاقة صوتية مستهدفة بدقة في تدمير الأورام وعلاج الحالات العصبية دون جراحة، وهو ميدان ناشئ ينطوي على إمكانات هائلة.

والنمط هنا متّسق مع المنهج القرآني الأشمل في التعامل مع المعرفة: وصف ظاهرة إلهية يدعو إلى الاستقصاء العلمي، وذلك الاستقصاء يُعمّق فهمنا لقوى الطبيعة، وهذا الفهم يُنتج تكنولوجيا تخدم الإنسانية، حتى حين تعجز اليد البشرية عن إعادة إنتاج الظاهرة الأصلية بالكامل.

٥. التكامل بين الإيمان والقدرة التكنولوجية

ما تُثبّته هذه الأمثلة مجتمعةً هو مبدأ يسري في كل معالجة القرآن لشؤون الدفاع والعلم: الإيمان والقدرة التكنولوجية ليسا قيمتين متنافستين، بل هما بُعدان متكاملان لمهمة حضارية واحدة.

الأمة المسلمة التي تتفوق في التكنولوجيا العسكرية وتتخلى عن العدل قد صارت هي الظالم الذي يأمرها القرآن بمقاومته. والأمة المسلمة التي تدعو إلى العدل ولكنها تفتقر إلى القدرة على الدفاع عنه، ستجد قيمها مغلوبةً أمام من لا يشاركونها إياها. والأمة المسلمة التي تقرأ القرآن طلباً للهدى الطقسي وحده، مُعرِضةً عن دعواته المتكررة إلى الاستقصاء العلمي، قد قطعت على نفسها أحد أهم مصادر القوة التي أودعها الله بين يديها.

أمر القرآن شامل ومُطالِب: احمل الكتاب، وأقم الميزان، وطوّر الحديد. بلّغ الرسالة، وأقم العدل، وابنِ القدرة.
"يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم." (محمد 7)

ونصرة الله بمعناها الكامل في هذه الآية تستلزم علماء ومهندسين وأطباء واستراتيجيين وتقنيين يجمعون بين عمق الإيمان وسعة المعرفة. وتستلزم مؤسسات تستثمر في البحث وتُكرّم التميز الفكري وتوظّف نتائجه في خدمة العدل والدفاع عن الأمة. وتستلزم ثقافة تقرأ القرآن لا دليلاً للعبادة فحسب، بل دعوة قائمة إلى فهم قوى الخلق وتسخيرها لخير الإنسانية.
غار حراء أخرج أمر "اقرأ". وذلك الأمر لم يُلغَ قط. والسؤال لكل جيل من المسلمين: هل سيُجيبون عنه بكامل ما يستحق من جواب؟ قارئين الكتب الثلاثة جميعاً: كتاب الكون، وكتاب النفس البشرية، وكتاب المعرفة المتراكمة، بالجدية التي يستوجبها أول كلمة في الوحي.

خاتمة: الأمة التي ينصرها الله

الأمة التي ينصرها الله ليست الأمة التي تُطيل ساعات الصلاة وبنيتها التحتية آيلة للسقوط، وشعبها عاجز عن امتلاك أسباب الدفاع عن النفس. وليست الأمة التي تُشيّد أقوى الجيوش وهي تُهمل العدل وتنسى رسالتها الإلهية.

إنها الأمة التي تحمل الثلاثة معاً: وحياً تُبلّغه بوضوح وحكمة، وعدلاً تُقيمه بشجاعة وثبات، وقدرةً تُطوّرها بكامل طاقة العقل الإنساني الذي أُمر بأن يقرأ.

تلك الأمة، يَعِد القرآن، ستجد أقدامها ثابتة راسخة.

الفصل الثالث عشر: رؤية الجمال في كل شيء: ثقافة الإحسان في القرآن الكريم

كل ما خلقه الله يؤدي غرضاً، غير أنه يحمل في الوقت ذاته انسجاماً وتوازناً وأناقةً تشدّ القلب نحو التأمل. والقرآن يُدرّب المؤمن على رؤية هذا الجمال لا بوصفه عارضاً في الخلق، بل جوهراً فيه: بُعد من الفن الإلهي منسوج في كل مخلوق، وكل مشهد، وكل لحظة في عالم الطبيعة.

حتى حين يتحدث الله عن الأنعام، تلك الحيوانات التي كثيراً ما نُختزلها في أدوات للعمل أو مصادر للغذاء، يُذكّرنا بأنها أيضاً مصدر جمال وبهجة:

"والأنعام خلقها، لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون. ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون." (النحل 5-6)

يدعونا الله إلى التوقف: لنُلاحظ هدوء القطيع العائد عند الغروب، وحيوية حركته عند الفجر. وهذا درس للمؤمن: لا تمشِ في الحياة بقلب نفعي لا يرى إلا ما يمكن استخراجه أو استهلاكه. امشِ بقلب شاكر، قلب يُدرك النعمة والفن والإتقان الإلهي حتى في أبسط المشاهد وأكثرها ألفة.
إن رؤية الجمال تُعمّق الشكر. والشكر على الجمال هو معرفة بالله.

١. أن تكون جمالاً: دعوة القرآن إلى حسن الخلق

لا يتوقف القرآن عند تدريب أبصارنا على رؤية الجمال في الخلق، بل يأمرنا أن نصبح جمالاً: في أخلاقنا وسلوكنا وردود أفعالنا، لا سيما حين تشتد الحياة وتقسو.

يُقرَن التميز الأخلاقي في القرآن مراراً بكلمة **"جميل"**. والجمال لا يُحجز للحظات الرخاء، بل يُطلب بإلحاح أشد في لحظات الألم والصراع والفقد والابتلاء. يدعو الله المؤمن إلى معيار أرفع: لا أن يصبر على الشدة فحسب، بل أن يتجاوزها بجمال. لا أن ينجو من الصعوبة، بل أن يخرج منها وكرامته صافية وطابعه مصقول.

وهذه ليست مشاعر سلبية، بل هي رياضات روحية فاعلة تُحوّل المحنة إلى كرامة والألم إلى صقل.

الصفح الجميل
"وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق، وإن الساعة لآتية، فاصفح الصفح الجميل." (الحجر 15: 85)

يصل الأمر محاطاً بذكر خلق السماوات والأرض واليقين من الساعة. وهذا الإطار بالغ الدلالة: إذ يُذكّر المؤمن بأنه يعيش داخل نظام إلهي أشمل، وأن العدل ملك لله وحده، وأن التخلي عن الضغينة لذلك فعل ثقة بهذا النظام لا استسلام للظلم.

الصفح الجميل هو العفو بلا مرارة ولا ضغينة، ودون رغبة في التذكير أو الإذلال. إنه إطلاق سراح الثقل ابتغاء وجه الله وحده. وهذا الصفح يُعتق قلب العافي قبل أن ينفع المعفوَّ عنه.

الصبر الجميل

"قال: بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً، فصبر جميل." (يوسف 12: 83)

جاءت هذه الكلمات من النبي يعقوب عليه السلام في واحدة من أشد لحظات حياته وطأة: فقدان ابن ثانٍ ظاهراً بعد أن فقد يوسف من قبل. لم يكن ردّه استسلاماً أو انهياراً، بل كان إعلاناً عن ثبات كريم متجذّر في الإيمان.

الصبر الجميل هو الاحتمال بلا شكوى: ثبات مُلفَّف بالكرامة والثقة في توقيت الله. إنه قوة نفس ترفض الانهيار، ويظل يقينها بحكمة الله راسخاً حتى حين تبدو أحوال الحياة عديمة المعنى. وصبر يعقوب لم يكن سلبياً. كان تمسكاً فاعلاً بالإيمان في مواجهة الجاذبية الثقيلة للحزن.

السراح الجميل

"يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها، فمتعوهن وسرحوهن سراحاً جميلاً." (الأحزاب 49)

حتى في لحظات النهاية، تلك اللحظات التي يكتنفها الألم وضغط الاستياء والإغراء بالانتقام، يأمر الإسلام بالإنصاف والرحمة والشرف. وكلمة **"تسريح "**تحمل صورة فتح القفص وإطلاق العصفور حراً دون أذى. فالمؤمنون لا يغادرون العلاقات من أبواب الإهانة والانتقام، بل يخرجون من أبواب الكرامة والسخاء. والمبدأ يتجاوز حدود الزواج: كل نهاية في الحياة يمكن التعامل معها بكرامة أو بمرارة.

الهجر الجميل

"واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلاً." (المزمل 10)

حين يواجه المؤمن السخرية أو العداء أو البيئات التي تُنهك الروح، فإنه لا يردّ بقبيح. بل يُحجم بهدوء، مُفوِّضاً العدل لله مع صون نبل طابعه. والهجر الجميل لا يُغلق الأبواب بعنف، بل يُوصدها برفق مع إبقاء الكرامة سليمة.

هذه التعبيرات الأربعة، الصفح الجميل، والصبر الجميل، والسراح الجميل، والهجر الجميل، تُشكّل العمارة الأخلاقية لاستجابة المؤمن تجاه المحن. وتُعلّم معاً درساً عميقاً: الجمال في الإسلام لا يُقاس بسلوكنا حين تكون الحياة سهلة، بل بسلوكنا حين تشتد. وهي ترفع ردود الأفعال الغريزية إلى مراتب العبادة، وتُحوّل الابتلاءات إلى مسالك للصقل والقرب من الله.

٢. معيار التميز: طلب الأفضل لا الأدنى

يأتي البُعد الثاني لثقافة الجمال القرآنية من تفصيل رائع في قصة أصحاب الكهف. بعد نوم امتد ثلاثة قرون يقظوا على جوع شديد. وكثير من الناس في مثل هذا الضيق يُسارعون إلى أي طعام في متناول اليد. غير أن هؤلاء الفتية الصالحين فعلوا ما رأى القرآن أنه جدير بالتسجيل:

"فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاماً." (الكهف 19)

وكلمة **"أزكى "**لا تعني المباح فحسب، بل تعني الأطيب والأنقى والأعلى جودة. وحتى في حال الحاجة الحادة، سعوا إلى الأفضل لا إلى المتاح فحسب. والقرآن يُسجّل هذه التفصيلة لأن التميز ليس حكراً على الإنجازات الكبرى، بل يتجلى في الاختيارات اليومية. وهذا هو معيار المؤمن: لا الحد الأدنى، بل أعلى جودة تتيحها الظروف.

وينبغي لهذا الحس الرفيع من **الذوق**، حسن التقدير والسعي نحو الإتقان، أن يُشكّل كل منحى من مناحي الحياة:

- **في القول: "وقولوا للناس حسناً." (البقرة 83)**
- **في العمل :**قال النبي صلى الله عليه و سلم: "إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يُتقنه." (البيهقي)
- **في المظهر والبيئة :**النظافة والنظام والعناية بالمظهر الشخصي والمحيط انعكاساً للانضباط الداخلي والشكر.

وحياة المؤمن تتسم بالرقي والعناية والجودة، لأن ذلك يعكس الجمال الذي يُحبه الله.

٣. النظافة والنظافة الشخصية: التعبير المادي عن الجمال

ثقافة الجمال القرآنية لا تقف عند حدود الطابع والروح. إنها تمتد إلى الجسد والبيت ومكان العمل والبيئة العامة. والنظافة في الإسلام ليست مسألة تفضيل شخصي أو عادة ثقافية، بل هي التزام ديني وقيمة حضارية متجذّرة مباشرة في الأمر الإلهي.

وفي بعض المجتمعات المسلمة، تراجعت معايير النظافة الشخصية والبيئية عن المُثل التي يُرسيها الإسلام ذاته. وقد كان المسلمون تاريخياً في طليعة من دمج السباكة الداخلية والحمامات الخاصة في العمارة المنزلية، وهو إنجاز حضاري ذو جذر مباشر في التشديد القرآني والنبوي على الطهارة.

الأساس القرآني للطهارة

يفتتح القرآن معالجته للعبادة بالإصرار على الطهارة الجسدية:
"يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين." (المائدة 6)

فريضة الوضوء، التي تُؤدَّى خمس مرات على الأقل يومياً قبل كل صلاة، تعني أن المسلم الملتزم يغسل يديه ووجهه وقدميه عدة مرات كل يوم. وهذه ليست نظافة عارضة، بل ممارسة يأمر بها الله تجمع بين الاستعداد الروحي والنظافة الجسدية، فتجعل الاثنين لا ينفصلان في حياة المؤمن.
وتختتم الآية ذاتها بتصريح يضع النظافة مباشرة جانب الإيمان:
"ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون." (المائدة 5: 6)

وتصف الآية الكريمة أهل قباء، الذين أثنى النبي صلى الله عليه وسلم على مسجدهم، بعبارة تربط حالهم الروحي مباشرة بالتزامهم بالطهارة:
"فيه رجال يحبون أن يتطهروا، والله يحب المطهرين." (التوبة 108)

لا يحتمل هذا النص التأويل: الله يُحب المطهّرين. وهذه ليست مسألة هامشية، بل تصريح بما يجلب المحبة الإلهية.

التوسيع النبوي: الطهارة نصف الإيمان
رفع النبي محمد صلى الله عليه وسلم المبدأ القرآني للنظافة إلى واحدة من أشمل العبارات في التراث الإسلامي:
"الطهور شطر الإيمان." (صحيح مسلم)

نصف الإيمان. وهذا تصريح بالغ يردّده كثير من المسلمين دون أن يستوعبوا دلالته كاملاً. فإن كانت الطهارة تُشكّل نصف الإيمان، فإن إهمال النظافة ليس تقصيراً شخصياً بسيطاً، بل خلل جسيم في علاقة المرء بالله.

وحدّد النبي صلى الله عليه وسلم عناصر الفطرة:
"خمس من الفطرة: الختان، والاستحداد، ونتف الإبط، وتقليم الأظفار، وقص الشارب." (صحيح البخاري ومسلم)
وهذه الممارسات، التي تمثل النظافة الشخصية الأساسية، لا تُوصف بوصفها تفضيلات ثقافية بل تعبيرات عن **الفطرة**، الطبيعة الإنسانية الربانية التي يُقرّها الإسلام ويُهذّبها. وإهمالها انحراف عن الحال الإنسانية التي أرادها الله.

إنجاز حضاري: المسلمون وتاريخ النظافة
لم يكن التشديد الإسلامي على النظافة تعليماً روحياً فحسب، بل أثمر إنجازاً حضارياً بالغ الأهمية التاريخية. في وقت كان الاستحمام العام والصرف الصحي المنزلي نادرَين أو معدومَين في معظم أنحاء العالم، شيّدت الحضارة الإسلامية:

- **حمامات خاصة داخل المنازل** بوصفها ميزة معيارية في العمارة المنزلية الإسلامية، مدفوعةً بمتطلبات الطهارة الشرعية. وتُثبت الشواهد الأثرية في المدن الإسلامية المبكرة وجود أنظمة سباكة داخلية متطورة منذ القرن الثامن الميلادي.

- **الحمامات العامة (الحمّامات)** بوصفها ركائز محورية في الحياة الحضرية الإسلامية، توفر مرافق استحمام لكامل الأحياء. والحمّام لم يكن رفاهية، بل كان مؤسسة دينية ومدنية.
- **أنظمة صرف صحي وتصريف متطورة** في المدن الإسلامية كبغداد وقرطبة والقاهرة، التي كانت من أكثر البيئات الحضرية نظافة في العالم الوسيط.
- **معايير نظافة في المستشفيات الإسلامية المبكرة** في بغداد والقاهرة لم تبلغها المنشآت الطبية الأوروبية إلا بعد قرون.

وهذه الريادة الحضارية في النظافة والصرف الصحي كانت ثمرة مباشرة للالتزام الديني. فالإيمان ذاته الذي أوجب الوضوء خمس مرات يومياً أنتج أيضاً الأنظمة الهندسية والمعمارية التي جعلت النظافة قابلة للتحقق على نطاق واسع.

النظافة في المسجد والعمل والبيت

لقد سمح العالم الإسلامي المعاصر في مواضع كثيرة لهذا الإرث الحضاري بالتراجع. والمساجد التي ينبغي أن تكون من أنظف المباني وأجملها في أي مجتمع، كثيراً ما تُهمَل. وأماكن العمل والفضاءات العامة في البلدان ذات الغالبية المسلمة كثيراً ما تقصر عن المعايير التي يفرضها الإسلام. والعادات الفردية في النظافة الشخصية، لا سيما في السياقات المهنية والاجتماعية، لا تُصان دائماً على المستوى الذي يستوجبه الدين وتستوجبه الكرامة الإنسانية الأساسية.

وهذه مسألة لا يعالجها القرآن باقتراح ناعم، بل بتصريح مباشر :**الله يُحب المطهّرين** .والمؤمن الذي يحضر اجتماعاً مهنياً أو دار عبادة أو فضاءً عاماً مُهملاً نظافته الشخصية لم ينتهك معياراً اجتماعياً فحسب، بل أهمل التزاماً يفرضه عليه دينه.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم صريحاً في هذا في سياق العبادة الجماعية:
"من أكل الثوم والبصل فليعتزلنا وليعتزل مسجدنا." (صحيح البخاري ومسلم)

فإن كان النبي قد أرسى مبدأ أن الرائحة المنفّرة لا مكان لها في بيت الله، فبأي قدر أعظم يسري هذا المبدأ على كل فضاء يجتمع فيه المسلمون ويعملون ويمثّلون دينهم أمام العالم؟

الصورة الكاملة: الطهارة الباطنة والطهارة الظاهرة

يُقدّم القرآن الطهارة الباطنة والطهارة الظاهرة لا بوصفهما ميدانين منفصلين، بل كُلاً موحّداً. فكلمة **"طهارة "**واحدة تستوعب التطهير الشعائري والنظافة الجسدية. والمحبة الإلهية ذاتها التي يستجلبها النقاء الروحي يستجلبها النقاء الجسدي. والانضباط ذاته الذي يُبني الطابع الجميل يبني عادات النظافة الجميلة والعناية بالبيئة.
"إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين." (البقرة 222)

التوبة والطهارة مقرونتان في آية واحدة، كل منهما تعبير عن المحبة الإلهية ذاتها. فمن يطلب محبة الله بصدق التوبة ويُهمل الطهارة الجسدية قد سعى إلى نصف ما دعاه الله إليه.

٤. ملخص النبي صلى الله عليه وسلم للجمال

لخّص النبي محمد صلى الله عليه وسلم فلسفة هذا الفصل كله في حديث مُضيء:
"إن الله جميل يحب الجمال." (صحيح مسلم)

الله يُحب القلب الجميل المُعبَّر عنه بالصفح الجميل والصبر الجميل وحسن الخلق في الشدة. ويُحب اللسان الجميل الذي يتكلم بعناية وخير. ويُحب الحضور الجميل: الشخص الذي تعكس نظافته ورقيّه وتميّز سلوكه الصفة الإلهية للجمال في العالم.

ويُحب العمل الجميل المُؤدَّى بالإتقان والإحسان. ويُحب الاختيار الجميل لأصحاب الكهف الذين سعوا إلى أزكى الطعام حتى في حال الضيق. ويُحب الهجر الجميل للمؤمن الذي يُحجم عن العداء بهدوء لا بانتقام. ويُحب جسد المؤمن وبيئته حين يأخذ جدياً بالأمر: تطهّروا، فإن الله يُحب المطهّرين.

خاتمة: حياة الإحسان

ثقافة الجمال القرآنية ليست تفضيلاً جمالياً، بل هي طريقة شاملة للوجود في العالم: طريقة ترى الجمال في الخلق بعيون شاكرة، وتستجيب للشدة بطابع جميل، وتسعى إلى التميز لا إلى الحد الأدنى، وتُحافظ على طهارة الجسد والبيئة بوصفها عبادة.

وعبّر النبي صلى الله عليه وسلم عن هذا الاكتمال:
"ما شيء أثقل في ميزان المؤمن من حسن الخلق." (أبو داود)

لتكن أخلاقك جميلة. ولتكن صبرك جميلاً. وليكن صفحك جميلاً. وليعكس بيتك ومكان عملك ومسجدك وجسدك الجمالَ الذي يُحبه الله.

الحضارة في نهاية المطاف تعكس طابع من بنوها. والمجتمعات الجميلة تنبثق من أناس يمارسون الجمال في عبادتهم وعملهم وعلاقاتهم وسلوكهم.

لا نكن أهل الحد الأدنى. لنكن مصادر دفء ورقيٍّ وتميّز في كل فضاء نسكنه، وكل علاقة نحيا فيها، وكل عمل نُقدم عليه.

هذا هو **الإحسان** :أن تعيش كأنك ترى الله، يقيناً منك بأنه يراك. وأن تعلم أن ما يراه يريده جميلاً.

الفصل الرابع عشر: الصلاة: منهج للحياة

في جسم الإنسان العادي، تحمل نحو 37 تريليون خلية الشفرة الجينية ذاتها المكتوبة في حمضها النووي. هذه الشفرة محررة بلغة جزيئية من أربعة أحرف، بالغة الإيجاز وحاملة في الوقت ذاته كل تعليمة لازمة لبناء أعقد نظام بيولوجي في الكون المعروف وتشغيله وصيانته وإصلاحه. وكل خلية في جسمك، من الخلايا العصبية المتشابكة في دماغك إلى الخلايا المبطّنة لشراييك، تحتوي على المخطط الكامل. فالشفرة لا تُختزن في مكان واحد لتُستشار أحياناً، بل هي حاضرة في كل مكان، فاعلة دائماً، مُشكِّلة لكل شيء.

فكّر الآن في حياتك. إن كان جسمك مبنياً على شفرة دقيقة محفوظة فاعلة في كل خلية في كل لحظة، فما الشفرة التي تُشكّل طريقة حياتك؟ ليس ما تتلوه، بل ما تُطبّقه. ليس ما تُعلنه، بل ما تقرره. خمس مرات كل يوم تقف أمام الله وتتلو كلمات كاملة قوية. والسؤال الحقيقي ليس: ماذا تقول في صلاتك؟ السؤال الحقيقي هو: هل ما تقوله يُكتب في حياتك كما يُكتب الحمض النووي في خلاياك؟ هل يُشكّل قراراتك كما تُشكّل الشفرة الجينية تكوينك البيولوجي؟ أم يبقى كالكلمات على صفحة لا تقرأها خلية قط، جميلاً في شكله منفصلاً عن مضمونه؟

١. الأداء مقابل الإقامة: الفرق الذي يُغيّر كل شيء

لم يأمرنا الله بأداء الصلاة وحسب، بل أمرنا بإقامتها:

"أقيموا الصلاة." (البقرة 43، وتكرر في مواضع عديدة من القرآن)

والفرق بين المفهومَين ليس دقيقاً خفياً، بل هو الفرق بين مبنى رُسم على ورق ومبنى شُيّد على أرض الواقع.

الأداء هو الإنجاز: حركات مُستكملة، وكلمات مُتلوّة، وركعات محسوبة. يفعل هذا ملايين المسلمين كل يوم. الشكل حاضر. الفريضة مُؤدَّاة. السجل مُدوَّن.

الإقامة شيء أعمق من ذلك. مأخوذة من "قام": أن تنتصب وتثبت، أن تجعل شيئاً راسخاً دائماً، أن تُوجِد شيئاً في العالم حقاً. حين تُقيم شيئاً، أنت لا تزوره فحسب، بل تبني حياتك حوله. تجعله الهيكل الذي يرتكز عليه كل شيء آخر.

حين يقول الله "أقيموا الصلاة"، يقول لك: اجعل الصلاة قائمة في حياتك. اجعلها مرئية خارج المسجد. اجعلها حقيقية خارج السجادة. اجعلها فاعلة خارج الدقائق القليلة للشعيرة ذاتها.

ويصف الله بنفسه كيف تبدو إقامة الصلاة في الواقع العملي:
"أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر، إن قرآن الفجر كان مشهوداً." (الإسراء 78)

لاحظ ما لم يقله الله. لم يقل: "صلِّ خمس مرات." بل رسم قوساً متواصلاً: من ميل الشمس عند الظهر، مروراً بالعصر والمغرب والعشاء، حتى غسق الليل، ثم يفتح النهار التالي بالفجر. فالصلاة ليست خمس أحداث منفصلة متناثرة في اليوم، بل هي حال متواصلة من التوجّه تمتد عبر كامل حياتك اليقظة، من لحظة فتح عينيك إلى لحظة إغماضهما.

ثم يُفرد الله الفجر بتصريح يستحق التأمل العميق" *إن قرآن الفجر كان مشهوداً* ".نعم، تشهده الملائكة. لكن فكّر في أبعد من ذلك.

فجرك يشهده نهارك كله.
ما أعلنته عند الفجر، هل يظهر عند الظهر؟ هل هو حيّ في تعاملاتك؟ هل هو حاضر في قراراتك آخر النهار؟ النهار ذاته يصبح شاهداً على ما قلته في الظلام قبل أن يبدأ.

٢. الله أكبر: إعلان أنت مدعوٌّ لحمله معك

كل صلاة تبدأ بكلمتين تُرددهما في كل ركعة، كل يوم، كل عام من حياتك:
الله أكبر

تدخل الصلاة بالله أكبر، لكنك لا تخرج منها بالله أكبر. تخرج بالسلام. لماذا؟ لأن "الله أكبر" ليس باباً تفتحه ثم تُغلقه. بل هو عدسة أنت مدعوٌّ لحملها معك حين تنصرف.

فكّر فيما تُعلنه فعلاً في كل مرة تقولها. أنت تُصرّح ببنية الواقع: الله أكبر من كل شيء في الوجود. أكبر من مخاوفك. أكبر من دخلك. أكبر من سمعتك. أكبر من كل ضغط وكل تهديد وكل إغراء وكل موقف يبدو مستحيلاً ستواجهه بين هذه الصلاة والتالية.

حين تضغط عليك ظروفك المهنية للتنازل عن مبدأ :**الله أكبر** .حين يقدّم لك الإغراء الاختصار وكأنه الخيار الوحيد المعقول :**الله أكبر** .حين تهمس المخاوف بأن الصدق سيُكلّفك كثيراً :**الله أكبر** .الله أكبر من هذه اللحظة. أكبر من هذه الخسارة. أكبر من أي شيء تظن أنك ستضطر إلى التضحية به حين تختار الصواب.

هذا الإعلان المُردَّد أربع وتسعون مرة في الصلوات الفريضة وحدها ليس شعاراً، بل هو التوجيه الجوهري. لو كان حياً حقاً في وعيك طوال النهار لأعاد تشكيل كل قرار تتخذه.

٣. إيّاك نعبد: أهم ميثاق تُبرمه كل يوم

سبع عشرة مرة على الأقل كل يوم، تتلو أعظم إعلان في علاقتك بالله:
"إياك نعبد وإياك نستعين." (الفاتحة 5)

قِف عند كلمة **"إيّاك "**وحدك. لا: أنت وعلاقاتي. لا: أنت واستراتيجيتي. لا: أنت ورضا من أحتاج رضاهم . **أنت وحدك.**
هذا لا يعني التخلي عن الأسباب. نحن ندرس ونخطط ونعمل بجد وننسج علاقات ونطور مهارات. لكن الاتكاء الأعمق للقلب، المكان الذي تستقر فيه الثقة أخيراً، لله وحده. الأسباب أدوات. والاعتماد على من يُقرر ما إذا كانت الأدوات تنجح أم لا.

وأُلهم النبي صلى الله عليه وسلم حقيقة تُرسّخ هذا الإعلان في الواقع العملي:
"إن نفساً لن تموت حتى تستكمل أجلها وتستوعب رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب." (ابن حبان، صحيح)

رزقك مكفول. أجلك محدد. ما ليس مكفولاً هو ما إذا كنت ستسعى إلى ما قُدِّر لك بأمانة أو بتنازل. وإعلان "إيّاك نستعين" هو تجديد يومي للالتزام بطلب الرزق بطرق كريمة نزيهة، ثقةً بأن ما كتبه الله لا يأخذه اختيار الأمانة، ولا يُزيده التفريط في النزاهة.

لا تدفعك الحاجة إلى المعصية. ما عند الله لا يُنال إلا بطاعته.

٤. الفجوة: حكاية نسختَين من الشخص ذاته

دعني أُجسّد هذا المبدأ في لحظة ملموسة يعرفها أكثرنا.
كان ثمة تاجر: رجل طيّب، مُصلٍّ، معروف في مسجده ومُحترَم في محيطه. صلّى الفجر وأدى إعلاناته ثم توجّه إلى دكانه.
جاء رجل عجوز، واضح عليه الضيق، يحتاج شيئاً بإلحاح. وكان عند التاجر ما يحتاجه. لكنه حين رأى الحاجة الماسة، تحرّك في داخله شيء. لم يرَ أخاً في ضيق، بل رأى فرصة. فرفع السعر بهدوء. تردد العجوز، ثم دفع. تمت الصفقة. انصرف العجوز. وقال التاجر لنفسه: "هذه تجارة. هكذا تسير الأسواق".

لكن التاجر ذاته كان قبل ساعتين من تلك الصفقة قد وقف أمام الله وأعلن :**إياك نعبد .**وتلا **الرحمن الرحيم .**فأعلن الرحمة بلسانه عند الفجر وأمسكها بيده في السوق. الرجل الذي صلّى والرجل الذي باع لم يكونا شخصاً واحداً. كانت ثمة فجوة بينهما، ولم يُجسّرها شيء.

تخيّل الآن التاجر ذاته، والصباح ذاته، والعجوز المحتاج ذاته، والحاجة ذاتها. لكن مع فارق واحد.
بينما يشرح العجوز حاله، تصعد من أعماق أبعد من العادة فكرة. يتذكر الفجر. يتذكر قوله: الله أكبر.
يتذكر أن الله أكبر من هذا الربح وأكبر من هذه الفرصة. يتذكر :**إياك نعبد،** لا دخلي، لا مكسبي. فينظر إلى العجوز ويقول: "خذها بالسعر المعتاد. وإن كان ذلك فيه عسر، سنُرتّب أمراً".
ينصرف العجوز بكرامته. ويعود التاجر إلى عمله.

هل خسر؟ ربما شيئاً من المال. لكنه كسب شيئاً أعظم بكثير :**الاتساق** .في تلك اللحظة، الرجل عند الفجر والرجل في السوق كانا شخصاً واحداً. الفجوة كانت قد انسدّت.

هذه هي **الإقامة** .هذا ما يعنيه إقامة الصلاة.
هذه ليست قصة شخص سيئ في مقابل شخص جيد. إنها قصة نسختَين من الشخص ذاته، والفارق الوحيد بينهما لم يكن المعرفة. كلاهما كان يعرف قيمة الرحمة. الفارق كان الاتصال: أحدهما كانت صلاته تقف على السجادة، والآخر حمل صلاته معه إلى الطريق.

٥. سؤال واحد قبل كل قرار

الجسر بين نسختَيك من نفسك ليس معقداً. لا يحتاج دورة تدريبية ولا قراراً جديداً ولا شعيرة أكثر تفصيلاً. يحتاج توقفاً واحداً صادقاً بسيطاً.
قبل أن تتصرف، اسأل نفسك :**هل ما أنا على وشك فعله ينتمي إلى نفس الشخص الذي وقف أمام الله هذا الصباح؟**

هذا السؤال، حين يُطرح بصدق وانتظام على مكتبك وفي بيتك وفي تجارتك وفي علاقاتك، هو كيف تُبنى الإقامة. لا في المسجد وحده. قرار واحد في كل مرة، في اللحظات العادية من يوم عادي.
قال النبي صلى الله عليه وسلم:
"الصلاة عماد الدين." (البيهقي)

وما الذي يفعله العمود؟ يحمل الثقل. يتحمل أعباء كل ما شُيّد فوقه. إن كان العمود متيناً، قام البناء. وإن كان مجوّفاً، انهار تحت وطأة حمله مهما بدا رائعاً من الخارج.

فاسأل نفسك: ما الذي تحمله صلاتك في حياتك؟ أي ثقل تتحمله؟ أي قرارات تؤثر فيها؟ وماذا تمنع؟ وماذا تُنتج؟

٦. اختبار الشاهد

تخيّل أن شخصاً تبعك يوماً كاملاً، من الفجر إلى العشاء. راقب كل تفاعل وكل معاملة وكل قرار وكل لحظة خاصة. سمع كل حديث ورأى كل اختيار اتخذته حين لم يكن أحد ينظر.

هل كان سيرى أي دليل على أنك وقفت أمام الله خمس مرات في ذلك اليوم؟

هل كان سيرى **الله أكبر** في نزاهتك تحت الضغط؟ هل كان سيرى **إياك نعبد** في صدق عملك ونظافة معاملاتك؟ هل كان سيرى **وإياك نستعين** في الطمأنينة التي تواجه بها الغموض بدل الهرولة نحو الاختصارات؟ هل كان سيرى **اهدنا الصراط المستقيم** في الأولويات التي اخترتها والمسالك التي رفضت سلوكها؟

هذا ليس سؤالاً للتوليد الشعور بالذنب؛ فالذنب بلا توجيه لا طائل منه. إنه سؤال لإيقاظ الوعي، لأنك متى رأيت الفجوة، باتت قادراً على البدء في سدّها.

وسدّ تلك الفجوة، قرار واحد في كل مرة وتوقف صادق في كل مرة، هو أهم مشروع في حياة المؤمن.

٧. ما الذي ستُسأل الصلاة أن تُنتجه؟

القرآن لا يُفصّل كل حركة جسدية في الصلاة. علّمها النبي صلى الله عليه وسلم عبر سنته بقوله: "صلوا كما رأيتموني أصلي." لكن القرآن يتحدث باستمرار وبإلحاح عن إقامة الصلاة تحديداً، لأن الحركات الجسدية يمكن تعلمها في وقت قصير، أما إقامة الصلاة فتستغرق العمر كله.

وقد لا يقتصر الحساب يوم القيامة على: "هل صلّيت؟" بل قد يمتد إلى" :**ماذا أنتجت صلاتك؟"**
هل أنتجت شخصاً نزيهاً يُوثق بكلامه؟ شخصاً يُكرّم الله في خلوته كما يُكرّمه في ملئه؟ شخصاً كانت معاملاته نظيفة وطابعه ثابتاً وإعلاناته عند الفجر مرئية في سلوكه بعد المغيب؟

أم هل كانت الصلاة تعيش في حجرةٍ مُحكَمة الإغلاق، وبقية الحياة في حجرةٍ أخرى، بحيث لا تلتقي الاثنتان أبداً، ولا يعبرما اعلنته فى الصلاة من سجادة الصلاة الى العالم الخارجي ؟
"إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر." (العنكبوت 45)

هذا هو تعريف القرآن ذاته لما تُنتجه الصلاة المُقامة. فهي لا تشغل الوقت فحسب، بل تمنع فاعلة. تُنشئ حاجزاً بين الشخص وما هو خطأ، لا بقوة النهي وحدها، بل بقوة اتصال حيّ: اتصال شخص أعلن للتو أمام الله من يعتزم أن يكون.

وصلاة لا تنهى عن الفحشاء والمنكر في حياة من يُؤدّيها هي صلاة أُدّيت ولم تُقَم. الشكل حاضر. الجوهر لم يتجذّر بعد.

لهذا تحتل إقامة الصلاة هذه المكانة المحورية في القرآن. ليست مجرد فريضة من بين فرائض. إنها الآلية التي تُعيد اتصال المؤمن باستمرار بكل الفرائض الأخرى. العدل والأمانة والصبر والتميز والرحمة والشجاعة والثقة بالله تتجدد وتترسخ في كل مرة يقف فيها المؤمن أمام ربه.

خاتمة: سدّ الفجوة

كل صلاة فرصة جديدة لإعادة التوازن. أن تقف أمام الله وتقول: ليُطابق ما أفعله بعد هذه الصلاة ما قلته خلالها. وليكن الشخص الذي يُغادر هذه السجادة هو الشخص ذاته الذي سيعود إليها.

لا يأخذ الحمض النووي في جسمك استراحةً بين عمليات التضاعف. ولا يعمل فقط حين يُراقَب. إنه فاعل في كل خلية، في كل لحظة، يُشكّل الكائن الذي صُمِّم لبنائه.

والصلاة صُممت لتفعل الشيء ذاته في حياتك: أن تكون فاعلة في كل قرار، حاضرة في كل تفاعل، مُشكِّلة الشخص الذي صُممت لبنائه: شخصاً نزاهته متسقة، وطابعه منسجم، وحياته دليل قابل للقراءة على أنه وقف أمام الله اليوم.

هذه هي الإقامة. هذا هو منهج الحياة.

الصلاة عماد الدين. فتأكد أن عمادك متين.

جسر: من الجزء الثاني إلى الجزء الثالث

استكشفت الفصول السابقة ما يطلبه القرآن من الفرد: أن يقرأ بفهم، ويتعامل بنزاهة، ويُربّي بحكمة، ويُنمّي الفضول، ويسعى إلى التميز، ويحمل أثر الصلاة في كل قرار من قرارات حياته اليومية. وهذه ليست مطالب هيّنة. إنها مطالب وحي يأخذ الإنسان مأخذ الجد بوصفه حاملاً للكرامة الإلهية وأميناً على الأمانة الربانية.

غير أن القرآن لا يوجّه الإنسان نحو الداخل فحسب، نحو الطابع الشخصي والسلوك الفردي. بل يوجّهه أيضاً نحو الخارج، نحو العالم الأرحب والمسائل الكبرى التي تحيط به. فهو يدعو الناس مراراً وتكراراً إلى المشاهدة والتأمل والاستقصاء والسياحة في الأرض والموازنة والتعقّل والتعلم من آيات الله في الخلق والتاريخ والنفس البشرية.

والفصول التالية تستكشف هذا البُعد الخارجي. تدرس كيف أشعل القرآن جذوة البحث العلمي، وأسّس حضارات المعرفة، ودعا إلى التأمل في أسئلة تتعلق بالكون والتاريخ الإنساني واللغة والوعي والتقنيات التي تتجاوز الطاقة البشرية الراهنة. وغرضها ليس تحويل القرآن إلى مقرر للعلوم أو الهندسة، بل استكشاف كيف يمكن للوحي أن يكون وقوداً للاكتشاف، ومصدراً لأسئلة تستحق البحث، ودليلاً يوجّه الاستقصاء الإنساني باستمرار نحو آفاق جديدة.

الجزء الثالث: الأُفُق

القرآن وحدود المعرفة الإنسانية

كل حضارة تبلغ في نهاية المطاف حدود ما تعرفه. والسؤال الذي يرسم مستقبلها هو: كيف تتصرف حين تصل إلى تلك الحدود؟ هل تتحصّن خلف ما هو معلوم وتتعامل مع المجهول بوصفه تهديداً؟ أم تمضي في استكشافها، واثقة بأن الحق متسق وأن كل اكتشاف حقيقي يُعمّق في نهاية المطاف فهمَ الإنسانية للخالق وخلقه؟

يوجّه القرآن الانتباه باستمرار إلى ما يتجاوز حدود المعرفة الإنسانية الآنية. فيدعو إلى التأمل في نشأة الكون، وبنية السماوات والأرض، وصعود الحضارات وأفولها، وطبيعة اللغة والتواصل، وحقيقة البعث، وظواهر تظل تتحدى الفهم البشري. بعض هذه التأملات يجد أوجه تقابل لافتة مع الاكتشافات العلمية الحديثة. وبعضها لا يزال موضع بحث وتقصٍّ. وبعضها الآخر يُشير إلى إمكانات قد لا يُحيط بها الفهم الإنساني إلا في أجيال قادمة.

والفصول السبعة من الجزء الثالث تستكشف هذه الحدود عبر طيف من المنظورات. تبدأ بالنموذج التاريخي للعصر الذهبي الإسلامي، مُبيّنةً كيف غدت حضارة شكّلها نداء القرآن إلى المعرفة أحد أعظم مراكز الإنجاز العلمي والفكري في التاريخ. ثم تنتقل عبر تقنية المعلومات وعلم الكونيات وعلم الآثار واللغة والفيزياء والتقنيات الناشئة، تسأل في كل محطة: كيف يمكن للمفاهيم القرآنية أن تُضيء الأسئلة الراهنة وتُلهم الاستقصاء المستقبلي؟

وطوال الفصول التالية، ستُميَّز بعناية ثلاث فئات:

- **النتائج العلمية الثابتة.**
- **أوجه التقابل الموثوقة بين الأوصاف القرآنية والفهم العلمي.**
- **التأملات الاستشرافية المطروحة بوصفها أسئلة بحثية لا خلاصات.**

غرض هذه الفصول ليس تحويل القرآن إلى مقرر علمي، بل استكشاف كيف يمكنه أن يُلهم الاكتشاف ويُرشد الاستقصاء ويفتح آفاقاً جديدة للبحث.

الحضارة التي يصفها القرآن شُيّدت من قبل، بصورة غير مكتملة وجزئية، غير أنها كانت مهيبة في بهائها. بيد أن الآفاق التي يُشير إليها القرآن لا تزال مفتوحة. وهذه الفصول دعوة لمواصلة الرحلة.

الفصل الخامس عشر: العصر الذهبي للحضارة الإسلامية: حين كان الإيمان والمعرفة شيئاً واحداً

حضارة أخذت كتابها المقدس بحرفيته

في القرن الثامن الميلادي، حدث في العالم الإسلامي ما لم يحدث من قبل وما نادراً ما تكرر بعده. قررت حضارة، بصورة جماعية ومؤسسية، أن تأخذ كتابها المقدس بكلامه الصريح.

قال الكتاب: اقرأ. فقرأوا كل شيء، بكل لغة، من كل حضارة سبقتهم.

قال الكتاب: سيروا في الأرض فانظروا. فساروا وقاسوا ورسموا الخرائط وصنّفوا.

قال الكتاب: في خلق السماوات والأرض لآيات لأولي الألباب. فرنوا إلى السماوات بأرصاد بنوها بأيديهم، ووجدوا ما وعدهم الكتاب بإيجاده: آيات.

والنتيجة كانت واحدة من أبهى انبثاقات الإنجاز العلمي والفلسفي والطبي والرياضي في العالم القديم.

فلخمسة قرون متوالية، من نحو 750م إلى 1258م، كانت العاصمة الفكرية للحضارة الإنسانية تقع في مدن العالم الإسلامي: بغداد وقرطبة والقاهرة وسمرقند وطليطلة. والعلماء الذين شيّدوا هذه الحضارة لم يكونوا مفكرين علمانيين وُلدوا مسلمين بالصدفة. كانوا، دون استثناء تقريباً، بشراً مؤمنين إيماناً عميقاً كان فضولهم تجاه العالم الطبيعي لا ينفصل عن إيمانهم بخالقه.

إن فهم سبب حدوث هذا، وسبب توقفه في نهاية المطاف، هو من أهم الدروس التي يقدمها القرآن للعالم الإسلامي اليوم.

١. الأساس العقدي: أربعة مبادئ بنت حضارة

لم يُشيَّد العصر الذهبي للحضارة الإسلامية على المصادفة أو الحظ السياسي أو مجرد تراكم الثروة. شُيّد على فهم عقدي محدد لمعنى الإنسان، مستمَدٍّ مباشرة من القرآن. وأربعة مبادئ، راسخة جميعها في التعليم القرآني الصريح، أنتجت الثقافة الفكرية التي أتاحت العصر الذهبي.

المبدأ الأول: الإنسان مُكرَّم من الخالق

"ولقد كرمنا بني آدم." (الإسراء 70)

تُرسّخ هذه الآية مبدأً بالغ الأثر الحضاري: كل إنسان يحمل كرامة ذاتية منحها الله مباشرة. وهذه الكرامة لا تُكتسب بالمكانة الاجتماعية أو النسب أو التقوى، بل تخص كل ولد لآدم بحكم خلقته.

والتداعي الحضاري مباشر. المجتمع الذي يُؤمن صادقاً بالكرامة الإلهية لكل إنسان سيستثمر في تنمية الطاقة البشرية عبر كامل أطياف مجتمعه. سيبني المدارس والمستشفيات والمكتبات لا بوصفها كماليات للمتميزين، بل واجباتٍ تجاه حاملي الكرامة الإلهية. وسيُكرّم العالِم والطبيب و عالم الرياضيات لا لأنهم

نافعون اجتماعياً فحسب، وإن كانوا كذلك، بل لأن تنمية قدرة الإنسان على المعرفة هي في حد ذاتها تعبير عن الكرامة التي أودعها الله في الإنسان.

وقد فهم علماء العصر الذهبي هذا جيداً. لم يدرسوا العالم الطبيعي لأنه مفيد مهنياً. درسوه لأنهم فهموا أنفسهم بوصفهم كائنات كرّمها الله بقدرة فهم خلقه، فشعروا بالالتزام بممارسة هذه القدرة إلى أقصاها.

المبدأ الثاني: الإنسان لا يعبد سيداً إلا الخالق

لا توجد آية أنجزت عملاً حضارياً أعظم، حين تُتمثَّل حقاً، من إعلان **لا إله إلا الله** .وهذا ليس تصريحاً لاهوتياً وحسب، بل إعلان حرية فكرية ووجودية.

حين يُقبل العالِم إقبالاً صادقاً بأن لا سلطة بشرية ولا قوة سياسية ولا عرف اجتماعي ولا موروث تقليدي يملك السلطة المطلقة التي تخص الله وحده، يصبح حراً في تساؤله عن كل ما لم يُحدَّد إلهياً. يتحرر من الشلل الفكري الناجم عن الإذعان للسلطة لمجرد كونها سلطة. يتمكن من المشاهدة والاختبار والمراجعة والاستنتاج، لأن المعيار الوحيد الذي يجب أن تُقاس به نتائجه في نهاية المطاف هو الحق، والحق ملك لله.

وقد أثبت علماء العصر الذهبي هذه الحرية مراراً. فترجموا الفلسفة اليونانية والرياضيات الهندية لا لأن ثقافتهم أجازت ذلك، بل لأن الحق أينما جاء يستحق المعرفة. احترموا أرسطو لكنهم لم يعدّوه معصوماً. وحين خالفت المشاهدة والأدلة النتائج الموروثة، راجعوها وفق ذلك. راجعوا بطليموس حين طالبت بذلك قياساتهم الفلكية. ولم يعاملوا إرث اليونان وفارس بوصفه مقدساً، بل بوصفه نقطة انطلاق للاستقصاء، وتجاوزوه أينما قادهم الدليل.

وهذه هي الحرية الفكرية التي ينتجها التوحيد حين يُفهم فهماً حقيقياً: ليست الحرية الضيقة في رفض الأديان الأخرى، بل الحرية الرحبة في مطاردة الحق دون أن تُقيّدك سلطة أي مخلوق.

المبدأ الثالث: الإنسان خليفة، أمين على الخلق

"وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة." (البقرة 30)

مفهوم الخلافة من أكثر مفاهيم القرآن أثراً في فهم علاقة الإنسان بالعالم الطبيعي. فالإنسان لم يُوضع على الأرض ساكناً سلبياً أو لاجئاً روحياً ينتظر الحياة الآخرة. وُضع بوصفه أميناً، ممثلاً للإرادة الإلهية في إدارة الخلق.

والأمانة تستلزم المسؤولية، والمسؤولية تستلزم المعرفة. فالأمين الذي لا يفهم ما يُدير لا يستطيع إدارته جيداً. والخليفة الذي لا يفهم القوانين المُنظِّمة للعالم الطبيعي: بيئياً وكيميائياً وفيزيائياً وبيولوجياً، لا يستطيع الوفاء بدور الخلافة الذي عيّنه الله له.

وفهم علماء العصر الذهبي الخلافة بوصفها تفويضاً بالمعرفة الشاملة. إن معرفة العالم معرفة كافية لإدارته بعدل وحكمة تستلزم فهمه فهماً عميقاً: موادّه وقواه وأنظمته الحية ومجتمعاته الإنسانية والعلاقات

الرياضية الحاكمة لكل ذلك. وهذا التفويض دفعهم إلى كل ميدان من ميادين الاستقصاء: من الفلك إلى الطب إلى الزراعة إلى الهندسة إلى التنظيم الاجتماعي.

المبدأ الرابع: الإنسان محاسَب أمام الخالق

"فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون." (الحجر 92-93)

يقين المحاسبة الإلهية يُحوّل كل فعل من أفعال الاستقصاء الفكري من هواية خاصة إلى مسؤولية كونية. فالعالِم الذي مُنح القدرة على فهم بُعد من أبعاد خلق الله فاختار عدم تنميته، الذي كانت لديه القدرة على تخفيف معاناة الإنسان بالطب فاختار عدم السعي إليه، الذي كان يمكنه تطوير خلافته في الأرض بالهندسة فاختار عدم دراستها: سيُسأل عن ذلك الاختيار.

وهذا الجدية العقدية في مسألة المحاسبة أحد أكثر المحركات التي أُهملت في تفسير إنتاجية العصر الذهبي. لم يكن علماء تلك الحقبة فضوليين فحسب. كانوا مدفوعين بإحساس عميق بالواجب: بأن مواهب العقل والقدرة التي أودعها الله فيهم أمانات يجب تنميتها وتوظيفها لخير الإنسانية، وأن خلافتهم في هذه المواهب ستُراجَع يوم القيامة.

وهذه المبادئ الأربعة مجتمعة، الكرامة الإلهية للإنسان والحرية من كل سلطة إلا سلطة الله والمسؤولية بوصفه خليفة على الخلق والمحاسبة أمام الخالق، أنتجت ثقافة فكرية لم يسبق للعالم أن عرفها. فحرّرت العقل وحفّزت الإرادة ووجّهت الانتباه نحو العالم الطبيعي بوصفه ميدان آيات إلهية، وفرضت معيار الجدية والنزاهة على كل فعل استقصاء.

٢. مؤسسة العصر الذهبي: بيت الحكمة

كان التجسيد المؤسسي لهذه الرؤية العقدية هو **بيت الحكمة**، الذي أُسّس في بغداد في عهد الخليفة هارون الرشيد وبلغ ذروته في عهد ابنه المأمون في مطلع القرن التاسع الميلادي.

لم يكن بيت الحكمة مكتبة، وإن احتوى على واحدة من أعظم مكتبات العالم. ولم يكن جامعة بالمفهوم الحديث، وإن أعدّ أجيالاً من العلماء. كان مؤسسة بحثية شاملة: مكاناً تجري فيه الترجمة والبحث الأصيل والنقاش والسعي المنظم للمعرفة في كل ميدان في آن واحد، مموَّلة من الدولة ومُعاملة بوصفها أولوية حضارية.

وترجم علماء بيت الحكمة ما يكاد يكون التراث العلمي والفلسفي اليوناني كله الباقي إلى العربية، بما فيه أرسطو وأفلاطون وإقليدس وبطليموس وجالينوس وأرشميدس وعشرات سواهم. ولم يفعلوا ذلك بسلبية، بل قرأوا ونقدوا وصوّبوا وطوّروا ما وجدوا. وفي غضون جيل واحد من ترجمة كتاب "المجسطي" لبطليموس (رسالة في الرياضيات وعلم الفلك)كان علماء الفلك المسلمون قد رصدوا أخطاءه وكانوا يُنتجون جداول فلكية أدق. وفي غضون قرن من ترجمة الطب اليوناني تجاوز الأطباء المسلمون في الممارسة السريرية وعلم الأدوية والجراحة كل ما أنجزه جالينوس.

كان بيت الحكمة التجسيد المادي للأمر القرآني باقرأ: اقرأ كتاب الخلق، واقرأ كتاب المعرفة الإنسانية المتراكمة، واقرأ كتاب النفس البشرية. وقد أخذ هذه الأوامر الثلاثة بحرفيتها وبنى مؤسسة لتنفيذها.

٣. العلماء: الإيمان والمعرفة حياة واحدة

لم يُقسّم علماء العصر الذهبي حياتهم إلى حجرة دينية وأخرى علمية. كان إيمانهم وعملهم العلمي تعبيرَين عن التوجّه الجوهري ذاته: الرغبة في معرفة الله من خلال خلقه وخدمة خلقه من خلال المعرفة.

الكندي (801-873م): فيلسوف العرب

أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي هو أول فيلسوف منهجي في العالم الإسلامي وأحد أكثر العقول تنوعاً في أي عصر. وامتد إنتاجه ليشمل الفلسفة والرياضيات والفيزياء وعلم الموسيقى والتشفير والطب والفلك، مُخلّفاً أكثر من 260 عملاً يصمد منها نحو أربعين حتى اليوم.

كان الكندي من أوائل من حاجج منهجياً بأن الفلسفة اليونانية واللاهوت الإسلامي ليسا في تعارض، وأن الاستقصاء العقلي والوحي الإلهي يتجهان نحو الحق ذاته من اتجاهين مختلفين. وكتب صراحة بأن السعي إلى الحق من أي مصدر، مهما كان أصله الثقافي أو الديني، واجب على العالِم المسلم:

"لا ينبغي أن نستحيي من استحسان الحق واقتناء الحق من أين أتى، وإن أتى من الأجناس القاصية عنا والأمم المباينة لنا".

و عمله في علم التشفير، ولا سيما أطروحته حول فك تشفير الرسائل المشفرة"، يُعدّ الوثيقة التأسيسية لعلم فكّ الشفرات. فكان أول من وصف تقنية تحليل التواتر لكسر شفرات الاستبدال ، وهي طريقة ظلت طليعة علم كسر الشفرات قرابة ثمانية قرون.

وفهم الكندي حياته العلمية كلها بوصفها عبادة. فمعرفة حقيقة العالم الطبيعي كانت في نظره معرفة بشيء من خلق الله، ومن ثمّ فريضة لا ترف.

الخوارزمي (780-850م): أبو الجبر

محمد بن موسى الخوارزمي عمل في بيت الحكمة في عهد الخليفة المأمون وأنتج عملَين غيّرا مسار الرياضيات تغييراً دائماً.

فكتابه **"المختصر في حساب الجبر والمقابلة "**أعطى العالم علم الجبر. وكلمة "Algebra" مشتقة مباشرة من "الجبر"، إحدى العمليتين اللتين وصفهما الخوارزمي لحل المعادلات. ومعالجته المنهجية للمعادلات الخطية والتربيعية مع البراهين الهندسية والتطبيقات العملية أرست الرياضيات أداةً لحل مشكلات العالم الحقيقي في التجارة وأحكام الميراث ومسح الأراضي والهندسة.

وكانت مساهمته الثانية الكبرى تقديم نظام الأرقام الهندية العربية، بما في ذلك مفهوم الصفر، إلى العالم الإسلامي ومنه إلى أوروبا. وكلمة"Algorithm" ، التي هي أساس كل الحوسبة الحديثة، هي تعريب لاتيني لاسمه.

وكان الخوارزمي صريحاً في دوافعه لتطوير الجبر. أهدى كتابه للخليفة المأمون مُصرّحاً بأن هدفه إنتاج نظام مفيد في حل "مسائل المواريث والوصايا والأقسام والدعاوى والتجارات." فرأى في الدقة الرياضية أداةً للعدل: لضمان أن تجري المعاملات القانونية والتجارية بإنصاف ودقة.

وهذا هو التطبيق المباشر لمبدأ الميزان القرآني على ميدان الرياضيات. لم يكن الخوارزمي يمارس الرياضيات لذاتها، بل كان يُطوّر أدوات فكرية لتطبيق عدل القرآن في المعاملات اليومية.

ابن الهيثم (965-1040م): أبو علم البصريات

أبو علي الحسن بن الهيثم، المعروف في الغرب اللاتيني بـ"Alhazen"، أنتج في كتابه **"المناظر "**واحداً من أهم الأعمال في تاريخ العلوم. ففنّد فيه النظرية اليونانية القائلة بأن الرؤية تحدث لأن العين تُصدر أشعة ضوئية تلمس الأشياء، وأثبت بدلاً منها تجريبياً أن الرؤية تحدث لأن الضوء يدخل العين من مصادر خارجية.

يبدو هذا تصحيحاً بسيطاً، لكن تداعياته كانت هائلة. فبإثباته أن الرؤية استقبال سلبي للضوء لا إصدار فاعل له، حوّل ابن الهيثم التحقيق البصري كله من التكهن بطبيعة الرؤية إلى الدراسة المنهجية لسلوك الضوء ذاته. وعمله في هندسة الانعكاس والانكسار وتحليله لغرفة مظلمة بثقب ودراسته للبصريات الجوية شكّلت الأساس الذي شيّد عليه روجر بيكون ويوهانس كبلر وإسحاق نيوتن نظرياتهم البصرية بعد قرون.

وما ميّز ابن الهيثم قبل كل شيء كان منهجيته. فأصرّ على أن الادعاءات حول العالم الطبيعي يجب أن تُختبر بالمشاهدة والتجربة، وصمّم تجارب خاضعة للضبط لاختبار فرضياته. واحتوت منهجيته على عناصر كثيرة نُسب لاحقاً إلى المنهج العلمي الحديث، وذلك قبل قرون من صياغة فرنسيس بيكون لمبادئ مماثلة.

وكتب ابن الهيثم صراحة عن العلاقة بين عمله العلمي وإيمانه. وصف دراسة العالم الطبيعي بأنها ضرب من العبادة، تعامل مع الآيات التي أودعها الله في الخلق لمن أراد إمعان النظر. وكان قوله المشهور بأن طالب الحق يجب أن يجعل نفسه عدو كل ما قرأ فيخضعه لنقد صارم، لم يكن تعبيراً عن الشك في الإيمان. كان تعبيراً عن النزاهة الفكرية في خدمة الحق: الحق ذاته الذي يشير إليه الإيمان من اتجاه مختلف.

ابن سينا (980-1037م): أمير الأطباء

أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا، المعروف في الغرب اللاتيني بـ"Avicenna"، كان ربما أكثر طبيب وفيلسوف في العصور الوسطى تأثيراً. وكان كتابه **"القانون في الطب "**المقرر الطبي المعياري في العالم

الإسلامي وفي الجامعات الأوروبية لأكثر من ستة قرون، وظل يُدرَّس في بعض المؤسسات الأوروبية حتى القرن السابع عشر.

نظّم القانون المعرفة الطبية اليونانية كلها تقريباً وطوّرها، مضيفاً إليها إضافات جسيمة من مشاهدات ابن سينا السريرية وتجاربه. فوصف الطبيعة المعدية للأمراض، واقترح أن إفرازات الجسم يمكنها نشر المرض عبر الماء والتربة، ووضع مبادئ الحجر الصحي للأمراض المعدية، وطوّر مناهج منهجية في الصيدلة تختبر آثار الأدوية بالمشاهدة المضبوطة قبل التوصية بها للاستخدام السريري.

وكان ابن سينا أيضاً من أبرز فلاسفة العالم الإسلامي، مُقدّماً مساهمات أصيلة في المنطق والميتافيزيقا وفلسفة العقل. وتجربته الفكرية "الإنسان الطائر"، التي تسأل ما إذا كان شخص مخلوق في الفراغ دون أي تجربة حسية سيظل واعياً بوجوده، هي سابقة لكوجيتو ديكارت بستة قرون وتظل مساهمة بارزة في فلسفة الوعي.

لم يرَ ابن سينا أي تعارض بين عمله في الطب والفلسفة وبين عقيدته الإسلامية. فوصف السعي إلى المعرفة في كل ميدان بأنه أرقى تعبير عن الطاقة الإنسانية التي أودعها الله فيه. كان يُصلي ويصوم ويتعامل بجدية مع الأسئلة اللاهوتية طوال حياته. وكتابه **"الشفاء "**يفتتح بحمد الله ويختتم بتأملات في النفس وعلاقتها بالإلهي.

بالنسبة لابن سينا لم يكن الطب مهنة علمانية. كان تطبيق المعرفة بخلق الله، الجسم الإنساني، في خدمة تلك المخلوقات ذاتها. وكان شفاء المرضى فعل خلافة: رعاية مسؤولة للبشر الذين كرّمهم الله.

البيروني (973-1048م): سيد العلوم المقارنة

أبو ريحان محمد بن أحمد البيروني هو من أبرز الموسوعيين في تاريخ الإنسانية، إذ أنتج أعمالاً أصيلة في الفلك والرياضيات والفيزياء وعلم الأدوية والجيولوجيا والجغرافيا والأنثروبولوجيا والتاريخ واللغويات في مسيرة علمية امتدت سبعة عقود متواصلة.

وكان عمله الفلكي بالغ الدقة. فباستخدام علم المثلثات وارتفاع الجبال المقاسة وظاهرة انخفاض الأفق حسب نصف قطر الأرض بقيمة لا تُخطئ القياس الحديث بأكثر من واحد بالمائة، وهو إنجاز يستلزم نبوغاً رياضياً والاستعداد لتصميم قياسات ميدانية دقيقة وتنفيذها.

وكتابه **"تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة "**يُعدّ أول عمل منهجي في الأنثروبولوجيا المقارنة. كُتب بعد قضاء سنوات في الهند لتعلم اللغة السنسكريتية ودراسة الدين والفلسفة والعلوم الهندوسية- تجسيداً لنهج علمي أصيل لفهم حضارة أجنبية؛ إذ يوثّق معتقداتها وممارساتها وإنجازاتها الفكرية بالدقة والاحترام ذاتهما اللذين يتبعهما عالم الطبيعة عند دراسة كائن حي غير مألوف.

ويُروى عن البيروني قوله إنه درس عادات ومعتقدات الشعوب الأخرى لأن فهم تنوع الثقافات الإنسانية طريق لفهم تنوع خلق الله. فآية "وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا" لم تكن له مجرد أخلاق اجتماعية، بل برنامج بحثي.

وشملت مشاهداته الجيولوجية إدراكه أن المتحجرات تمثل بقايا كائنات حية وأن وجود متحجرات بحرية في الجبال الداخلية يدل على أن تلك المناطق كانت مغمورة بالبحر في يوم ما، وهو استنتاج تؤكده الجيولوجيا الحديثة ولم يصل إليه التراث الأوروبي إلا بعد قرون طويلة.

ابن رشد (1126-1198م): الشارح

أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد، المعروف في الغرب اللاتيني بـ"Averroes"، كان كثر شُرّاح أرسطو منهجيةً في العصور الوسطى، والفيلسوف الذي صاغت أعماله -بشكل مباشر- تطورَ المدرسة المدرسية الأوروبية والثورة العلمية.

وترجمت شروحه المفصّلة على كامل التراث الأرسطي تقريباً إلى اللاتينية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، وصارت القناة الأساسية التي عرفت من خلالها الجامعات الأوروبية الفلسفة اليونانية. وكان توماس الأكويني، الذي خالف ابن رشد في نقاط لاهوتية جوهرية، يشير إليه ببساطة بـ"الشارح"، اعترافاً بتمكّنه المنقطع النظير من الفلسفة الأرسطية.

تمثلت أهم مساهمة فلسفية لابن رشد في حجته المستمرة حول التوافق بين العقل والوحي.. فأمام من ادّعوا في عصره أن الفلسفة اليونانية متعارضة مع الإيمان الإسلامي وينبغي رفضها، حاجج ابن رشد بأن العقل والوحي طريقان إلى الحق ذاته. وحيثما بدا تعارض، فالإشكال يكمن في تأويل أحدهما لا في تناقض حقيقي بين العقل والإلهي.

جادلت رسالته "فصل المقال" صراحةً بأن القرآن يأمر بالبحث الفلسفي والعلمي، وأن المسلم الذي يمتلك القدرة على هذا البحث ملزمٌ دينيًا بالقيام به. لم يكن ذلك دفاعًا عن الفلسفة العلمانية في مواجهة الدين، بل كان دفاعًا عن البحث العقلاني باعتباره واجبًا دينيًا في حد ذاته، يستند مباشرةً إلى الأوامر القرآنية بالتفكّر والملاحظة وإعمال العقل.

الزهراوي (936-1013م): أبو الجراحة الحديثة

أبو القاسم خلف بن العباس الزهراوي، المعروف في الغرب اللاتيني بـ"Abulcasis"، كان أعظم جراح في العصور الوسطى ومؤلف **"التصريف لمن عجز عن التأليف"**، الموسوعة الطبية المكوّنة من ثلاثين مجلداً التي ظل قسمها الجراحي المقرر الجراحي الرئيسي في كليات الطب الأوروبية حتى القرن السادس عشر.

اخترع الزهراوي أو طوّر أكثر من ٢٠٠ أداة جراحية وقد وصف العديد منها وقدم رسوماً توضيحية لها في مؤلفاته، واضعاً بذلك أول دليل منهجي مصوّر للأدوات الجراحية في أي تقليد طبي. وتشمل إسهاماته

تطوير خيوط "الكاتجوت" (catgut) المخصصة للغرز الداخلية؛ وهي مادة تُستخلص من أمعاء الحيوانات ويمتصها الجسم بمرور الوقت، مما يغني عن الحاجة إلى إزالة الغرز الداخلية، وهي تقنية لا تزال تُستخدم في الجراحة الحديثة. كما وصف وأجرى عمليات لعلاج السرطان وتضخم الغدة الدرقية وحصوات المسالك البولية، وطوّر تقنيات لخلع الأسنان وتركيب التعويضات السنية..

على غرار ابن سينا، كان الزهراوي ينظر إلى عمله الطبي بوصفه واجباً تقتضيه "الخلافة"؛ أي توظيف المعرفة لتخفيف معاناة البشر الذين كرّمهم الله. وتُظهر تفانيه في رعاية مرضاه -وهو ما توثقه صفحات كتاب "التصريف"- صورةَ طبيبٍ كان يرى في كل إنسان يمثُل أمامه كائناً يحمل كرامةً إلهية، ويستحق أفضل رعايةٍ يمكن أن تقدمها له معارفه الطبية..

ابن خلدون (1332-1406م): أبو علم الاجتماع والتاريخ

أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون يقف في نهاية العصر الذهبي بوصفه أكثر مُحلّليه تأمّلاً. تُعد "المقدمة" —وهي تمهيد لتاريخه الشامل— على نطاق واسع أول عمل منهجي في علم الاجتماع، وعلم التأريخ، وفلسفة التاريخ في أي حضارة.

طوّر ابن خلدون نظريةً دوريةً لصعود الحضارات وأفولها، تستند إلى مفهوم "العصبية"؛ أي التماسك الاجتماعي والتضامن الجماعي. وحاجج بأن الحضارات تصعد حين تملك مجتمعاتها المؤسِّسة تماسكاً قوياً وغاية أخلاقية واستعداداً للتضحية من أجل الأهداف الجماعية، وتأفل حين تُفسد الثروةُ والراحةُ والانحلالُ الأخلاقيُّ هذه الصفاتِ وتُنتج التشرذمَ الداخليَّ الذي يجعلها عرضة للإحلال من قِبَل مجموعات أكثر تماسكاً من الخارج.

وتحليله للأساس الاقتصادي للتغيير التاريخي وإدراكه أن كثافة السكان وتقسيم العمل يدفعان الإنتاجية وفهمه للعلاقة بين الضرائب والنشاط الاقتصادي وإيرادات الدولة، كل ذلك أنتج رؤى تسبق آدم سميث وكارل ماركس والاقتصاد المؤسسي الحديث بقرون.

وما يجعل ابن خلدون ذا أهمية استثنائية لهذا الفصل هو أن منظومته كلها استُمدت من قراءته للقرآن والتاريخ الإسلامي. فالنمط الدوري الذي وصفه كان في نظره النمط الذي يصوّره القرآن مراراً في حسابات الأمم :**سنة الله**، النمط الثابت الذي يعمل به القانون الإلهي في التاريخ. ولم يكن علم اجتماعه بديلاً عن لاهوته، بل كان تعبيراً عنه.

٤. ما جمعهم: الخيط المشترك

بالنظر إلى هؤلاء الأفراد الاستثنائيين الفاصلة بينهم قرون والمتخصصين في ميادين بالغة التباين، يبرز خيط مشترك على الفور.

كل واحد منهم كان إنساناً مؤمناً إيماناً حقيقياً رأى في عمله العلمي والفلسفي تعبيراً عن ذلك الإيمان لا انحرافاً عنه. وكل واحد منهم تعامل مع العالم الطبيعي بوصفه نصاً كتبه الله، قابلاً للقراءة بالعقل الذي منحه لهم، كاشفاً عن حقائق تُعمّق اقتناعهم بوجوده وحكمته وقدرته بدلاً من أن تزعزعه. وكل واحد منهم

تجاوز الحدود بين التخصصات دون قلق، لأنه لم يكن في نظره إلا ميدان معرفة واحد ذو فروع متعددة، كلها ضاربة جذورها في حقيقة خلق الله الواحدة.

وكل واحد منهم عاش في حضارة اشتركت في تلك القناعات مؤسسياً في أحسن أوقاتها. فالخلفاء الذين موّلوا بيت الحكمة والولاة الذين شيّدوا المستشفيات والمراصد والتجار الأثرياء الذين أوقفوا المكتبات والمدارس، كلهم تصرفوا من الفهم العقدي ذاته: بأن الاستثمار في المعرفة استثمار في الوفاء بتكليف إلهي، وبأن الحضارة التي تُكرّم الأمر باقرأ سيُكرّمها الله في المقابل.

٥. لماذا انتهى: الدرس الذي خلّفه العصر الذهبي

لا يمكن عزو انحدار العصر الذهبي إلى سبب واحد. فالتشرذم السياسي والتحولات الاقتصادية والغزوات الأجنبية وتغيير طرق التجارة والتطورات الفكرية، كلها أسهمت في الأمر. ومن أبرز العوامل الداخلية التضييق التدريجي لثقافة الاستقصاء التي اتسمت بها الحضارة في ذروتها.

كان اجتياح المغول لبغداد عام 1258م ضربة خارجية كارثية: إذ مثّل تدمير "بيت الحكمة" وفقدان جزءٍ كبيرٍ من مكتبته جرحاً فكرياً بالغ العمق. غير أن الظروف الداخلية التي جعلت الحضارة عرضةً لهذه الضربة كانت قد بدأت تتشكل وتتفاقم على مدى عقودٍ سبقت وصول المغول.

أدى تزايد النزعة -داخل بعض المدارس الفكرية الإسلامية- التي تنظر إلى البحث العقلي بوصفه تهديداً للإيمان لا تعبيراً عنه، إلى تضييق نطاق الثقافة الفكرية تدريجياً. ويرتبط هذا الموقف بنقد الغزالي للفلاسفة، رغم أن الغزالي نفسه كان مفكراً رفيع المستوى؛ إذ سيكون من الخطأ التاريخي عزو هذا التراجع إلى شخص الغزالي ذاته، غير أن بعض القراءات اللاحقة لنقده للفلاسفة ساهمت في خلق مناخ فكري أكثر تقييداً في أوساط معينة. وهكذا، تقلصت المناهج الدراسية في المدارس الدينية، وضاق نطاق الأسئلة المقبولة للبحث العلمي، وحلت ثقافة النقل والحفظ تدريجياً محل ثقافة البحث والتقصي التي أثمرت "العصر الذهبي".

وهذا التحول يمثل العكس التام للمبادئ العقدية التي شيدت "العصر الذهبي"؛ فلقد بدأت الحضارة التي أقامتها تلك المبادئ تفقد حيويتها حينما أُعيد تفسير "الكرامة الإلهية" للإنسان على أنها تقتضي الحماية من الأفكار الخطيرة بدلاً من أن تكون مصدراً لكرامة البحث الحر؛ وحينما صار "التوحيد" سبباً لرفض معارف الحضارات الأخرى بدلاً من أن يكون تحرراً من كل سلطة سوى سلطة الله؛ وحينما طُوي النسيان عن مفهوم "الاستخلاف" بوصفه تكليفاً بطلب المعرفة الشاملة؛ وحينما فُسرت "المساءلة أمام الله" على أنها تستلزم الامتثال لاستنتاجات موروثة بدلاً من الممارسة المخلصة للمواهب العقلية التي وهبها الله للإنسان.

إن العبرة واضحة لا غموض فيها، وقد نص عليها القرآن صراحةً؛ فالأنماط ذاتها التي أدت إلى صعود وأفول عاد وثمود -وكل حضارة ذكرها القرآن- تنطبق على العالم الإسلامي نفسه. إذ إن سُنّة الله في التاريخ ثابتة لا تتغير: فمن يفي بالتكليف الإلهي يلقى التأييد والنصرة، ومن يتخلَّ عنه يُستبدل بغيره.

٦. العصر الذهبي نموذجاً لا ذكرى

لا يُعد العصر الذهبي للحضارة الإسلامية مجرد مصدر للحنين إلى الماضي في المقام الأول، بل هو برهانٌ عملي على إمكانية التحقق.

يُثبت السجل التاريخي -عبر خمسة قرون من الإنجازات المتواصلة- أن الرؤية القرآنية للمعرفة والحضارة ليست مجرد حلم معسول، بل هي رؤية قابلة للتحقق، وقد تحققت بالفعل. فلقد أقام البشرُ -الذين أخذوا أمر "اقرأ" على محمل الجد، وأدركوا أنهم مُكرَّمون من الله ومسؤولون أمامه ومستخلفون في أرضه، ولم يروا فاصلاً بين الإيمان والبحث المعرفي- الحضارةَ الأكثر خصوبةً وإنتاجاً من الناحية الفكرية في عالم ما قبل العصر الحديث..

والغرض من دراسة العصر الذهبي ليس تمجيد الماضي. بل فهم المبادئ التي جعلته ممكناً. فالحضارات تصعد وتأفل، لكن الأسس القرآنية التي أنتجت تلك الحقبة المجيدة لا تزال متاحة لكل جيل. والسؤال ليس ما إذا كانت تلك المبادئ لا تزال صالحة للعمل؛ فقد أجاب التاريخ بالفعل عن هذا السؤال. وإنما تكمن الأسئلة في ما إذا كنا مستعدين لتطبيقها مجدداً، وما الذي يتطلبه تحقيق ذلك مرة أخرى؟

وجواب القرآن على هذا السؤال لم يتغير. هو الجواب ذاته الذي قدّمه لأولئك العلماء الأوائل الذين ولجوا بيت الحكمة حاملين كل لغات المعرفة الإنسانية وعزماً على قراءة كلها باسم ربهم الذي خلق:

"اقرأ باسم ربك الذي خلق." (العلق 96: 1)

كان ذلك البداية. وهو لا يزال الطريق.

خاتمة: حضارة واحدة، منبع واحد

لم ينجح علماء العصر الذهبي رغم إيمانهم. نجحوا بسببه. لم تكن عقيدتهم عائقاً أمام فضولهم، بل كانت المحرك له. فقد حررهم إيمانهم بأن الله قد كرّم الإنسان بملكة المعرفة من الخضوع لأي سلطة أدنى، ووجّه فهمُهم لمفهوم "الاستخلاف" معارفَهم لخدمة البشرية، بينما ضمن يقينهم بالحساب الإلهي تعاملهم بجدية ومسؤولية مع ما أوتوه من مواهب فكرية.

لقد كانوا علماءً يمارسون الصلاة، ولاهوتيين يجرون التجارب؛ أطباءً يرون في كل مريضٍ حاملاً للكرامة الإلهية، ورياضيين يرون في دقة الأرقام انعكاساً للنظام الإلهي. كانوا فلاسفةً دافعوا عن التوافق بين العقل والوحي، لا باعتباره تسويةً استراتيجية، بل قناعةً راسخةً في أعمق مبادئ التوحيد: أن كل حقيقةٍ تصدر عن مصدرٍ واحد، ومن ثم فإن كل حقيقةٍ -أينما وُجدت- تشيرُ وتعودُ إلى ذلك المصدر.

هذه هي الحضارة التي كان القرآن يبنيها دائماً. وقد بُنيت مرة. لم تتغير الخطة الأساسية.

الفصل السادس عشر: تقنية المعلومات والسجل الإلهي

كل كلمة تُقال، وكل فعل يُؤتى، وكل لحظة من لحظات حياة الإنسان تُسجَّل بدقة واكتمال لم يبلغهما أي نظام تسجيل بشري حتى الآن، وإن كانت التكنولوجيا الحديثة تُثبت يوماً بعد يوم كيف يمكن تسجيل كميات هائلة من النشاط البشري وتخزينها واسترجاعها.

وقد أرسى القرآن هذه الحقيقة قبل أربعة عشر قرناً من اختراع الحاسوب الرقمي:

"ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد." (ق 18)

كل كلمة. لا الكلمات المهمة وحسب. ولا الكلمات العلنية وحسب. كل كلمة، في كل سياق، في كل لحظة من حياة الإنسان، يلتقطها مُسجِّل هو **عتيد** :حاضر دائماً، مُعدٌّ مستعد. ولا تقع كلمة خارج السجل. ولا تمر لحظة دون رقيب.

هذه الآية، حين تُقرأ بالوعي العلمي والتقني للقرن الحادي والعشرين، دعوة للتأمل في هيئة هذا السجل وطريقة تخزينه واسترجاعه وما يعنيه الوقوف أمامه.

وغرض هذا الفصل ليس الادعاء بأن القرآن مقرر في تقنية المعلومات أو أن تقنيات حديثة بعينها موصوفة صراحة في آياته. غير أن التقدم في تخزين المعلومات ونقلها واسترجاعها يوفر تشبيهات نافعة تُعين القارئ المعاصر على تقدير ما يصفه القرآن من الحفظ الإلهي للسجلات بصورة لم تتح لأجيال سابقة إلا بالإيمان وحده.

وفي الوقت ذاته يدعو القرآن البشرية مراراً إلى التأمل في الخلق والتاريخ والحقائق التي تتجاوز التجربة الإنسانية المباشرة. وعبر التاريخ، انبثقت كثير من الاكتشافات العلمية والتقنية لا من تعليمات مفصّلة بل من أفكار وأسئلة ومشاهدات وإمكانات ألهمت مزيداً من البحث.

ولذا فأحد أغراض التأمل في هذه الآيات تشجيع العلماء والمهندسين والباحثين على التعامل مع القرآن لا بوصفه دليلاً تقنياً، بل مصدراً للإلهام الفكري. فأوصافه قد تحمل رؤى وأنماطاً وأُطراً مفاهيمية تُحفّز أسئلة جديدة واتجاهات بحثية جديدة وإمكانات تقنية جديدة. القرآن يُرشد، والإنسان يستقصي ويكتشف ويبني.

١. كتاب الأعمال: تسليماً وعرضاً وقراءةً

في يوم القيامة، يصف القرآن كل شخص يتلقى سجله الكامل في صورة مادية تُناوَل له شخصياً. وطريقة تلقيه تكشف طبيعة ما يحويه:

"فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرأوا كتابيه." (الحاقة 19)

"وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه." (الحاقة 25)

"وأما من أوتي كتابه وراء ظهره، فسوف يدعو ثبوراً، ويصلى سعيراً." (الانشقاق 10-12)

ثلاثة أشخاص. ثلاث طرق لتلقي الشيء ذاته. أحدهم يتلقاه بفرح ويدعو فوراً الآخرين لقراءته. وآخر يتلقاه بفزع ويتمنى لو لم يُنتج. وثالث يتلقاه من وراء ظهره، عاجزاً عن مواجهة ما يحوي.

السجل ذاته، الوثيقة الكاملة نفسها، تُنتج ردود فعل متباينة جذرياً تبعاً لما تحويه. وهذا تذكير بليغ بأن السؤال لم يكن يوماً: هل السجل موجود؟ فهو موجود دائماً. السؤال الوحيد هو: ماذا سيُظهر؟

ثم يُضيف القرآن بُعداً يستحق التأمل الدقيق:

"ونُخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً. اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً." (الإسراء 13-14)

ثمة سمتان في هذا الوصف بالغتا الأهمية. أولاهما أن الكتاب **"منشوراً** :"مبسوطاً مُعروضاً، لا مخبأً ولا عسير الوصول، بل مقدَّماً عياناً في صورة قابلة للقراءة والفحص. وثانيتهما أن لا قاضٍ خارجياً مطلوباً: "كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً." سيطّلع الشخص على السجل فيعلم، باليقين التام الذي لا يدع مجالاً للجدل، ما يحتويه بالضبط وما يعنيه بالضبط.

وتدعو هذه الأوصاف القارئ المتأمل إلى تساؤلات حقيقية. كم يجب أن يكون حجم سجل يضم كل كلمة وكل عمل طوال عمر بأكمله؟ وكيف يُحمَل في يد واحدة؟ وكيف يُعرَض؟ وكيف يُقرأ فوراً وكاملاً؟

والقرآن يُجيب على هذه الأسئلة، جزئياً على الأقل، من خلال وصفه طبيعة هذا السجل.

٢. طبيعة السجل: مَرْقُوم، الكتاب الرقمي

يصف القرآن كتب أعمال الفجار والأبرار معاً بالكلمة الاستثنائية ذاتها:

"كلا إن كتاب الفجار لفي سجين. وما أدراك ما سجين. كتاب مرقوم." (المطففين 7-9)

"كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين. وما أدراك ما عليون. كتاب مرقوم." (المطففين 18-20)

الكلمة المستخدمة لكلا السجلين هي **"مَرْقُوم"**، من جذر **"رَقَمَ"**، الذي يعني: أن تُعدِّد وتُحصي، وأن تُسجّل بدقة، وأن تُرمّز بصورة عددية محددة. والجذر ذاته في العربية المعاصرة يُعطينا **"رقم "**أي العدد فضلاً عن **"رقمي "**أي الرقمي العددى.

وقد فهم الأجيال الأولى من المسلمين "مرقوم" بمعنى سجل مكتوب بجلاء ومُحصى بدقة. أدركوا المفهوم إدراكاً صحيحاً لكنهم لم يستطيعوا تخيّل الصورة التقنية التي سيتخذها يوماً. أما اليوم فنستطيع رؤية هذا الوصف برؤية جديدة.

السجل الرقمي هو سجل تُرمَّز فيه كل قطعة من المعلومات، كل كلمة وكل صورة وكل صوت وكل معاملة، في صورة عددية دقيقة: متتاليات من الأصفار والآحاد يمكن تخزينها في صورة بالغة الإيجاز، واسترجاعها

فوراً، وعرضها بأي شكل، والبحث فيها بدقة تامة، دون أن يُصيبها التقادم. ينطوي مفهوم السجل المُشفَّر بدقة والمحفوظ بشكل دائم على أوجه تشابه مثيرة للاهتمام مع ما قد يدركه القراء المعاصرون بوصفه تخزيناً رقمياً للمعلومات.

٣. المقابل الحديث

التقارب بين وصف القرآن للسجل الإلهي والتقنية الحديثة للمعلومات لافت بما يستوجب التأمل الدقيق.

التخزين المضغوط للسجلات الكاملة

محرك فلاش USB لا يكبر إبهام الإنسان يستطيع اليوم تخزين مئات الآلاف من الوثائق وملايين الصور وآلاف ساعات التسجيل الصوتي وعقود من المراسلات. والإنتاج الكتابي الكامل لحياة إنسان يمكن أن يُودَع في جهاز يُمسك بين إصبعَين. وسؤال كيف يُحمَل في يد واحدة كتاب يضم كل كلمة وكل عمل طوال عمر بأكمله، أصبح في العصر الرقمي له جواب تقني مباشر.

وثمة ما هو أكثر دلالة: إذ تتزايد كثافة تخزين المعلومات تزايداً سريعا. ويطوّر الباحثون حالياً تخزيناً رقمياً قائماً على الحمض النووي يُشفّر المعلومات بكثافات تفوق الذاكرة الإلكترونية التقليدية بملايين الأضعاف. فالجينوم البشري يحتفظ بثلاثة مليارات ومئتَي مليون زوج قاعدي من المعلومات في جزيء لا تراه العين المجردة. والتقنية التي تُطوَّر لمجاراته تستطيع تخزين مكتبات بأكملها في حجم أصغر من حبة الرمل.

الديمومة وعدم القابلية للتغيير

يصف القرآن السجل الإلهي بأنه دائم غير قابل للتعديل. لا يمكن إضافة شيء لم يقع إليه، ولا حذف شيء وقع منه. وهذه الخاصية، الديمومة مقترنة بالاكتمال القابل للتحقق، هي تحديداً ما صُممت تقنية **"سلسلة الكتل** (blockchain) "لتحقيقه في أنظمة حفظ السجلات البشرية.

سلسلة الكتل هي دفتر أستاذ موزّع تُرتبط فيه كل معاملة أو سجل بصورة مشفّرة بجميع السجلات السابقة في سلسلة لا يمكن تعديلها بأثر رجعي. فما إن يُكتب سجل في سلسلة الكتل لا يمكن تغييره أو حذفه أو إنكاره دون كسر السلسلة كلها. وكل عقدة في الشبكة تحمل نسخة كاملة، مما يجعل السجل في آنٍ واحد موزّعاً وغير قابل للإتلاف.

وبعض خصائص سلسلة الكتل، من عدم قابلية التعديل وقابلية التتبع ومقاومة التلاعب، توفر تشبيهات حديثة نافعة لفهم جوانب من وصف القرآن للسجل الإلهي.

المراقبة والتسجيل والرقيب

يجد وصف القرآن لـ**"رقيب عتيد "**مقابله الحديث في البنية التحتية للمراقبة والتقاط البيانات التي باتت تسري في الحياة الإنسانية. غير أن أكثر أنظمة المراقبة البشرية تقدماً تبقى جزئية ومتشرذمة وقابلة للخطأ. أما السجل القرآني فكامل تام لا مفرّ منه.

تلتقط الأنظمة الرقمية الحديثة:

- كل رسالة تُرسَل عبر منصات الاتصال الرقمية
- كل معاملة مالية تُعالَج عبر الأنظمة الإلكترونية
- كل موقع تزوره أي أداة متصلة بشبكة
- كل استعلام بحث يُدخَل في أي نظام متصل
- كل صورة وفيديو يلتقطه المليارات من الكاميرات المنتشرة في الفضاءات العامة والخاصة
- كل كلمة تُنطق بالقرب من أي أداة صوتية مُفعَّلة

وحجم التقاط البيانات في العالم المعاصر بلغ من الضخامة حداً أنتج ميادين علمية وهندسية وقانونية جديدة كلياً مخصصة لإدارتها وحمايتها والرقابة عليها. ومنصة تقنية كبرى واحدة تعالج في يوم واحد بيانات تفوق ما أنتجه التواصل الإنساني كله في القرون الأولى من التاريخ المدوَّن.

وصف القرآن هذه الحقيقة بعبارة "رقيب عتيد": رقيب حاضر دائماً جاهز أبداً. ومنظومة التسجيل الإلهية تعمل على مستوى ودرجة اكتمال لم تبلغهما تقنية بشرية بعد، لكن اتجاه التطور التقني البشري يسير بلا شك نحو الوجهة ذاتها.

العرض والأدلة البصرية

وصف القرآن للكتاب بأنه **"منشوراً "**مبسوط معروض، يُوحي بسجل قابل للاطلاع الكامل والمراجعة التفصيلية. والمراقبة المصوّرة الحديثة والتخزين السحابي للصور ومقاطع الفيديو والتوثيق الرقمي للنشاط البشري عبر الصور والتسجيلات والسجلات، كلها تُشير نحو عالم تصبح فيه وثيقة بصرية وصوتية كاملة لحياة الإنسان ممكنة تقنياً.

فالكاميرات المثبّتة على الجسد، وكاميرات لوحة القيادة، وتسجيلات الهاتف الذكي، ولقطات المراقبة الأمنية تُنتج فعلاً وثائق بصرية جزئية للحياة اليومية يمكن استرجاعها وإعادة تشغيلها بعد سنوات من وقوع الأحداث التي تسجّلها. والسجل المَرقوم القرآني، القابل للعرض والشامل بصرياً، أقرب إلى التحقق التقني اليوم من أي وقت مضى في تاريخ البشرية.

٤. سجلّان ومصيران: سجّين وعلّيون

يضع القرآن سجلات الفجار والأبرار في مستودعَين مختلفَين كلياً:

- **سجّين :**من جذر "سجن"، القيد والحبس. سجل الفجار محفوظ في حال انحباس ومضغوطة مُظلمة مُغلَقة بعيداً عن الرحمة والنور.

- **عليّون :**من جذر "علا"، الرفعة والسمو. سجل الأبرار محفوظ في مقام رفيع مُكرَّم، يشهده الملائكة ويطّلعون عليه.

كلا السجلَين يحوي النوع ذاته من المعلومات، الحساب المَرقوم الكامل لحياة إنسان. لكنهما محفوظان في ظروف مختلفة جوهرياً، تعكس الفارق الجوهري بين الحياتَين اللتَين توثّقانهما. وهذا التمييز يحمل رسالة للمؤمن: التقنية الرصدية ذاتها التي ستُردي الفجار ستُكرِّم الأبرار. فالسجل في ذاته محايد. ما يُحدد مصيره هو المضمون الذي كتبته في حياته اختيارات صاحبه.

٥. الدلالة العقدية: العيش مع وعي السجل

الإطار القرآني للتسجيل الإلهي ليس في جوهره رؤية تقنية، وإن تضمّن واحدة. هو في جوهره دعوة إلى طريقة بعينها في الحياة: طريقة الوعي التام بأن كل فعل وكل كلمة وكل نية تُسجَّل بأمانة مطلقة.

"وهو معكم أين ما كنتم، والله بما تعملون بصير." (الحديد 57: 4)

هذا الوعي، حين يُتمثَّل حقاً، يُنتج في القلب ما يُسميه القرآن **المراقبة** :الشعور بأن الله يراقب في كل الأوقات. وهو الصفة التي تُغلق الفجوة بين السلوك العلني والسلوك الخاص، بين ما يفعله الإنسان حين يُراقَب وما يفعله حين يظن أنه لا يُراقَب. فمن يعيش حال المراقبة الحقيقية يتصرف باتساق، لأنه يُدرك أن الجمهور لا يتغير وأن الكاميرا لا تتوقف.

وقد حدّد النبي صلى الله عليه وسلم الإحسان، أعلى مراتب الإيمان، بهذه المصطلحات بالضبط:

"أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك." (صحيح البخاري ومسلم)

وهذا أعلى تعبير عن المراقبة: لا مجرد المعرفة الذهنية بأن السجل يُكتب، بل العيش كأنك واقف أمام من يكتبه.

٦. تقنية المعلومات مسؤولية حضارية

يُخاطب الإطار القرآني للتسجيل الإلهي أيضاً المسؤوليات التي تُفرزها تقنية المعلومات البشرية. فإذ نبني أنظمة أكثر قدرة في التقاط البيانات البشرية وتخزينها وتحليلها، هذه وظائف يصفها القرآن بمصطلحات إلهية: الشهادة والتسجيل وحفظ وقائع الأفعال البشرية.

وهذا يحمل ثقلاً أخلاقياً عميقاً. التقنية ذاتها القادرة على توثيق الظلم ومساءلة أصحاب النفوذ يمكن توظيفها لمراقبة الأبرياء وقمع المعارضة وتمكين الاستبداد على نطاق غير مسبوق. وسلسلة الكتل ذاتها التي تُنشئ سجلاً غير قابل للتعديل لمعاملة مالية يمكن توظيفها لإنشاء سجل غير قابل للتعديل بمعتقدات الشخص السياسية أو ممارساته الدينية.

ومبدأ **الأمانة** القرآني ينطبق مباشرة على من يُصمّمون أنظمة المعلومات ويُنشرونها ويحكمونها. البيانات ليست مجرد مورد. إنها وثيقة بأرواح بشرية وأفعال وعلاقات. ومن يحتفظ بها يحمل أمانة، وسيُسأل عن كيفية أدائها.

"إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها." (النساء 4: 58)

البيانات الشخصية تخص في المقام الأول الشخص الذي توثّق حياته. فالأنظمة التي تجمع هذه البيانات وتخزّنها وتوظّفها دون موافقة أو شفافية أو محاسبة تنتهك مبدأ الأمانة بوضوح لا يقل عن أي خيانة أخرى. والحضارة الإسلامية التي تأخذ الإطار القرآني للتسجيل بجدية ستكون رائدة في تطوير أنظمة معلوماتية أخلاقية محترمة للحقوق، لا لأن الحكم الرشيد يستوجب ذلك فحسب، بل لأن معيار الله في حفظ السجلات يستوجبه.

٧. ماذا تكتب في سجلك اليوم؟

تختتم معالجة القرآن للسجل الإلهي بآية تُلقي بثقلها الكامل مباشرة على الفرد:

"اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً." (الإسراء 17: 14)

لن يُحتاج محامٍ. ولن يُطلب قاضٍ خارجي. سيقرأ الشخص سجله ذاته ويعلم، بوضوح كامل لا مفرّ منه، ما يحتويه بالضبط.

إن السؤال العملي الذي يطرحه هذا الأمر على كل مؤمن ليس سؤالاً نظرياً مجرداً، بل هو سؤال آني وشخصي: ما الذي تدونه في سجلك اليوم؟ لا في خادم سحابي أو قاعدة بيانات حكومية، بل في السجل المَرقوم، ذلك الحساب المرقم بدقة الذي يوثق كل كلمة، وكل نية، وكل خيار يُتخذ، سواء في العلن أو في الخفاء.

من يتلقى كتابه بيمينه ويدعو الآخرين إلى قراءته ليس من عاش حياته بلا صراع أو إخفاق. إنه من كان ميزانه الكلي، مأخوذاً كاملاً بصدق، يعكس حياة توجّهت نحو الصواب وتصحّحت حين أخطأت، مبنيةً على أساس الوعي الحقيقي بالله.

ذلك السجل يُكتب الآن.

كل محادثة وكل معاملة وكل قرار يُتخذ حين لا ينظر أحد، وكل لحظة نزاهة تُصان تحت الضغط، وكل خطأ يُصحَّح بصدق: كل ذلك يلتقطه رقيب عتيد لا ينام ولا يُفوّت ولا ينسى.

السؤال ببساطة: ما الذي سيُظهره ؟

خاتمة: التقنية مرآة للمعيار الإلهي

تساعدنا تكنولوجيا المعلومات البشرية بشكل متزايد على فهم كيف يمكن أن يكون من الممكن نظرياً إنشاء سجل كامل ودائم للأفعال البشرية، وإن ظل السجل الإلهي أكثر اكتمالاً ودقة بلا نهاية من أي نظام بشري. فلم نبلغ تلك الغاية بعد، والسجل الإلهي يعمل على درجة اكتمال وعمق لن تُعيدها التقنية البشرية كاملة أبداً. لكن اتجاه السير واضح، والتقارب قريب بما يكفي ليكون مُستفاداً منه.

في كل مرة يتأمل فيها إنسان أثره الرقمي، ومراسلاته المُسجَّلة، ومعاملاته القابلة للتتبع، والمسار البياني الذي تخلّفه الحياة الحديثة، فإنه يُجابه ظلاً باهتاً جزئياً من صنع البشر لما يصفه القرآن بـ**"كتاب مرقوم** :"سجلٌ محفوظٌ بعنايةٍ إلهيةٍ لكل ما قالوه أو فعلوه على الإطلاق.

الدرس ليس الخوف. إنه الوعي. الوعي الذي يُنتج المراقبة، شعور أنك مرئيٌّ مسموعٌ مُسجَّل في كل الأوقات من قِبَل من خلق الإنسان والكون الذي يتصرف فيه.

عِش على ذلك. واكتب سجلاً تكون فخوراً بتلقيه.

الفصل السابع عشر: علم الكونيات: القرآن وبدايات الكون

من بين كل الميادين التي يدعو فيها القرآن إلى التأمل العلمي، ربما كان علم الكونيات الأكثر إيقاعاً بالإنسان في دوار التواضع. فدراسة نشأة الكون وبنيته ومصيره النهائي تواجه البشر بأسئلة تُقزّم كل استقصاء آخر: كيف بدأ كل شيء؟ وما طبيعة الزمان والمكان؟ وهل ثمة أكوان أخرى وراء كوننا؟ وكيف سينتهي المطاف بكل ذلك؟

القرآن لا يُقدّم مقرراً في الفيزياء الفلكية. غير أنه يوجّه الانتباه نحو أسئلة تتعلق بنشأة الكون وبنيته ومصيره، في ظل رؤية كونية تُشجّع على الاستقصاء العلمي في تلك الأسئلة.

وعدد من الآيات القرآنية، حين تُفحص جنباً إلى جنب مع أكثر النماذج الكونية تقدماً في عصرنا، تكشف تقاطعاً لافتاً بين الوحي الإلهي والفهم العلمي المتطور. بعض هذه الصلات راسخة. وبعضها لا يزال في دائرة الاستشراف، يُشير إلى فرضيات لم يُثبّتها العلم الراهن ولم يدحضها. وفي الحالتَين معاً، يؤدي القرآن دوره محرّكاً للفضول: يدعو العالِم المؤمن إلى طرح أسئلة أعمق والسعي إلى أجوبة أكثر صرامة.

١. نشأة الكون: الرتق والفتق في سورة الأنبياء

أكثر أوصاف القرآن مباشرةً لنشأة الكون يرد في سورة الأنبياء:

"أولم يرَ الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما، وجعلنا من الماء كل شيء حي، أفلا يؤمنون." (الأنبياء 21: 30)

كلمتان تحملان ثقل هذه الآية: **رتق** و**فتق**. "الرتق يعني المطبَق الملتحم، المندمج في كتلة واحدة غير متمايزة. والفتق يعني الشقّ والفصل، إحداث التمايز من حال الوحدة. وتصف الآية السماوات والأرض بأنهما كانتا في حالة الرتق: كياناً واحداً ملتحماً غير متمايز. ثم أوجد الله الفتق: الانفصال والتمايز الذي أنتج الكون كما نعرفه.

يحمل هذا الوصف تشابهاً مفاهيمياً لافتاً مع الرواية العلمية الحديثة للانفجار العظيم. فوفق النموذج الكوني الحديث، نشأ الكون قبل نحو 13.8 مليار سنة من حالة تفرّد (singularity) بالغة الحرارة والكثافة، حيث كانت المادة والطاقة والمكان والزمان جميعاً في حالة موحّدة واحدة. لم تكن ثمة نجوم ولا كواكب ولا مجرات منفصلة. لم يكن ثمة أي تمايز من أي نوع. كل ما سيصبح الكون المرئي كان مضغوطاً في حالة رتق شبيهة بنقطة.

ثم، وفي حدثٍ لا يزال سببه يمثل أعمق مسألة مفتوحة في الفيزياء، خضعت هذه المتفردة لتوسعٍ سريع: "الفتق"؛ إذ بدأ الفضاء نفسه في التوسع، وتميزت المادة عن الطاقة. وفي غضون أجزاء من الثانية الأولى، انفصلت القوى الأساسية؛ وخلال دقائق، تشكلت النوى الذرية الأولى؛ وعبر مئات الملايين من السنين، أُوقدت النجوم الأولى. وهكذا، انبثق الكون كما نعرفه -بما يضمه من مليارات المجرات والكواكب وأشكال الحياة- من "فتقٍ" لـ "رتقٍ" أصلي.

ثم يُقدّم النص ادعاءً ثانياً أثبت علم الأحياء الحديث صحته من اتجاه مختلف كلياً: أن كل شيء حي مصنوع من الماء. وهذا ليس تعبيراً شعرياً. إنه حقيقة بيولوجية دقيقة. فالماء المذيب الشامل للحياة يُشكّل معظم كل خلية حية ويُوفّر الوسط الذي تجري فيه كل العمليات الكيميائية الحيوية. و لا يوجد أي شكل من أشكال الحياة اكتُشف في أي مكان على الأرض مهما كانت البيئة قاسية يمكنه البقاء دون ماء؛ ولذا فإن البحث عن الحياة في أماكن أخرى من الكون يسترشد في المقام الأول بالبحث عن الماء.

نص من القرن السابع الميلادي وصف الكون بأنه نشأ من حالة موحدة غير متمايزة فُتقت، وحدّد في الوقت ذاته الماء بوصفه أساس كل الحياة، كان يُشير إلى حقائق لم يُثبّتها العلم الإنساني إلا بعد أكثر من ألف سنة.

٢. الكون المتمدد: مُثبَّت ومسيء فهمه

وصف القرآن للكون المتمدد من أكثر تصريحاته احتفاءً وأشدها دقة علمية:

"والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون." (الذاريات 51: 47)

صيغة المضارع المستمر **"لَمُوسِعُون "**دالة في حد ذاتها. فالآية لا تقول "وسّعناها" بوصفه فعلاً ماضياً مكتملاً. بل تصف عملية جارية، مستمرة في هذه اللحظة بالذات، حيث يجري توسيعُ الكونِ بشكلٍ فعليّ.

يقدم تاريخ علم الكونيات الحديث مثالاً لافتاً لما كان سيعنيه أخذ هذه الآية على محمل الجد. ففي عام 1905 والسنوات التي تلت ذلك، طوّر ألبرت أينشتاين نظريته في النسبية العامة، وهي مجموعة من المعادلات الميدانية التي تصف هندسة الزمكان وعلاقتها بالمادة والطاقة. وعندما طبّق أينشتاين هذه المعادلات على الكون بأسره عام 1917، أفضت حساباته الرياضية إلى حلٍّ يتنبأ بكونٍ في حالة حركة، إما متوسع أو منكمش؛ وهو ما كان يتعارض مع الإجماع العلمي السائد آنذاك، والذي كان يرى أن الكون ساكن وأبدي.

وبدلاً من أن يُصدّق رياضياته و يشكك فى صحة الإجماع، أدخل أينشتاين مصطلحاً مصطنعاً في معادلاته —وهو الثابت الكوني (λ)— كان الغرض الوحيد منه إجبار المعادلات على إظهار كونٍ ساكن؛ وقد وصف ذلك لاحقاً بأنه "أكبر خطأ في حياتي".

في عام 1922 حلّ الرياضي الروسي ألكسندر فريدمان معادلات أينشتاين الأصلية دون ثابت الكون وأثبت أنها تتنبأ بكون متمدد. وفي عام 1927 توصّل القسيس الفيزيائي البلجيكي جورج لومتر باستقلالية إلى النتيجة ذاتها واقترح ما سيصبح نظرية الانفجار العظيم. وفي عام 1929 أكدت مشاهدات إدوين هابل للمجرات البعيدة التمدد رصدياً: المجرات تتراجع عنّا في كل الاتجاهات، وكلما ابتعدت ابتعاداً أكثر كان تراجعها أسرع.

الكون يتمدد. وقالت معادلات أينشتاين ذلك منذ البداية، وكبت النتيجة انصياعاً لإجماع عصره.

والقرآن صرّح بهذه النتيجة في القرن السابع الميلادي" :**وإنا لموسعون"**، مضارع مستمر، جارٍ الآن.

والدرس هنا يتجاوز النتيجة العلمية. إنه يتحدث عن العلاقة بين القرآن والاستقصاء العلمي. فعالِم مسلم يأخذ هذه الآية بجدية ربما كان أكثر انفتاحاً على حل الكون المتمدد من النماذج الثابتة التي فضّلها كثير من علماء تلك الحقبة. والقرآن ليس مصدر إلهام للاستقصاء العلمي وحسب. بل يمكنه، حين يُؤخذ بجدية، أن يُقدّم قيوداً توجّه التفكير العلمي بعيداً عن الأخطاء الناشئة عن الافتراضات الثقافية لا عن الأدلة.
والدرس ليس أن القرآن يُحلّ محل البحث العلمي، بل أن الافتراضات الراسخة ينبغي ألا تُتجاوز الأدلة أبداً.

٣. طيّ الكون: استعارة السجل

تطرح الآية الكونية الثانية في سورة الأنبياء استعارة تستحق التأمل الدقيق:

"يوم نطوي السماء كطيّ السجل للكتب، كما بدأنا أول خلق نعيده، وعداً علينا إنا كنا فاعلين." (الأنبياء 21: 104)

يتمثل أحد النماذج المفاهيمية المحتملة المستوحاة من هذه الصورة في أن الكون يمتلك بنيةً أعمق تشبه المخطوطة، ذات طبقات أو مناطق تخضع لعمليات طيٍّ وبسطٍ عبر التاريخ الكوني. وتتفق عدة جوانب من هذا الوصف مع فرضيات كونية متقدمة، في حين تظل جوانب أخرى محض تكهنات؛ لذا من المهم التمييز بوضوح بينهما.

ما هو راسخ

تصف الآية نموذجاً كونياً دورياً؛ إذ تصور كوناً يبدأ ويتوسع، ثم يمر في النهاية بمرحلة انعكاس وانكماش، على غرار طيٍّ المخطوطة وإعادتها إلى هيئتها الأولى. ويطرح هذا المفهوم -المعروف في علم الكونيات الحديث بفرضية "الانسحاق العظيم" (Big Crunch) أو النماذج الكونية الدورية- فكرة أن الكون الذي يتمتع بكثافة كافية من الكتلة والطاقة سيتوقف في نهاية المطاف عن التوسع ويبدأ في الانكماش بفعل الجاذبية، ليعود في النهاية إلى حالة تماثل "التفرد الأولي" الذي نشأ منه.

وتصف الآية الحالة الختامية بوصفها أساساً لبداية جديدة: "كما بدأنا أول خلق نعيده." وهذا يتطابق مع النماذج الكونية الدورية أو الارتدادية، التي تفترض أن انهيار كونٍ ما يمهد لميلاد كونٍ آخر، حيث ينبثق "الانفجار العظيم" للكون الجديد من "الانسحاق العظيم" للكون السابق له. وقد طوّر علماء فيزياء -من بينهم روجر بنروز وآخرون- أطرًا رياضية رصينة لهذه النماذج الكونية الدورية..

ما هو استشرافي لكنه مُوحٍ

تدعو استعارة السجل أيضاً إلى التأمل في هندسة الكون. فالسجل له بنية طبقية: طبقات متعددة ملفوفة حول محور مشترك، كل طبقة موازية لما جاورها لكن منفصلة عنه. وقد لاحظ بعض الفيزيائيين أن هذه الصورة تتردد مفاهيمياً مع تفسيرات بعينها في علم الكون الغشائي ، وهي فرع من الفيزياء النظرية نشأ من نظرية الأوتار.

في علم الكونيات الغشائي (brane cosmology)، قد يكون كوننا المرصود عبارة عن سطح ثلاثي الأبعاد - يُعرف باسم "الغشاء" (brane) - منغمسٍ في فضاء ذي أبعاد أعلى يُطلق عليه اسم "الفضاء المحيط" (bulk). ويمكن أن تتعايش أغشية متعددة داخل هذا الفضاء المحيط ذي الأبعاد العليا، حيث يمثل كل منها كوناً منفصلاً له قوانينه الفيزيائية الخاصة، وتفصل بينها أبعادٌ لا يمكن الوصول إليها عبر الحركة العادية في الفضاء ثلاثي الأبعاد..

لا بد من القول بوضوح إن هذه الموازاة بين استعارة " السجل" وعلم الكونيات الغشائي تظل ضرباً من التكهن؛ فالقرآن لا يستخدم لغة الأبعاد الإضافية أو نظرية الأغشية، وتُعد صورة اللفافة استعارةً مجازية، وإن كانت تنطوي على دلالات مفاهيمية مثيرة للاهتمام. ومع ذلك، يمكن القول بصدق إن هذه الاستعارة تتسق مع تلك النماذج العلمية على نحوٍ يدعو العلماء المؤمنين العاملين في هذه المجالات إلى مزيد من التأمل والتدبّر.

٤. السماوات السبع واحتمال العوالم المتعددة

إشارة القرآن المتكررة إلى السماوات السبع من أكثر تصريحاته الكونية تداولاً:

"الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن، يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما." (الطلاق 65: 12)

وتُثبّت الآية أنه إلى جانب السماوات السبع ثمة سبع أرضين "من الأرض مثلهن"، من النوع ذاته أو القدر ذاته. والأمر الإلهي يتنزل بينهن جميعاً. وهذه البنية، من سماوات وكيانات أرضية متعددة كلها خاضعة للحكمة الإلهية ذاتها، تفتح سؤالاً أدرك العلماء الكلاسيكيون وجوده ويبدأ علماء الكونيات الحديثون في أخذه بجدية: هل ثمة عوالم أخرى؟

وقد أثر العالم ابن عباس رضي الله عنهما، كما رواه ابن أبي حاتم والحاكم والبيهقي بإسناد وصفوه بالصحة، تأويلاً لافتاً في تفصيله:

"الله الذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهن: سبع أرضين، في كل أرض نبي كنبيكم، وآدم كآدم، ونوح كنوح، وإبراهيم كإبراهيم، وعيسى كعيسى."

قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ووافقه الذهبي في التلخيص. وقال البيهقي: إسناده صحيح إلا أنه شاذ.

يصف هذا الأثر، المنسوب إلى أحد أعلم صحابة النبي صلى الله عليه وسلم، بنيةً من عوالم متوازية، في كل منها تاريخ نبوة وحضارة بشرية كامل. وما إذا كان الأثر يُفسَّر حرفياً أم رمزياً أم بوصفه إشارة إلى حقائق تتجاوز الفهم الإنساني الراهن لا يزال موضع نقاش علمي. غير أنه قد يُشير إلى نموذج كوني يكون فيه كوننا المرئي واحداً من منظومات متشابهة متعددة، كل منها كامل في ذاته، خاضع للحكمة الإلهية ذاتها، حاضن لتاريخه الخاص من الخلق والهداية.

وفرضية الأكوان المتعددة الحديثة، المنبثقة من فروع مختلفة من الفيزياء تشمل نظرية التضخم ونظرية الأوتار وميكانيكا الكم، تقترح أن كوننا المرئي قد يكون واحداً من عدد هائل أو لانهائي من الأكوان، كل منها محتمل الثوابت الفيزيائية المختلفة والتاريخ المختلف وأشكال المادة والطاقة المختلفة. والشكل المحدد للأكوان المتعددة يتباين تبايناً ملحوظاً بين النماذج، ولم تُؤكَّد أي منها رصدياً بعد. غير أن التقارب بين هذه المجموعة من الفرضيات والتفسير الإسلامي التقليدي للآية 12 من سورة الطلاق لافتٌ بما يكفي ليستدعي اهتماماً جاداً من علماء الكونيات المسلمين.

٥. تكوير السماء: حجب بين العوالم

يتضمن وصف القرآن ليوم القيامة آية قد تحمل دلالة كونية تتجاوز معناها الأخروي:

"وإذا السماء كشطت." (التكوير 81: 11)

وكلمة **"كُشِطَت "**تعني أن تُقشَر وتُكشَط وتُزال كغطاء كان يحمي ما تحته. وفي معناها الأساسي تصف هذه الآية تفكّك السماوات المادية يوم القيامة: رفع المظلة الواقية لكوننا المرئي.

وقراءة استشرافية ذات إطار علمي لهذه الآية تسأل: ما الذي يقع وراء حدود كوننا المرئي مما يُحجب عنا الآن؟ في سياق نماذج الأكوان المتعددة، يمثل كوننا المرئي المنطقة من الزمكان التي وصل منها الضوء إلينا منذ الانفجار العظيم. وما وراء ذلك الحد، تُشير فيزياء التضخم إلى وجود مناطق أخرى، ربما بخصائص فيزيائية مختلفة، مختبئة فعلياً خلف أفق كوني.

لو رُفعت الحجب بين هذه المناطق لأصبح المخفي مرئياً. هل تُشير الآية إلى هذه الحقيقة الفيزيائية بالذات؟ لا يمكن الجزم بذلك. لكنه مثال آخر على وصف قرآني لأحداث كونية يفتح الأسئلة بدلاً من إغلاقها، يدعو العقل الفضولي إلى استكشاف ما قد يكشفه طيّ السماء عن بنية الكون وراء ما نستطيع رصده الآن.

٦. سرعة الملائكة والسفر في الأبعاد العليا

يصف القرآن الملائكة والروح وهم يعرجون إلى الله في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة:

"تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة." (المعارج 70: 4)

تصف هذه الآية حركة عبر مسافة تستغرق خمسين ألف سنة، تُنجَز في ما يبدو يوماً واحداً. وهذا يدعو الفيزيائي المعاصر فوراً إلى التأمل في العلاقة بين الفضاء والزمان وسرعة الضوء.

فنظرية النسبية الخاصة لأينشتاين أثبتت أن الزمان ليس مطلقاً. فالراصد المتحرك بسرعات تقترب من سرعة الضوء يُعايش تمدد الزمن: يكون الزمن المنقضي لديه أقل من الزمن المنقضي لراصد ثابت. وعند سرعة الضوء ذاتها يتوقف الزمان فعلياً للكيان المتحرك.

ومما يتصل بشكل أكبر بالوصف القرآني تلك الآليات النظرية لقطع مسافات شاسعة دون التقيد بقيود السفر التقليدي عبر الفضاء؛ ومن بينها "الثقوب الدودية" -وهي حلول لمعادلات أينشتاين للمجال تصف أنفاقاً في الزمكان تربط بين نقاط متباعدة- و"محرك ألكوبيير (Alcubierre)"، وهو آلية نظرية تقوم فيها المركبة الفضائية بضغط الزمكان أمامها وتمديده خلفها، مما يتيح لها فعلياً التحرك بسرعة تفوق سرعة الضوء دون أي انتهاك محلي لمبادئ النسبية..

ا تزال كلتا الآليتين تندرجان في إطار التكهنات العالية، وتواجهان تحديات نظرية جوهرية لم تُحل بعد؛ كما لم يتم تأكيد أي منهما رصديًا. ومع ذلك، فإن كلتيهما تنبعان من تطبيقات جادة لفيزياء النسبية العامة، وتكتسيان أهمية من الناحية المفاهيمية فيما يتعلق بالوصف القرآني للانتقال عبر مسافات كونية شاسعة في إطار زمني يبدو مضغوطًا.

ن الطرح الصادق للمسألة يقتضي القول بأن وصف القرآن لصعود الملائكة يثير تساؤلاً فيزيائياً حقيقياً لا يملك العلم الراهن إجابةً وافيةً عنه: ما هي الآلية التي تتيح الانتقال عبر مسافات تُقاس بعشرات الآلاف من السنين الضوئية في غضون يوم واحد؟ إن هذا ليس سؤالاً يطلب منا القرآن تجاهله، بل هو سؤال يدعونا إلى استقصائه.

٧. الأساس العقدي: لماذا يجب على العلماء المسلمين الانخراط في علم الكونيات

يُشير الثقل التراكمي لهذه الآيات مجتمعة نحو خلاصة واحدة: القرآن يتوقع من قرّائه المؤمنين الانخراط الجدي مع علم الكونيات، لا بوصفه هواية هامشية بل بُعداً محورياً من أبعاد فهمهم لخلق الله.

الكون أكبر آيات الله المرئية وأكثرها تعقيداً. حجمه ودقته وضبطه المذهل لإتاحة وجود المادة والكيمياء والحياة، كلها تُشير إلى الخالق بقوة لا يُضاهيها أي ميدان آخر من ميادين الاستقصاء. والقرآن يُصرّح بهذا صراحة:

"إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب." (آل عمران 3: 190)

ويعِد بأن الآيات في الآفاق الكونية ستظل تتكشّف مع تقدم المعرفة الإنسانية:

"سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبيّن لهم أنه الحق." (فصلت 41: 53)

وكان تاريخ علم الكونيات في القرنَين العشرين والحادي والعشرين متتالية مستمرة من الاكتشافات التي جعلت الضبط الدقيق المذهل للكون أكثر جلاءً وأشعلت نقاشات حول ما إذا كان الضبط الظاهر للكون يستدعي تفسيراً يتجاوز الصدفة. إن القيم الدقيقة للثوابت الفيزيائية الأساسية، والظروف الأولية الاستثنائية اللازمة لنشوء كونٍ قادرٍ على احتضان المجرات والحياة، وبنية إشعاع الخلفية الكونية الميكروي (cosmic microwave)، واكتشاف أن توسع الكون يتسارع بفعل طاقة مظلمة غامضة؛ كل هذه الاكتشافات جعلت الحجة الكونية القائلة بوجود خالقٍ أكثر إقناعاً -وليس العكس- مع تقدم العلم.

والعلماء المسلمون المنخرطون في علم الكونيات من أساس القراءة القرآنية لا يمارسون العلم بطريقة مختلفة عن زملائهم غير المسلمين في مناهجهم ومعايير أدلتهم. إنهم يمارسون العلم بإطار تحفيزي أغنى، يصل السعي إلى الحق الكوني بأعمق غرض في الوجود الإنساني: قراءة آيات الله في الآفاق والسماح لما يُوجد هناك بأن يُقوّي اليقين بأنه الحق.

خاتمة: بين الرتق والطيّ الأخير

يفتتح القرآن حساب الكون بالرتق، الوحدة البدائية، ويختتمه بطيّ السجل: اكتمال خلق بدأ من نقطة واحدة وسينتهي بفعل إلهي للإغلاق قبل بداية جديدة. وبين هذَين الحدثَين يتمدد الكون ويتمايز ويُنتج النجوم والكواكب والحياة والحضارات، ويعرض في كل بنية وكل قانون آيات خالقه.

وعلم الكونيات الإنساني أثبت التمدد. وتتبّع النشأة إلى قرب التفرد. ورصد الخلفية الكونية للميكروويف التي هي بقايا الفتق. ولا يزال يدفع نحو حدود المرصود، واجداً عند كل أفق جديداً من الأسباب للسؤال الذي كان القرآن يطرحه دائماً:

"أفلا يؤمنون؟"

الكون أكبر نص كتبه الله. وهو موجَّه إلى كل إنسان له عيون تُبصر وعقل يُفكّر وأمانة تتّبع الدليل أينما قاد.

اقرأه.

الفصل الثامن عشر: إعادة تقييم التاريخ الإنساني العميق: الإطار الزمني القرآني والبحث الأثري

من أكثر أشكال التحيز أثراً وأقلها تداولاً في علم الآثار الحديث هو التحيز الزمني. فالأطر التي فسّر من خلالها علماء الآثار الماضي الإنساني، والافتراضات المتعلقة بوقت بداية الحضارة وظهور اللغة وأول ظهور للتنظيم الاجتماعي المعقد، لم تكن نابعة من الملاحظة العلمية المحايدة وحدها؛ بل تشكّلت -في ظل التقاليد الأكاديمية الغربية التي هيمنت على هذا المجال طوال قرنين من الزمان- وفقاً لتسلسل زمني ديني محدد: ذلك المستمد من العهد القديم.

يقدم القرآن تسلسلاً زمنياً مختلفاً، وهو تسلسل لم يُدمج قط بشكل جاد في برامج البحوث الأثرية. وعند دراسة هذا التسلسل جنباً إلى جنب مع الأدلة المستمدة من علم الوراثة الحديث، وعلم المناخ القديم، وعلم الآثار القائم على الاستشعار عن بُعد، فإنه يطرح مجموعة من الفرضيات البحثية القابلة للاختبار العلمي، والتي من شأنها أن تُحدث تحولاً جذرياً في فهمنا للتاريخ البشري.

يطرح هذا الفصل مبرراتٍ تدعو إلى التعامل بجدية مع الإطار الزمني القرآني بوصفه أداةً بحثية؛ لا باعتباره تقريراً عقائدياً يُفرض على العلم، بل بوصفه فرضيةً بديلةً تستند إلى أسس تاريخية وتستحق القدر نفسه من الاهتمام البحثي الذي تحظى به أي أطر أخرى لفهم الماضي البشري.

١. التحيز الزمني المتضمَّن في علم الآثار الحديث

أُرسيت أسس علم الآثار التاريخي الغربي في حقبة كان الافتراض السائد فيها حول أصول الإنسان مستمداً من حسابات كتابية بعينها. ففي عام 1650م نشر المطران جيمس أوشر كتابه "حوليات العهد القديم"، إذ حسب فيه تاريخ الخلق بـ ٤٠٠٤ ق.م، واضعاً ظهور الإنسان الأول قبل نحو ٦٠٠٠ سنة. وأصبح هذا الحساب، المستمَد من أنساب العهد القديم، الخط الأساسي الضمني لتأريخ الحقب الأثرية المبكرة.

وكانت للتداعيات العملية لهذا الافتراض أثر بالغ ومديد:

- صُنِّفت المواقع الأقدم من نحو ٨٠٠٠ سنة تلقائياً بوصفها "ما قبل المتحضرة "بصرف النظر عن تعقيد الأدلة المكتشفة فيها، لأن الجدول الزمني المفترض لم يُتح مجالاً لحضارة منظمة في تلك العمق.
- رُكِّزت أولويات التمويل والحفريات في القرنَين التاسع عشر ومطلع العشرين على المواقع ما بعد العصر الحجري الحديث في الشرق الأدنى و بلاد الشام ، مما عزز روايةً لأصول الإنسان تتوافق مع الرواية التوراتية.
- التصنيف التفسيري لمصطلح "ما قبل التاريخ"، أي ما يسبق السجلات المكتوبة وبالتالي ما سبق الحضارة، بطريقة افترضت أن الحضارة لم تكن موجودة قبل بضعة آلاف من السنين.

وهذا ليس ادعاءً بتحيز ديني متعمد. فمعظم علماء الآثار في القرنَين التاسع عشر ومطلع العشرين كانوا ببساطة يعملون ضمن الإطار الفكري المتاح لهم، وكان كثيرون منهم مُلتزمين صادقاً بالاستقصاء التجريبي. لكن الإطار ذاته حمل افتراضات شكّلت الأسئلة التي طُرحت والمواقع التي حُقّق فيها وطريقة تفسير الأدلة.

وتجدر الإشارة إلى أن بعض المؤرخين المسلمين في العصور الوسطى ، وأبرزهم الطبري، اعتمدوا جداول زمنية مضغوطة مماثلة في كتاباتهم التاريخية، متأثرين بروايات إسرائيلية دخلت الخطاب العلمي الإسلامي. غير أن القرآن ذاته لا يُحدد تسلسلاً زمنياً لأصول الإنسان كما تفعل أنساب العهد القديم، ويحتوي على إشارات إلى تاريخ بشري أعمق بكثير مما يتيحه الإطار التوراتي.

٢. الإطار الزمني القرآني

لا يُحدد القرآن تاريخاً بعينه لخلق آدم أو بداية التاريخ الإنساني. ما يُقدمه، مع الأحاديث النبوية الموثقة، إطار للتفكير في عمق ذلك التاريخ.

يروي حديث مسجّل عند ابن حبان والحاكم أن بين آدم ونوح عشرة أجيال، وبين نوح وإبراهيم عشرة أجيال أخرى. ويصف القرآن نوحاً بأنه مكث في قومه 950 سنة قبل الطوفان:

"ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً." (العنكبوت 14)

وإن عاشت الأجيال بين آدم ونوح بأعمار مقارنة، وإن شهدت الأجيال بين نوح وإبراهيم تراجعاً تدريجياً في الأعمار يتسق مع ما تصفه الروايات، يبرز نموذجان زمنيان:

النموذج أ (المحافظ) :آدم قبل نحو 20,000 سنة، بافتراض متوسط أعمار في حدود 1000 سنة لأجيال ما قبل الطوفان وأعمار أقصر بكثير لأجيال ما بعده.

النموذج ب (الموسَّع) :آدم قبل نحو 60,000 سنة، إن كانت الأجيال الأولى تعيش أعماراً تتجاوز بكثير ما سُجّل لنوح، مع تراجع أكثر تدرجاً عبر الأجيال العشرين حتى إبراهيم.

وكلا النموذجَين يضع ظهور آدم في نطاق يتطابق بصورة وثيقة مع حقبة الحداثة السلوكية للإنسان وانتشاره عالمياً التي أثبتتها الأبحاث الجينية والأنثروبولوجية. فالتحول في العصر الحجري القديم الأعلى، قبل نحو ٥٠,٠٠٠ إلى ٧٠,٠٠٠ سنة، يرتبط بظهور التفكير الرمزي واللغة المعقدة والفن وشبكات التجارة بعيدة المدى في السجل الأثري. وينتمي الانتشار العالمي للإنسان العاقل (Homo sapiens) انطلاقاً من أفريقيا ضمن هذا النطاق الزمني ذاته.

هذا التقارب بين الإطار الزمني القرآني والأدلة العلمية الحديثة لا يُطرح هنا دليلاً على أي منهما. بل يُلاحَظ بوصفه توافقاً لافتاً يستحق الاهتمام الاستقصائي الجدي. فإن وُجد آدم في العمق الأبعد من هذا النطاق، فإن كامل ما يُسمّيه علم الآثار الغربي "ما قبل التاريخ" الإنساني قد يضم في الواقع عشرات الأجيال من ذرية الإنسان الأول، ربما بما فيها حضارات بالغة التعقيد لم تُعثر على آثارها بعد ولم تُتعرف عليها.

٣. صورة القرآن لآدم وتداعياتها على القدرات البشرية الأولى

بُعد محوري في الرواية القرآنية لأصول الإنسان له دلالات أثرية مباشرة هو: ما الذي تلقّاه آدم لحظة خلقه؟

"وعلّم آدم الأسماء كلها." (البقرة 31)

كما نُوقش في الفصل الخامس من هذا الكتاب، "الأسماء" في التراث القرآني تمثل أكثر من مجرد المفردات. تمثل القدرة على التصنيف والتنظيم المفاهيمي واللغة والفهم المنهجي للعالم. وكانت أولى الهبات الإلهية الموثّقة لآدم هبةً معرفية لغوية بالغة الرقي: القدرة على تسمية كل شيء وتصنيفه وفهمه والتواصل بشأنه.

والتداعيات الأثرية لهذا بالغة الأهمية. فالنموذج السائد لما قبل تاريخ الإنسان يفترض ظهوراً تدريجياً للتعقيد المعرفي والثقافي عبر عشرات الآلاف من السنين، من صنع أدوات بسيطة إلى اللغة إلى التفكير الرمزي إلى التنظيم الاجتماعي إلى الزراعة إلى الحضارة الحضرية. وهذا هو النموذج التطوري التدريجي المعياري.

والنموذج القرآني مختلف اختلافاً جوهرياً. فهو لا يصف آدم بوصفه كائناً بدائياً طوّر قدراته المعرفية تدريجياً. بل يصفه بوصفه كائناً تلقّى كامل الطاقة المعرفية واللغوية مباشرة من الله لحظة خلقه، أُسكن في جنة من العطاء، وتعلّم بالتعليم الإلهي، ثم أُرسل إلى الأرض وهو يملك القدرة على البناء والتنظيم والتأسيس.

ولم تبدأ ذرية آدم من الصفر إذن. فقد ورثت أساساً معرفياً وثقافياً كان، إن أُخذت الرواية القرآنية بجدية بوصفها ذات إيحاء تاريخي لا مجرد رمز، أكثر تطوراً بكثير مما يفترضه النموذج الأثري المعياري لـ"الإنسان ما قبل التاريخي".

وهذا يُشير إلى أن أوائل ذرية آدم ربما امتلكوا:

- لغة فعّالة وقدرة على التنظيم الاجتماعي المعقد منذ أقدم الأجيال
- معرفة بالزراعة وترويض الحيوانات وإدارة الأرض من تاريخ أبكر بكثير مما تُشير إليه الأدلة الأثرية الراهنة
- قدرات معمارية وحرفية ومعدنية ربما تجلّت في مواد ومنشآت لم تصمد للتاريخ أو لم تُتعرف عليها

٤. روايات القرآن عن حضارات متقدمة في عصور ما قبل التاريخ

يصف القرآن حضارات عدة وُجدت قبل الحقبة التاريخية الموثّقة ودُمّرت بتدخل إلهي. ولا تُقدَّم هذه الروايات بوصفها أساطير أو أمثال. بل يُصوِّرها القرآن باستمرار على أنها أحداث تاريخية ينبغي استخلاص العبر منها، كما يدعو القارئ في مواضع عدة إلى الانتقال فعلياً لزيارة أطلالها:

"أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم." (يوسف 109)

"ألم ترَ كيف فعل ربك بعاد، إرم ذات العماد، التي لم يُخلق مثلها في البلاد." (الفجر 6-8)

يصف القرآن قوم عاد ببناة مدينة لا مثيل لإنجازها المعماري: إرم ذات العماد، الموصوفة بأنها لا نظير لها في البلاد المعروفة لعرب القرن السابع. ويصف القرآن أيضاً طبيعتهم الجسدية بالاستثنائية وسلطانهم بالغلبة:

"وقالوا من أشد منا قوة." (فصلت 15)

تُشير هذه الأوصاف إلى حضارة لم تكن بدائية. كانت راقية معمارياً، منظمة سياسياً، قوية جسدياً وعسكرياً. ولم تُدمَّر بتراجع تدريجي بل بتدخل إلهي مُحدد: ريح ذات قوة كارثية سُلّطت عليها في فترة بعينها.

وقد كان موقع إرم موضع نقاش علمي وأثري. والمرشح الأجدى، استناداً إلى تحليل صور الأقمار الاصطناعية التي نشرها باحثون في مطلع التسعينيات من بينهم نيكولاس كلاب بالتعاون مع بيانات لاندسات التابعة لناسا، هو موقع في منطقة ظفار بعُمان قرب مدينة أُبار التاريخية التي كانت مركزاً للتجارة. وتُظهر شواهد الموقع وجود مستوطنة كبيرة تعرضت لانهيار كارثي أدى إلى سقوطها في حفرة هبوطية (بالوعة أرضية)، ربما نتيجة لانهيار كهف جيري تحت الأرض. ورغم تعذر الجزم بأن هذا الموقع هو "إرم" المذكورة في القرآن الكريم، إلا أن دراسته تُثبت أن الإشارات الجغرافية الواردة في القرآن يمكن أن تُثمر عن فرضيات أثرية قيّمة..

ويحتوي القرآن على آية تتعلق بقوم عاد استأثرت بالانتباه:

"أتبنون بكل ريع آيةً تعبثون، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون." (الشعراء 128-129)

وكلمة **"مصانع "**تُشير إلى منشآت مرتبطة بالبناء والإنتاج أو المشاريع الكبرى، وفسّرها المفسرون الكلاسيكيون بتفسيرات عدة. بعضهم فسّرها بالصهاريج المتقنة أو الحصون. لكن معناها الأساسي في العربية هو الأماكن التي تُصنَع فيها الأشياء أو تُنتَج على نطاق واسع. وجمع الآية بين البناء الضخم وما يبدو منشآت إنتاج واسعة يُشير إلى حضارة ذات طاقة صناعية إضافة إلى طاقتها المعمارية، وهو التركيب المتوقع بالضبط من مجتمع وصفه القرآن بأنه لا نظير له في القوة والبناء.

قوم ثمود والعمارة المنحوتة في الصخر

قوم ثمود من أكثر الحضارات القرآنية توثيقاً أثرياً. فمواقع سكنهم في منطقة الحِجر بشمال غرب الجزيرة العربية، المعروفة اليوم بمدائن صالح والمدرجة على قائمة التراث العالمي لليونسكو، تحوي مئات المقابر والمنشآت المنحوتة في الصخر بدقة استثنائية. ويصف القرآن حرفتهم:

"وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين." (الحجر 82)

"وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين." (الشعراء 149)

وكلمة **"فارهين "**تعني بمهارة وخبرة وإتقان. والأدلة الأثرية في مدائن صالح تُثبّت هذا الوصف: دقة النحت في الحجر، وتعقيد التفاصيل المعمارية، والهندسة اللازمة لنحت منشآت ضخمة في واجهات صخرية، كل ذلك يُشير إلى حضارة امتلكت تقنية متقدمة في تشغيل الحجر.

ويصف القرآن دمارها بالصيحة، الانفجار الصوتي الذي نوقش في الفصل الثاني عشر من هذا الكتاب. والأهم أن القرآن يُحدد أن بيوتهم نجت في حين هلك ساكنوها: "فأصبحوا في ديارهم جاثمين." وبقاء المنشآت في حين هلك سكانها الأحياء مُثبَّت بالسجل الأثري: فمساكن مدائن صالح المنحوتة في الصخر قائمة حتى اليوم، في حين اختفت الحضارة التي شيّدتها.

وهذا التنبؤ المحدد بأن المنشآت ستعمّر أبانيها، قابل للاختبار. والأدلة الأثرية تُثبّت بقاء المنشآت، وهو ما يتسق مع الوصف القرآني بأن المساكن بقيت في حين هلك أصحابها.

٥. الفترة الأثرية الصامتة: لماذا تترك الحضارات المتقدمة ما قبل التاريخية آثاراً شحيحة

إن كان الإطار الزمني القرآني صحيحاً وكانت حضارات بشرية متقدمة موجودة قبل ٢٠,٠٠٠ إلى ٦٠,٠٠٠سنة، يطرح نفسه سؤال أثري واضح: أين الأدلة؟ والجواب يتضمن عوامل عدة مفهومة جيداً في العلم الجيولوجي والأثري.

تحلل المواد

معظم مواد البناء تتحلل في آماد أقصر بكثير من ٢٠,٠٠٠ سنة. فالخشب والطوب الطيني والمواد العضوية تتفكك في غضون قرون في معظم الأحوال. وحتى الطوب المحروق والجص يتدهوران بصورة ملحوظة على مدى الآلاف من السنين. والمواد الأرجح بقاءً على مدى عشرات الآلاف من السنين هي الحجر والفخار والمعادن، وحتى المعادن تصدأ ما لم تُدفن في ظروف بعينها.

والحضارات التي يصفها القرآن بوصفها ضائعة تُوصف بأنها بانية في الحجر: إرم ذات العماد، والبيوت المنحوتة في الصخر لثمود. وإن كانت حضارات سابقة أخرى قد بنت أساساً في مواد عضوية، فآثارها المادية ربما أُتلفت كلياً بالتحلل.

الغمر تحت مياه البحار المرتفعة

من أكثر العوامل أثراً وأقلها تقديراً في الغياب الأثري لما قبل التاريخ العميق هو ارتفاع مستوى البحار في أعقاب العصور الجليدية. ففي ذروة العصر الجليدي الأخير قبل نحو ٢٠,٠٠٠ سنة، كانت مستويات البحار العالمية أدنى بنحو ١٢٠ متراً مما هي عليه اليوم. وهذا يعني أن مساحات شاسعة من الجرف القاري -التي تغمرها المياه حالياً- كانت آنذاك يابسة؛ وتشمل حوض الخليج العربي، وجرف "سوندا" في جنوب شرق آسيا، والمناطق الساحلية لشبه الجزيرة العربية، والأرفف القارية لكل من أفريقيا وأوروبا والأمريكتين.

وإن كانت حضارات إنسانية موجودة قبل 20,000 إلى 60,000 سنة، فإن كثيراً من أرجح مواقع الاستيطان، الأحياء الساحلية المطلة على الماء والغذاء والتجارة، هي الآن تحت الماء. وعلم آثار هذه

المناظر الطبيعية الغارقة في مرحلة النشأة. وتقنية المسح الأثري المنهجي لأعماق البحار، باستخدام المركبات المائية المستقلة، وسونار متعدد الحزم، وأجهزة تصوير ما تحت القاع، موجودة لكنها طُبِّقت على مناطق محدودة جداً.

التصحر والردم تحت الرمال

كانت صحراء الصحراء الكبرى والربع الخالي في شبه الجزيرة العربية أكثر رطوبة بكثير في فترات سابقة من الهولوسين وما قبله. والأدلة الأثرية من فترة الصحراء الخضراء، قبل نحو 9000 إلى 5000 سنة، تشمل أحواض بحيرات ومجاري أنهار وآثار مستوطنات رعوية عبر مناطق هي الآن صحراء قاحلة بالكامل. والمواقع من الفترات الأكثر رطوبة سابقاً في هذه المناطق ربما مدفونة تحت أمتار من الرمال المتراكمة، غير مرئية للمسح السطحي ولا يمكن الوصول إليها إلا بالاستشعار عن بُعد أو برامج الحفر المنهجي.

غوبكلي تبه (Göbekli Tepe): دليل على إمكانية التحقق

موقع غوبكلي تبه في جنوب شرق تركيا، الذي نُقّب فيه من التسعينيات فصاعداً من قِبَل كلاوس شميدت وفريقه، تحدّى بالفعل تحدياً جذرياً الافتراض القائل بأن البناء الضخم المنظم استوجب التطور السابق للزراعة والمجتمعات المستقرة. فغوبكلي تبه يتكوّن من حلقات متعددة من الأعمدة الحجرية الضخمة المنحوتة، يبلغ وزن بعضها 20 طناً، مرتبة في أنماط معقدة ومزيّنة بنقوش حيوانية متقنة، مؤرَّخة بنحو 11,600 سنة، أي قبل التاريخ التقليدي المعتمد لبداية الزراعة في المنطقة.

يُثبت غوبكلي تبه أن الرواية التقليدية لتقدم خطي بسيط ناقصة. فمجتمعات منظمة ومتطورة معمارياً وُجدت بآلاف السنين قبل ما توقعه التسلسل الزمني المستمد من التوراة. وإن كان غوبكلي تبه موجوداً قبل 11,600 سنة، يصح السؤال: ما الذي قد يوجد قبل 20,000 أو 40,000 سنة لو عرفنا أين نبحث؟

٦. فرضيات بحثية قابلة للاختبار

يُولّد الإطار القرآني مجموعة من الفرضيات البحثية المحددة القابلة للاختبار علمياً التي يمكن أن تُشكّل أساس برنامج بحثي أثري منظّم:

الفرضية الأولى: بقايا حضرية مغمورة في حوض الخليج العربي

كان الخليج العربي وادياً نهرياً ثم بحراً داخلياً ضحلاً في الحقبة التي يضع فيها التسلسل الزمني القرآني الحضارات الأولى بعد آدم. ويمكن لمسح منهجي بالسونار متعدد الحزم لقاع الخليج مع تصوير ما تحت القاع ومسوحات موجّهة بالمركبات المسيّرة تحت الماء أن يُحدد بقايا هيكلية مغمورة من هذه الحقبة. وقد حدّد بالفعل علماء آثار من بينهم جيفري روز حوض الخليج العربي بوصفه موقعاً بالغ الترجيح للاستيطان الإنساني المبكر.

الفرضية الثانية: مسح بالاستشعار عن بُعد للربع الخالي بحثاً عن إرم

لا يزال موقع إرم القرآنية غير محدد. ويمكن يمكن لتقنية التصوير بالرادار ذي الفتحة التركيبية والليدار القائم على الأقمار الصناعية اختراق عدة أمتار من غطاء الرمال الجافة والكشف عن الأنماط الهيكلية تحت السطحية.. ومسح منهجي بالاستشعار عن بُعد للربع الخالي، يستهدف المناطق ذات الظروف الجيولوجية الملائمة للحفاظ على المنشآت الحجرية، قد يُحدد مواقع مرشحة للتحقيق الميداني.

الفرضية الثالثة: توقيعات الضرر الصوتي في مواقع ثمود

إن كان دمار ثمود قد تضمّن حدثاً صوتياً متطرفاً، كما يُوحي الوصف القرآني للصيحة، فهذا الحدث ربما ترك توقيعات جسدية قابلة للرصد في المنشآت المنحوتة في الصخر. إذ تُنتج موجات الصوت الشديدة أنماط تشقق في الحجر تختلف عن تلك التي تُنتجها الأحداث الزلزالية أو التعرية أو التأثير الميكانيكي. ويمكن للتحليل البتروغرافي والجيوفيزيائي لمنشآت مدائن صالح اختبار وجود مثل هذه التوقيعات.

الفرضية الرابعة: إعادة تصنيف مواقع ما قبل التاريخ العميق

نبغي إعادة فحص المواقع التي يعود تاريخها حالياً إلى ما بين 15,000 و50,000 عام -والمصنفة على أنها "ما قبل الحضارة"- بشكل منهجي؛ بحثاً عن أدلة تشير إلى تعقيد تنظيمي، وتخصص حرفي، وتجارة لمسافات بعيدة، وتخطيط معماري، وهي سمات تدل على مستوى من التنظيم الاجتماعي لا يتوافق مع تصنيف "مجتمعات الصيد والجمع البدائية". وتشير الأدلة المستمدة من موقع "غوبكلي تبه" (Göbekli Tepe) إلى أن إعادة التصنيف هذه قد تكون مبررة في مواقع أخرى.

الفرضية الخامسة: بقايا معدنية شاذة

إذا كانت الحضارات المبكرة التي تلت عهد آدم تمتلك قدرات في مجال التعدين، فمن المحتمل أن تكون الأدلة على ذلك قد بقيت في صورة خبث المعادن، أو رواسب الفحم الناتجة عن عمليات الصهر، أو مصنوعات معدنية في طبقات أرضية تسبق "العصر البرونزي" المتعارف عليه. ومن شأن التحليل المنهجي لبقايا العمليات المعدنية -الموجودة في طبقات عميقة بمواقع منتشرة عبر شبه الجزيرة العربية والأناضول وبلاد الشام- أن يكشف عن ظواهر غير مألوفة؛ وهي ظواهر قد تستبعدها الأطر العلمية الراهنة، لكن التسلسل الزمني المستمد من القرآن الكريم يتوقع وجودها.

٧. المبادئ المنهجية: الإيمان إطار للبحث لا خلاصة للبحث

نقطة منهجية جوهرية لا بد من التصريح بها بوضوح. النهج المقترح في هذا الفصل لا يزعم أن الروايات القرآنية يجب قبولها بوصفها حقائق تاريخية ثابتة وأن علم الآثار يجب أن يكتفي بتأكيد ما يقوله النص. ذلك لن يكون علماً. بل سيكون من نفس فئة الخطأ المتمثلة في ممارسة علم الآثار لتأكيد تسلسل أوشر الزمني المبنى على العهد القديم.

ما يُقترح شيء مختلف وسليم منهجياً: أن تُعامَل الروايات القرآنية بوصفها فرضيات ذات إيحاء تاريخي قادرة على توليد تنبؤات قابلة للاختبار هذه هي المكانة المعرفية ذاتها التي تحظى بها أي نصوص قديمة —سواء كانت "الإلياذة" أو "الفيدا" أو "ملحمة جلجامش"— في الأوساط البحثية التاريخية الرصينة؛ فقد

عثر علماء الآثار المختصون بدراسات هوميروس على أطلال مدينة طروادة، كما يحدد علماء الآثار المعنيون بالحضارة الفيدية مواقعَ تتوافق مع حضارة نهر "ساراسواتي". ورغم أن هذه الأبحاث لم تُثبت أن تلك النصوص مُنزلة بوحي إلهي، إلا أنها أثبتت أن النصوص القديمة قادرة على حفظ ذاكرة تاريخية حقيقية لأماكن وأحداث واقعية، وأن تتبُّع الإشارات الواردة فيها قد يُفضي إلى اكتشافات أثرية.

بالنسبة للمسلم، يُعد ادعاء القرآن بأنه ذو مصدر إلهي ركيزةً إيمانيةً تستند إلى أسسها اللاهوتية والمعرفية الخاصة. وما يطرحه هذا الفصل هو أن الأوصاف التاريخية الواردة في القرآن تستحق الدراسة والبحث من منظور علم الآثار؛ ليس لأن الإيمان يقتضي ذلك، بل لأن الأدلة المستمدة من علم الوراثة الحديث، وعلم المناخ القديم، وعلم الآثار المقارن تشير إلى أن الماضي البشري السحيق أكثر تعقيداً وإثارة للاهتمام بكثير مما أتاح لنا الإطار القديم -المستمد من الرواية التوراتية رؤيته.

خاتمة: فتح نافذة الاستقصاء

التاريخ الإنساني، من منظور القرآن، ربما أعرق وأغنى بكثير من الإطار الزمني الضيّق الموروث من العهد القديم والمتغلغل في أسس علم الآثار الغربي. وإدماج الإطار الزمني الإسلامي في البحث الأثري يُوسّع نافذة الاستقصاء بعشرات الآلاف من السنين ويتوافق مع أفضل الأدلة الراهنة من علم الوراثة الإنساني وعلم المناخ القديم وآثار الحداثة المعرفية.

والحضارات التي يصفها القرآن، الإتقان المعماري لعاد، والبراعة في نحت الصخر لثمود، والمجتمع ما قبل الطوفان في زمن نوح، تُشير إلى ماضٍ إنساني لم تكن فيه الحضارة المتطورة إنجازاً حديثاً بل ظاهرة متكررة: تصعد وتأفل وتُمحى في بعض الحالات بأحداث كارثية يصفها القرآن بأحكام إلهية على مجتمعات رفضت الهداية رفضاً شاملاً.

ن مسألة إمكانية العثور على هذه الحضارات، أو بقاء آثارها المادية في الأرفف القارية المغمورة بالمياه، أو تحت رمال الصحراء، أو في طبقات جيولوجية عميقة لم تخضع بعد لدراسة منهجية، هي مسألة تجريبية؛ فالقرآن لا يقدم إجابة عنها، ولكنه يوجهنا نحو مواضع طرح هذه الأسئلة.

إن برنامجاً بحثياً يتعامل مع الروايات القرآنية باعتبارها ذات دلالات تاريخية -وليس مجرد قصص رمزية- ويوظّف ترسانة متكاملة من تقنيات الاستشعار عن بُعد الحديثة، وعلم الآثار تحت الماء، وعلم الوراثة الأثري، والتحليل الجيوفيزيائي لاستكشاف عصور ما قبل التاريخ السحيقة، قد يكشف عن فصول من التاريخ البشري ظلت طي النسيان بسبب تحيّز زمني لم يكن له أي مبرر علمي من الأساس.

الخطوة الأولى ببساطة: أن ننظر.

الفصل التاسع عشر: لماذا العربية؟ لغة الوحي الخاتم

حيث أن القرآن رسالةً عالميةً موجهةً إلى البشرية جمعاء عبر العصور، فلماذا أُنزِل بلغةٍ بشريةٍ محددة؟ ولماذا اللغة العربية تحديداً، لا لغةً رمزيةً عالميةً تكون في متناول كل الثقافات في آنٍ واحد؟ ولماذا لم تُنزَل نسخٌ متعددةٌ بالتوازي، بحيث تكون كلٌّ منها مصاغةً بدقةٍ تامةٍ لتلائم جمهورها؟

هذه ليست أسئلة عدائية. بل هي تساؤلاتُ عقلٍ يأخذُ على محملِ الجدِّ تلك الدعوةَ العالميةَ التي يطرحها القرآن. ويُقدِّم القرآنُ إجاباتٍ -مُضمَّنةً في وصفه لطبيعة التواصل الإلهي- تُعدُّ من بين أكثر الإجابات إشباعاً للعقل في أيِّ تقليدٍ لاهوتي.

والإجابة لا تبدأ بالعربية بل بطبيعة المعنى نفسه.

١. الأساس: المعنى سابق للغة

يمر التواصل البشري عبر عدة مراحل متميزة: القصد، والصياغة في كلمات، والنطق كصوت، والاستقبال عبر الأذن، وفك الرموز لاستعادة المعنى. ومن بين هذه المراحل، تظل المرحلة الأهم هي تلك التي تحدث في البداية وفي النهاية: المعنى ذاته.

المعنى مستقل عن أي لغة محددة أو إشارة مادية؛ فالأفكار تتشكل في العقل قبل أن تُصاغ باللغة الإنجليزية أو العربية أو الصينية أو غيرها. وتؤكد علوم الأعصاب الحديثة ما يشي به التأمل المتأني: وهو أن تنشيط المفاهيم في الدماغ يسبق عملية الترميز اللغوي؛ إذ يعالج الدماغ المفاهيم بوصفها وحداتٍ أولية، في حين تُعد الكلمات والأصوات والرموز مجرد وسائط تُطبَّق على بُنىً ذات دلالة داخلية. وبذلك، يكمن جوهر التواصل في المضمون الدلالي، لا في الوسيط المادي الذي ينتقل عبره.

وهناك مثال مألوف يجعل هذا الأمر ملموساً؛ فعندما يرسل شخص ما رسالة صوتية عبر تطبيق رقمي، يستمع المتلقي إلى صوت المرسل وينسب الرسالة إليه بثقة. ومع ذلك، فمن الناحية المادية، لم ينتقل أي صوت بينهما؛ بل إن ما قطع تلك المسافة هو دفق من الإشارات الثنائية المشفرة رقمياً، والتي تولت التكنولوجيا معالجتها وإعادة بنائها. ولا يستنتج أحد من ذلك أن المرسل "لم يتحدث حقاً"، فالتواصل حقيقي ومفهوم، والمعنى ونسبية النص (المؤلف) يظلان سليمين في حين تتغير طبيعة الإشارة بالكامل.

يؤسس هذا لمبدأ جوهري لا غنى عنه لكل ما يليه: إن صحة التواصل لا تعتمد على الآليات المادية للنقل، بل على النقل الأمين للمعنى.

وليس هذا المبدأ مجرد رؤية حديثة، بل هو الأساس الذي يقوم عليه البيان القرآني للوحي.

٢. التواصل الإلهي: إلقاء المعنى

يصف القرآن الوحي بلغة تُشير باستمرار إلى نموذج تواصل إلهي مباشر غير صوتي:

"يُلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده." (غافر 15)

فعل **"يُلقي "**يدل على الإيداع المباشر دون وساطة حسية. والقرآن يستخدم هذا الفعل ذاته لإلقاء الرعب في القلوب، وإلقاء الحق في العقول، وإلقاء الوحي على مريم، وإلقاء السكينة في قلوب المؤمنين: ولا شيء من ذلك يستلزم اهتزازاً صوتياً. والوحي مُصوَّر بوصفه إيداعاً دلالياً مباشراً، وضع المعنى في الوعي لا إرسال موجات صوتية.

ويزيد القرآن في توصيف الوحي بأنه ينتمي إلى دائرة الأمر الإلهي لا إلى دائرة الخلق المادي:

"ألا له الخلق والأمر." (الأعراف 54)

الخلق يُوجد الكائنات عبر عمليات تتكشّف في الزمن. والأمر يحكم بالإرادة الإلهية الفورية. والوحي ينتمي إلى دائرة الأمر:

"وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا، ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان، ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا." (الشورى 42: 52)

وحين سُئل النبي صلى الله عليه وسلم عن طبيعة الروح أُمر بالإجابة:

"قل الروح من أمر ربي." (الإسراء 85)

واستخدام **"الأمر "**المتكرر في الصياغات الثلاث يحمل معنى لاهوتياً دقيقاً: الإرادة الإلهية، والتنفيذ الفوري، والسببية غير المادية. وتُوحي أوصاف القرآن للوحي بقوة بأن مضمونه الجوهري نُقل مباشرة وبيقين تام، لا عبر أساليب التواصل الإنساني العادية.

إن هذا النموذج يفسر سمات التجربة النبوية التي لولاها لظلت محيرة: الثقل المهيب للوحي الذي يعقبه وضوح تام في المعنى، واليقين المطلق الذي يميز المعرفة النبوية عن الإدراك البشري المعتاد، واستحالة اعتراض الرسالة أو تحريفها بين مصدرها الإلهي ومتلقيها البشري. فلم يكن النبي يستمع إلى أصوات ثم يفسرها، بل كان يتلقى المعنى مباشرة، في صورة لا تدع أي مجال للبس أو سوء الفهم.

٣. انضباط المعنى: ما يصح وما لا يصح قوله في حق الله

إن نموذج الوحي الذي تأسس أعلاه، حيث يُلقى المعنى مباشرة في الوعي دون وساطة صوتية أو مادية، يثير على الفور سؤالاً تنطوي عليه تبعات حضارية عميقة: إذا كان القرآن يصف الله بـ "النزول"، و"المجيء"، و"الكلام"، و"الاستواء على العرش"، فكيف ينبغي فهم هذه اللغة؟

يستخدم القرآن في جميع صفحاته لغة قائمة على المكان، والزمان، والأفعال في حديثه عن الله. وهذه اللغة مفهومة للبشر على وجه التحديد لأنها مستمدة من التجربة الإنسانية؛ غير أن قابلية الفهم لا تستلزم تماثلاً وجودياً، فالقدرة على فهم مصطلح ما لا تبيح تطبيق آلياته المادية أو الزمانية الكامنة فيه على رب العزة سبحانه وتعالى.

إن اللغة البشرية مقيدة بطبيعتها بالفئات المخلوقة: كالجهة والبعد، والحركة والتتابع، والقبل والبعد، والفوق والتحت. أما الله سبحانه، فقد وجد قبل الزمان والمكان وأوجدهما معاً، وهو سبحانه لا يقع ضمن هذه الفئات. ولذا، عندما يفتتح القرآن باستخدام مثل هذه اللغة، فإنه لا ينقل الله إلى الإطار المفاهيمي البشري، وإنما ينقل المعنى إلى الإدراك البشري.

وينبثق عن هذا مبدآن يشكلان العمود الفقري للمنهج القرآني في ضبط المعنى:

أولاً: الوحي يُثبّت الحقيقة والصلةَ، لا الكيفية والآلية.

حين يقول الله إنه "ينزل" أو "يجيء" أو "يستوي"، اللغة تُثبّت حقيقته وتفاعله وسيادته وقربه. ولا تصف الآليات المادية لكيفية فعله، وهي كيفية تقع تماماً خارج نطاق اللغة البشرية والخيال الإنساني.

ثانياً: اللغة قد تكون وعاء للفهم دون أن تكون قادرة على تحديد المتكلم.

فالوعاء يحمل الحق دون ن يحصر المصدر أو يقيسه.

ويوضح لنا تشبيه محدود هذا التباين: تخيل كائناً يعيش في أبعاد ثلاثة يتواصل مع كائنات تعيش في بعدين فقط. ولكي يفهموه، فإنه يتحدث إليهم بمصطلحات ثنائية الأبعاد، فيقول: "أقتربُ"، أو "أبتعدُ". تدرك الكائنات ثنائية الأبعاد حقيقة هذا التفاعل، على الرغم من أن الفعل نفسه لا يحدث داخل مستواهم الوجودي. فإذا قلبوا هذه اللغة ووصفوا الكائن ثلاثي الأبعاد بأنه يتحرك داخل مستواهم، أو يشغل موقعاً محدداً في هندستهم، فإنهم يقعون في خطأ خلط الفئات الوجودية. فاللغة المُكيَّفة لعالم المتلقي لا تعني أن المتكلم مُقيَّد بذلك العالم..

والتشبيه هنا محدود، لكن درسه واضح: إن تطويع اللغة لتناسب عالم المستمع لا يعني بحال أن المتكلم مقيد بهذا العالم.

لقد طور علم الكلام السُنّي الأصيل استجابة منهجية لهذا التحدي من خلال صيغتين متكاملتين :**الإثبات بلا كيف**، و**التنزيه بلا تعطيل** .وقد جسد الإمام مالك هذا المنهج حين سُئل عن الاستواء الإلهي على العرش، فقال: "الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة، والإيمان به واجب."

إن هذه الصياغة تحفظ صدق النص وتنزه المتكلم في آنٍ واحد، كما تقي من خطأين مدمرين تكررا عبر تاريخ الفكر الديني:

- **التشبيه :**معاملة "نزول" الله بوصفه حركة مكانية، و"يده" بوصفها عضواً جسدياً، و"غضبه" بوصفه انفعالاً بيولوجياً، بإسقاط الآليات الإنسانية على الحقيقة الإلهية.
- **التعطيل :**نفي الصفات الإلهية المعنوية كلياً تحاشياً لأي خطر من التشبيه، مما يُفرغ الوحي من مضمونه ويقطع صلة المؤمن بإله تحوّل إلى مجرد تجريد فلسفي.

والمنهج القرآني يتجنب الاثنَين بإثبات ما يُرسّخه القول من حقيقة إلهية وسلطان وتفاعل، مع الامتناع عن تكييف أفعال الله سبحانه في ذاته، وهو ما يقع خلف حدود اللغة والخيال.

إن هذا الانضباط في فهم المعنى ليس مجرد مسألة كلامية دقيقة، بل هو مبدأ حضاري؛ فكل حضارة فقدت هذا الانضباط تهاوت في أحد هذين الخطأين: فالجماعات التي تُشبه الإله ينتهي بها المطاف إلى عبادة مخلوقات تشبهها، والجماعات التي تجرد اللغة الإلهية من معناها ينتهي بها الأمر إلى استبدالها بسلطة بشرية بحتة تتغول حتماً لتصبح طغياناً.

لذا، فإن الانضباط القرآني في ضبط المعنى — بالتمسك الثابت بما أثبته الله لنفسه مع رفض تقييده سبحانه بالفئات البشرية — هو الموقف الوحيد الذي يحفظ التنزيه الإلهي والتفاعل الحقيقي للإله مع الحياة البشرية في آن واحد.

٤. من المعنى إلى اللغة: لماذا يهم الوعاء

حين يُثبَّت أن المعنى سابق للغة، على المستوى المعرفي الإنساني والمستوى التواصلي الإلهي على حد سواء، يطرح نفسه سؤال طبيعي: إن كان المعنى هو الأصل واللغة مجرد وعاء، فهل يهم أي لغة تحمل الوحي الأخير؟

والجواب: نعم، بعمق بالغ. فالأوعية ليست متبادلة. طاقة الوعاء ودقته ومتانته وجماله تُحدد جميعها مدى أمانة واكتمال حفظ ما يحمله ونقله. والوعاء المتشقق أو القاصر يُضيّع ما يحمله. أما الوعاء المتطابق تطابقاً تاماً مع مضمونه فيحفظه كاملاً.

ويُقرّ القرآن بأن اختيار العربية كان مقصوداً بعينه:

"إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون." (يوسف 2)

"وإنه لتنزيل رب العالمين، نزل به الروح الأمين، على قلبك لتكون من المنذرين، بلسان عربي مبين." (الشعراء 192-195)

إن عبارة "لسان عربي مبين" تشير إلى صفتين متلازمتين في آنٍ واحد: وضوح التعبير وجلاء الهداية. ولم يقع الاختيار على القالب العربي لمجرد التيسير على المخاطَبين الأوائل بالوحي، وإنما اختير لما تمتلكه هذه اللغة من طاقة قصوى وقدرة فائقة على حمل المعنى الإلهي، وحفظه، وتبليغه بدقة وعمق عبر الأجيال كافة.

5. الذكاء الاصطناعي وفصل المعنى عن اللغة

ظلّت الفكرة القائلة بأن المعنى يمكن أن يوجد بشكل مستقل عن لغة معينة مجرد مفهوم فلسفي لردح طويل من التاريخ البشري. أما اليوم، فإن التطورات المتسارعة في مجال الذكاء الاصطناعي تقدم برهاناً عملياً على هذا المبدأ.

تأمل كيف تعمل أنظمة ترجمة الذكاء الاصطناعي الحديثة؛ فعندما يتحدث شخص ما باللغة العربية في برنامج ترجمة، لا تقوم الآلة ببساطة باستبدال الكلمات العربية بكلمات إنجليزية، بل تحاول تحديد المعنى الذي تحمله الجملة العربية، ثم تُعبر عن هذا المعنى بلغة أخرى.

ويمكن فهم هذه العملية على النحو التالي:

الصوت ← اللغة ← تمثيل المعنى ← اللغة الجديدة

تستقبل الآلة الصوت، وتحوله إلى كلمات، وتستخلص تمثيلاً للمعنى المقصود، ثم تولد تعبيراً جديداً عن هذا المعنى بلغة أخرى. فالوعاء اللغوي يتغير، لكن المعنى الكامن يظل ثابتاً.

وعلى الرغم من أن أنظمة الذكاء الاصطناعي الحالية لا تفهم المعنى حقاً بالطريقة التي يفهمها البشر، إلا أنها تثبت مبدأً مهماً: وهو أن التواصل لا يتعلق بالأصوات في جوهره، بل بالمعاني التي تحملها تلك الأصوات.

يساعد هذا التمييز في تسليط الضوء على سمة لافتة في القرآن الكريم؛ فالقرآن يوثق حوارات دارت بين أنبياء وأقوام عاشوا قبل قرون من أن تصبح العربية لغة الوحي. ومن المؤكد تقريباً أن نوحاً وإبراهيم وموسى وفرعون وغيرهم الكثير تحدثوا بلغات غير العربية القرآنية، ومع ذلك يعرض القرآن كلامهم باللغة العربية.

وبناءً على ذلك، فإن القرآن لا يحفظ أصواتهم الأصلية، بل يحفظ معانيهم ويعبر عنها عبر الوعاء اللغوي الذي اختير للوحي الخاتم. وبهذا المعنى، يقدم القرآن نموذجاً للتواصل يرتكز على المعنى لا على الصوت.

وتوفر أنظمة ترجمة الذكاء الاصطناعي الحديثة تشبيهاً مفيداً هنا؛ فعندما تُترجم جملة عربية إلى الإنجليزية، لا يكون الهدف الحفاظ على صوت الكلمات الأصلية بل الحفاظ على معناها. ويساعد المبدأ نفسه في تفسير كيف يمكن للقرآن أن ينقل كلام أقوام وأنبياء مختلفين بأمانة تامة مع تقديمه في لغة واحدة.

ولا تقتصر التبعات هنا على مسألة الترجمة فحسب؛ فمع تقدم الذكاء الاصطناعي، يحاول الباحثون بشكل متزايد تحديد "التمثيلات الدلالية (Semantic Representations) "التي توجد خلف لغات معينة. ويتمثل الهدف بعيد المدى في بناء أنظمة قادرة على التعامل مباشرة مع المفاهيم بدلاً من الكلمات وحدها. وسواء نجحت هذه الأنظمة في نهاية المطاف أم لا، فإن اتجاه البحث ذاته يشير إلى حقيقة عميقة: وهي أن المعنى أعمق من اللغة، وأن اللغة ليست سوى وعاء يُعَبَّر من خلاله عن المعنى.

٦. لماذا العربية؟ سيمفونية الوحي

من التشبيهات المفيدة لفهم سبب اختيار اللغة العربية، هو الفرق بين سيمفونية كُتبت لأوركسترا كاملة، وتوزيع موسيقي كُتب لآلة واحدة فحسب.

إن مدوَّنة السيمفونية (النوّتة الموسيقية) تُكتب لاستغلال كامل النطاق الصوتي لكل آلة في الأوركسترا: رنين الآلات الوترية، بريق الآلات النحاسية، دقة آلات النفخ الخشبية، وقوة الآلات الإيقاعية. وكل آلة تساهم في إبراز بُعدٍ من أبعاد قصد المؤلف الموسيقي لا يمكن لأي آلة أخرى أن تحاكيه؛ والنتيجة هي كثافة في المعنى الموسيقي يعجز التوزيع المكتوب لآلة واحدة عن نقله بالكامل، مهما بلغت مهارة العازف.

وتعمل العربية القرآنية عمل هذه المدونة الأوركسترالية الكاملة؛ إذ تجمع بين طبقات من المعنى، والبنية، والصوت، بثراء استثنائي. وهي تدمج خصائص مجتمعة تجعل منها دون غيرها الوعاء الفريد والمؤهل لحمل الوحي الخاتم والعالمي:

النظام الاشتقاقي (الجذر اللغوي): عائلات المعنى

تتأسس البنية اللغوية للعربية على نظام الجذور الثلاثية، حيث يولد الجذر المكون من ثلاثة أحرف عائلات كاملة من الكلمات المرتبطة دلالياً. فجذر (ك-ت-ب) مثلاً، تتولد منه كلمات: كَتَبَ، وكِتَاب، ومَكْتُوب، وكَاتِب، ومَكْتَبَة، وكِتَابَة، وغيرها الكثير. وتحمل كل كلمة مشتقة اللب الدلالي للجذر الأصلي، مع إضافة بُعد دلالي محدد تمنحه إياها الصيغة الصرفية (الوزن).

ويعني هذا النظام أن الكلمة القرآنية الواحدة تحفز وتنشط حقلاً دلالياً كاملاً في آن واحد؛ فعندما يستخدم القرآن مصطلح "التوكل" (الاعتماد على الله)، فإن القارئ الملم باللسان العربي يستحضر في الوقت نفسه المعنى الجذري المرتبط بالوكالة والتفويض، والصيغة الصرفية المحددة التي تدل على الاعتماد النشط والمستمر، وعائلة المفاهيم ذات الصلة التي يولدها هذا الجذر كافة. وإن هذه الكثافة الدلالية التي تحملها الكلمة العربية الواحدة غالباً ما تتطلب جملة كاملة لشرحها في الترجمة.

الدقة النحوية: ترميز العلاقات بين الكلمات

تُرمّز القواعد العربية العلاقات بين الكلمات بدقة لا تُضاهيها فيها إلا قلة من اللغات. فالإعراب يُحدد الدور النحوي لكل كلمة في الجملة، مما يتيح مرونة في تقديم الكلمات وتأخيرها لتقديم معانٍ دقيقة تفيد التأكيد أو تبين طبيعة العلاقات، وهي مزية يستحيل تحقيقها في اللغات ذات البنية التركيبية الثابتة.

ويعتمد التأكيد القرآني في الآية الكريمة: ((إِيَّاكَ نَعْبُدُ)) وتقديمها على (نعبدُك) كلياً على هذه البنية النحوية؛ فتقديم "إياك" يفيد الحصر والقصر والتوكيد، وهو ما يتطلب عبارة تفسيرية كاملة في لغات كالإنجليزية لتوضيحه.

وليس الهدف من هذه الدقة تزيين اللفظ، بل هي الفارق الحاسم بين نص تشريعي محكم وآخر غامض، وبين توجيه أخلاقي محدد وآخر حمال أوجه وقابل لسوء التفسير. إن البنية النحوية للقرآن الكريم توفر مستوى من الدقة الدلالية يحمي معانيه من الانحراف والتبدل الذي يصيب نصوص اللغات الأقل تحديداً في قواعدها النحوية.

المدى الصوتي: بنية الصوت والمعنى

تمتلك اللغة العربية واحداً من أوسع الأنظمة الصوتية (الفونيمية) بين اللغات الحية الكبرى في العالم، بما في ذلك أصوات تخرج من مخارج دقيقة تمتد من أقصى الحلق إلى الشفتين، وهي أصوات تفتقر إليها

معظم اللغات الأخرى. ويستغل القرآن هذا المدى الصوتي الكامل استغلالاً تاماً؛ فتراكيبه الصوتية تحمل المعنى، وإيقاعه يسوق الحجة، والتجربة السمعية للتلاوة تعزز المحتوى الدلالي للكلمات وتعمقه.

إن وصف القرآن لنفسه بأنه "مبين" (واضح ومُظهِر للحق) يشير إلى هذا البعد السمعي أيضاً؛ فوضوح القرآن العربي ليس مفاهيمياً فحسب، بل هو صوتي كذلك، فالأصوات ذاتها تحمل الرسالة بمباشرة ورنين لا يمكن للمحاكاة الصوتية في الأنظمة اللغوية الأخرى أن تعيد إنتاجه بالكامل.

معجزة الإعجاز

يُصدر القرآن تحدياً مباشراً ظل بلا إجابة أربعة عشر قرناً:

"قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً." (الإسراء 88)

لقد وُجِّه هذا التحدي إلى ثقافة كانت تضع التفوق اللغوي فوق كل إنجاز آخر تقريباً؛ ففحول الشعراء في جزيرة العرب قبل الإسلام — وهم جهابذة اللسان الذين كانت تُعلَّق قصائدهم على جدران الكعبة كأرفع تشريف يمكن لعلّية مجتمعهم منحه — واجهوا القرآن فبُهتوا وأُلجِموا. بل إن بعضاً من أشد معارضيه بلاغةً قد أسلموا لا عن مجادلة، بل خضوعاً لسطوة بيانه وجمال لغته.

إن إعجاز القرآن ليس مجرد دعوى حول مصدره الإلهي، بل هو تقرير يخص اللغة ذاتها؛ ومفاده أن العربية في قالبها القرآني قد رُفِعت إلى ذروة من الكثافة الدلالية، والبنية البلاغية، والجمال السمعي، وعمق المعنى، بما يمثل الحد الأقصى للطاقة التعبيرية للّسان البشري؛ فقد هُيِّئ الوعاء وأُحكِم ليتطابق تماماً مع جلال المعنى الذي يحمله.

بناءً على ذلك، فإن تراجم القرآن الكريم مهما بلغت دقتها وأمانتها تظل بالضرورة أشبه بتوزيع موسيقي لآلات منفردة؛ فهي قادرة على نقل الهداية الأساسية والمعاني الجوهرية، لكنها تعجز عن محاكاة البنية المعمارية الأصلية المتعددة الطبقات، صوتاً، وإيقاعاً، ونحواً، ودلالة. ولهذا السبب يُدرَس القرآن بلغته العربية في شتى أرجاء العالم الإسلامي، من قِبل ناطقين بمئات اللغات الأخرى، على مدى أربعة عشر قرناً وفي كل قارة مأهولة؛ فالأصل لا بديل له، لأن الوعاء قد اختير صراحةً وصُنِع على عينٍ ليناسب محتواه.

٧. صياغة اللسان البشري كافة بالعربية القرآنية

إن من أبرز سمات القرآن الكريم — بمجرد استيعاب مبدأ تقدم المعنى على اللغة — هي عرضه لكلام أقوام وشعوب بالغة التنوع؛ من مصريين، وعبرانيين، وآراميين، وسبئيين، وأقوام عاد وثمود، إلى جانب حوارات تشمل إبليس والملائكة، وقد صيغ ذلك كله في لسان عربي فصيح وناصع.

فشخصيات مثل نوح، وموسى، وإبراهيم، وفرعون، وملكة سبأ، ولقمان، وأصحاب الكهف، يتحدثون جميعاً في القرآن بأرقى الأساليب اللغوية وأرفعها بياناً. فهل "ترجم" الله كلامهم إلى العربية؟ وإذا كان الأمر

كذلك، فكيف يُحفظ الكمال البلاغي للنص في حين أن الترجمة بالمقاييس البشرية تنطوي حتماً على شيء من الفقد والنقص؟

إن الإطار المعرفي الذي أسس له هذا الفصل يجيب عن هذا السؤال مباشرة: فالقرآن لا يترجم صوتاً، وإنما يعرب عن المعنى ويفصح عنه. إن ما صِيغ باللسان العربي ليس النتاج الصوتي الفعلي لخطابات تاريخية، بل هو المحتوى الإدراكي والقصدي الحقيقي الكامن في نفوس المتكلمين وعقولهم. فالله سبحانه، الذي يعلم المعنى قبل وجود اللغة ومستقلاً عن أي لسان بعينه، يُعبر عن ذلك المعنى مباشرة بالعربية القرآنية؛ الوعاء الذي اصطفاه للوحي الخاتم.

والنتيجة هنا ليست مجرد ترجمة، بل هي "بيان مطلق" وإفصاح كامل: صياغة للحقائق الخالدة عبر الأمم واللغات والعصور، في لغة واحدة اختيرت وأُحكِمت لحملها. ولذا يصف القرآن نفسه بأنه نزل:

"بلسان عربي مبين." (الشعراء 195)

وهذا الوصف يؤكد على جلاء الهداية ووضوحها، لا على الحفظ الأرشيفي للصوت الأصلي؛ فالقرآن ليس متحفاً للملفوظات التاريخية، بل هو وحي دلالي: معنى إلهي، مُستخلص من أعمق غايات ومقاصد الحوارات البشرية التي يوثقها، ومصاغ باللسان الأرفع الذي اصطفاه الله ليكون رسالته الخاتمة والعالمية للبشرية جمعاء.

٨. التبعات الحضارية: انضباط المعنى ممارسةً وتطبيقاً

إن المبادئ التي تأسست في هذا الفصل ليست مجرد أطروحات كلامية أو عقائدية، بل إن لها تبعات حضارية مباشرة على كيفية تواصل المجتمع المسلم، وإدارته لشؤونه، وتعليمه، وحفظه لقيمه.

دقة اللغة كواجب حضاري

إن أي حضارة يصيغها القرآن ستتعامل مع "دقة اللسان والتعبير" لا كرفاهية أكاديمية، بل كواجب أخلاقي. إن الكثافة الدلالية الاستثنائية للقرآن، ودقته النحوية، وتمييزه الدقيق بين الكلمات التي تبدو مترادفة ولكنها تحمل ظلالاً مختلفة من المعنى، كل ذلك يقدم نموذجاً يحتذى به في العناية اللغوية؛ عناية تمتد من النص المقدس لتشمل كل مجال من مجالات الحياة العامة.

وبناءً على هذا المعيار، فإن اللغة القانونية التي تتعمد الغموض لفتح باب التلاعب تعد انتهاكاً له. والخطاب السياسي المصمم لخلط الأوراق وتزييف الحقائق عبر عبارات صادقة في ظاهرها يعد انتهاكاً له. والكتابة العلمية التي تعمي ولا تُبين تعد انتهاكاً له كذلك. إن الحضارة القرآنية هي حضارة "البيان"؛ التعبير الواضح والدقيق، وهو قيمة تُطبق باطراد وثبات من أعلى مستويات الاجتهاد الديني إلى أبسط المعاملات التجارية اليومية.

الأمانة في التواصل

يُرسّخ النموذج القرآني للتواصل بوصفه نقلاً أميناً للمعنى يجعل من كل فعل تواصلٍ عبارةً عن "أمانة". فالملقي أو الكاتب يحمل المعنى أمانةً للمستمع أو القارئ، وواجبهما هو نقل هذا المعنى بأمانة تامة، لا مجرد إلقاء كلمات حمالة أوجه يمكن تأويلها بطرق شتى بناءً على خلفيات المستمع وظنونه.

والمجتمع الذي يتمثل هذا المبدأ ستنخفض فيه معدلات التقاضي والنزاع لأن عقوده ستفصح عما يعنيه الطرفان حقاً، وسيشهد حوكمة أكثر فاعلية لأن قوانينه ستعبر عن الإرادة الحقيقية لمن صاغوها، وسيحظى ببيئة علمية أفضل لأن باحثيه سينشرون نتائجهم بالدقة والأمانة التي يتطلبها السعي وراء الحقيقة.

صون العربية مسؤولية مقدسة

إن اصطفاء اللغة العربية لتكون وعاءً للوحي الخاتم يضع مسؤولية محددة على عاتق الأمة الإسلامية: وهي حفظ اللغة العربية عند مستوى من الدقة والعمق يتيح للقرآن أن يكون متاحاً بالكامل لمن يتدارسه.

إن التبسيط التدريجي، وسيادة العامية، وتشرذم اللسان العربي عبر العالم الإسلامي ليس مجرد نزعة ثقافية عابرة، بل هو تباعد تدريجي للأمة عن العمق الدلالي الكامل لنصها التأسيسي. فالطالب أو المسلم الذي لا يستطيع التعامل مع العربية القرآنية بكل تعقيداتها النحوية والبلاغية، يقرأ القرآن من خلال نافذة أضيق بكثير من تلك التي فتحها الله سبحانه. ولذا، فإن الواجب الحضاري في حفظ العربية الفصحى ونقلها ليس مسألة حنين ثقافي إلى الماضي، بل هو مسألة تمكين من الوصول إلى المعنى الكامل للهداية الإلهية.

المعنى فوق الشعار

ربما أعجل التطبيقات الحضارية لمبادئ هذا الفصل هو التمييز بين الفهم الحقيقي وترديد الشعارات. فالقرآن لا يأمر بمجرد تلاوة كلماته. بل يأمر بالتدبّر، التأمل العميق المُتغلغل في معانيها. والأمة التي تتلو العبارات القرآنية دون التفاعل مع معانيها تملك شكل الهداية الإلهية دون جوهرها.

وصف النبي صلى الله عليه وسلم زماناً يُتلى فيه القرآن بجمال دون أن تتجاوز هدايته الحناجر. وانضباط المعنى الذي يصفه هذا الفصل، الجدية في التعامل مع ما تُوصله الكلمات فعلاً، ورفض الاكتفاء بالألفة السطحية، وإعمال كامل القوة العقلية التي وهبنا الله إياها في استنباط المعنى الذي أنزله سبحانه: و الترياق الحاسم لتلك العلة.

خاتمة: الوعاء المثالي

اختيار القرآن للعربية لغةً للوحي الأخير ليس مصادفة تاريخية ولا تنازلاً لبيئة النبي الثقافية. إنه اختيار الوعاء الأقدر على حمل أقصى كثافة ودقة للمعنى الإلهي إلى أوسع نطاق من البشر على امتداد الزمان والمكان.

وحجة هذا الفصل يمكن صياغتها ببساطة:

المعنى سابق للغة. والتواصل الإلهي هو الإيداع المباشر للمعنى في الوعي لا إرسال موجات صوتية.

اللغة **المصطفاة :**إن اللسان الذي اختير للتعبير عن هذا المعنى في قالبه الخاتم، العالمي، والدائم، قد اصطفي لأنه اللسان البشري الأكثر تمكناً من حمل هذا المعنى بأعلى درجات الدقة، والعمق الدلالي، والجمال السمعي، والديمومة الحضارية.

وبناءً عليه، فإن القرآن العربي ليس "ترجمة" للمعنى الإلهي إلى لسان بشري، بل هو المعنى الإلهي مصاغاً في اللسان البشري الذي اصطفاه الله، وأحكمه، وجعله معجزاً ليكون وعاءه الدائم.

إن هذا الانضباط في ضبط المعنى , بالاقتراب من اللغة بدقة، وأمانة، وتواضع أمام ما يتجاوز التحديد، والتزام بنقل المعنى بوفاء , هو في حد ذاته توجيه حضاري؛ وهو المعيار الذي يمثله القرآن في كل آية من آياته ويطلبه من كل قارئ لآياته.

بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ

واضح في صوته. واضح في قواعده. واضح في معناه. واضح في هدايته. وواضح في المعيار الذي يُحدده لكل فعل تواصلٍ إنساني يأتي بعده.

الفصل العشرون: الكون نظام مغلق محفوظ بالإرادة الإلهية

سؤال لا تستطيع الفيزياء وحدها الإجابة عنه

تصف الفيزياء الحديثة كوناً تحكمه قوانين دقيقة ثابتة ظلت مستقرة عبر 13.8 مليار سنة من التاريخ الكوني. وتصف المادة والطاقة بأنهما محفوظتان: لا شيء يُخلَق من عدم ولا شيء يُفنى إلى عدم. وتصف الإنتروبيا، أي ميل الأنظمة المغلقة نحو الفوضى المتصاعدة، بوصفها أحد أكثر المبادئ الأساسية الحاكمة للواقع الفيزيائي.

ومع ذلك تصل الفيزياء الحديثة، متروكةً لذاتها، إلى خلاصة بالغة الإحباط بشأن المصير النهائي للكون: تحلل بطيء لا رجعة فيه نحو أقصى درجات الإنتروبيا، حالة من الفوضى الموحدة تُسمى أحياناً "الموت الحراري للكون"، لا تكون فيها أي بنية منظمة ممكنة، ولا نجوم ولا كواكب ولا حياة ولا تعقيد من أي نوع. الكون وفق هذا التصور شارع ذو اتجاه واحد يسير من النظام إلى الفوضى ومن التعقيد إلى الرتابة ومن المعنى إلى العبث.

ويُقدّم القرآن نموذجاً مختلفاً جوهرياً. فهو لا يعارض فيزياء الإنتروبيا. بل يُموضع الإنتروبيا داخل إطار أشمل تحفظ فيه الإرادة الإلهية النظامَ، وتتجاوز فيه القدرة الإلهية قيود الأنظمة الفيزيائية، وتُصبح فيه اللارجعة الظاهرة للعمليات الطبيعية ليست الكلمة الأخيرة في مصير الكون.

١. التصريحات السبع: مبدأ قرآني حول الخلق

يُقرّر القرآن قضية واحدة عميقة حول طبيعة الخلق سبع مرات، في سبع سور مختلفة، في سياقات تتراوح بين الحجاج اللاهوتي والوصف الكوني ويوم القيامة. والقضية هي:

الله يبدأ الخلق ثم يعيده.

وتكرار هذه القضية سبع مرات ليس استطرادياً. فالتكرار في الأسلوب القرآني دليل على المحورية: هذا مبدأ تأسيسي بالغ الجوهرية يجب أن يُواجَه من زوايا متعددة في سياقات متعددة حتى يُتمثَّل كاملاً. وكل ورود يُضيف بُعداً لفهم ما تعنيه البداية والإعادة.

وفيما يلي التصريحات السبع بسياقها الكامل:

التصريح الأول: يُسر الإعادة

"وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه." (الروم 27)

يُرسّخ هذا التصريح أن الإعادة ليست ممكنة لله فحسب بل أيسر من الخلق الأول. فإن أوجد الله الكون من عدم، فإعادة تجميع مكوناته المتفرقة لا تُمثّل تحدياً أكبر. والآية تدحض مسبقاً أكثر الاعتراضات

شيوعاً على البعث: كيف تُعاد المادة المتفرقة المتحللة؟ والجواب أن من جمّعها من لا شيء يستطيع إعادة جمعها من شيء بيُسر أعظم.

التصريح الثاني: يقين العودة

"إليه مرجعكم جميعاً وعد الله حقاً، إنه يبدأ الخلق ثم يعيده." (يونس 4)

يربط هذا التصريح المبدأ اللاهوتي للرجوع بأساسه الفيزيائي: القدرة ذاتها التي أوجدت الخلق ستُعيده. وعودة البشر جميعاً إلى الله ليست حدثاً معجزاً منفصلاً عن بنية الواقع. إنها تعبير عن القدرة الإلهية ذاتها التي أوجدت الكون. والمادي والأخروي متصلان.

التصريح الثالث: التحدي للأنداد

"قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده." (يونس 34)

يُوظّف هذا التصريح المبدأ حجةً منطقية على تفرّد الله. فالقدرة على إبداء الخلق وإعادته هي المعيار الفاصل للألوهية الحقيقية. وكل ما لا يستطيع الاثنَين ليس إلهاً بل مخلوق. والآية تدعو إلى التأمل العقلي: طبّق هذا الاختبار على كل مرشح للعبادة، ولا يجتازه إلا الله.

التصريح الرابع: السجل والدورة الكونية

"كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين." (الأنبياء 104)

هذا التصريح، المناقَش تفصيلاً في الفصل الكونياتي، يرد في سياق طيّ الكون كطيّ السجل في نهاية الزمن. وإعادة الخلق تُعاكس بدأه تماماً: الفعل ذاته، القدرة ذاتها، الإرادة الإلهية ذاتها. والتماثل بين البداية والنهاية ليس عارضاً. إنه سمة هيكلية في النموذج القرآني للكون.

التصريح الخامس: مُقدّم الرزق

"أمن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم." (النمل 64)

يقرن هذا التصريح الإبداء والإعادة بالرزق. فالقدرة الإلهية ذاتها التي أوجدت الكون وستُعيده تُديمه لحظةً بلحظة من خلال توفير الرزق. والخلق والرزق والإعادة ثلاثة تعبيرات عن المشاركة الإلهية المتواصلة ذاتها مع الكون.

التصريح السادس: دعوة السير والنظر

"أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده، إن ذلك على الله يسير. قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق." (العنكبوت 19-20)

يُقرَن هذا التصريح مباشرة بالأمر بالسير والنظر. فهم أن الله يبدأ الخلق ويُعيده لم يُقصَد منه أن يبقى قضية لاهوتية نظرية. بل المقصود منه دفع الاستقصاء التجريبي: سيروا وانظروا كيف بدأ الخلق. وعلم

الجيولوجيا وعلم الأحياء القديمة وعلم الكونيات وعلم الأحياء، كلها مدعوة هنا، وهي علوم تدرس كيف بدأ الخلق وكيف يتواصل، بوصفها استجابة لهذا الأمر القرآني.

التصريح السابع: الرجوع إلى الله

"الله يبدأ الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون." (الروم 11)

يُضيف التصريح السابع الأكمل الوجهة النهائية: بعد الإعادة يأتي الرجوع إلى الله ذاته. فالتسلسل مكتمل: إبداء، ثم إعادة، ثم رجوع أخير. والكون ليس مساراً مفتوح النهاية بلا وجهة. إنه قوس هادف له بداية وامتداد ونهاية هي في الوقت ذاته رجوع إلى مصدره.

٢. النموذج القرآني: نظام محفوظ بالإرادة الإلهية

مجتمعةً تُرسّخ التصريحات السبع نموذجاً متسقاً للكون يمكن فحصه جنباً إلى جنب مع الفيزياء الحديثة. وللنموذج أربع سمات مُميِّزة:

النشأة الهادفة (الخلق لغاية)

لم ينشأ الكون عن تقلب عشوائي في الفراغ، ولا عن سلسلة من الأسباب المادية الممتدة إلى ما لا نهاية دون أساس أول أو موجد مطلق؛ بل أوجده الله سبحانه وتعالى بأمره، ولغاية وحكمة. وهذه النشأة ليست حدثاً يقع لمرة واحدة يشتغل الكون بعدها من تلقاء نفسه، بل هي الفعل الأول في صلة مستمرة لا تنقطع بين الخالق والمخلوق.

القيومية (المدد والاستدامة الفاعلة)

لا يصف القرآن كوناً خُلق ثم تُرِك ليدير نفسه وفقاً لقوانينه الخاصة بينما يظل الخالق بمعزل عنه؛ بل يصف كوناً يمده الله بفضله، وتستديم حركته ووجوده فاعلة بالمشيئة الإلهية في كل لحظة:

"إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده، إنه كان حليماً غفوراً." (فاطر 41)

إن الفعل "يُمْسِكُ" وارد بصيغة المضارع التي تفيد الاستمرار والتجدد؛ فالله سبحانه وتعالى يمسك السماوات والأرض بنفوذ قدرته في هذه اللحظة وكل لحظة. وبناءً على هذا الإطار القرآني، يمكن فهم استقرار القوانين الفيزيائية وثباتها على أنه تعبير عن المشيئة الإلهية التي تمد نظام الخلق بالاستدامة والقيومية دون انقطاع.

ويصف علم الفيزياء الحديث هذا الاستقرار بـ "قوانين الحفظ" والثوابت الطبيعية: مثل قانون حفظ الطاقة، وحفظ كمية الحركة (الزخم)، وحفظ الشحنة الكهربائية، بالإضافة إلى القيم الدقيقة لثوابت الفيزياء الأساسية. وتتميز هذه القوانين والثوابت بـ "ضبط دقيق" مذهل يتيح وجود البنى المركبة والحياة ذاتها. وهنا يقدم النموذج القرآني تفسيراً متسقاً وعلةً لوجودها وثباتها: فهي تجليات للحكمة والمشيئة الإلهية، تمدها بالبقاء القوةُ ذاتها التي أبدعت الخلق أول مرة.

ثبات القوانين حكمة إلهية

تُظهر القوانين الفيزيائية الحاكمة للكون اتساقاً هو، من أي منظور مادي خالص، مُستعصٍ فلسفياً. لماذا تكون قوانين الفيزياء في مجرة تبعد عشرة مليارات سنة ضوئية هي نفسها على وجه الأرض؟ لماذا تحكم المعادلات ذاتها التي تُنظّم حركة كرات البلياردو حركة المجرات؟ لماذا تظهر البنى الرياضية ذاتها على كل مقياس من مقاييس الكون، من ميكانيكا الكم إلى النسبية العامة؟

يُقدّم النموذج القرآني إطاراً لفهم هذا الاتساق. قوانين الكون متسقة لأنها تعكس حكمة وإرادة خالق واحد يحفظها بصورة موحدة. ويصف القرآن مراراً الكون بأنه يعمل وفق **"سنة الله"**، النمط الثابت الذي يعكس الحكمة الإلهية لا التباين الاعتباطي:

"فلن تجد لسنت الله تبديلاً ولن تجد لسنت الله تحويلاً." (فاطر 43)

تُرسّخ هذه الآية ثبات الأنماط الإلهية مبدأً قرآنياً. فالعلم يصف عالمية هذه القوانين بنجاح بالغ، لكنه لا يُفسّر بذاته لماذا توجد هذه القوانين الشاملة والأنيقة رياضياً أصلاً.

القابلية للانعكاس: الأساس العقدي للبعث والنشور

السمة الرابعة والأكثر تميزاً للنموذج القرآني هي تأكيده على "القابلية للانعكاس" (العودية)؛ فالكون ليس حبيساً في عملية تدهور وتلاشٍ أحادية الاتجاه لا رجعة فيها، بل هو كونٌ بدأه الله سبحانه وتعالى وسيعيده، وستكون هذه الإعادة دقيقة ومحكمة: ((كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ)).

وهذا هو الأساس العقدي واللاهوتي لمعنى البعث؛ فالاعتراض المادي على القيامة والبعث هو في جوهره اعتراض على "إمكانية انعكاس العمليات الفيزيائية"؛ حيث يحتجون بأن "الأنتروبيا (entropy) في ازدياد مستمر، والعمليات الفيزيائية لا يمكن عكسها، والموتى لا يمكن إعادتهم". والقرآن يفند هذا الاعتراض مباشرة ومراراً وتكراراً؛ فالقدرة التي أوجدت الكون من عدم لا تقيدها الحدود "الديناميكية الحرارية" للعمليات الجارية داخل الكون نفسه. إن القدرة الإلهية الخالقة تعمل عند مستوى يحيط بالقوانين الفيزيائية التي وضعتها ويتسامى عليها.

٣. فيزياء الإنتروبيا: ما تُثبته وما لا تُثبته

لكي نستوعب النموذج القرآني استيعاباً كاملاً، يجدر بنا فهم ما يقرره علم الفيزياء الحديث فعلياً حول "الأنتروبيا" وعدم قابليتها للانعكاس، وأين تكمن حدود التفسير المادي.

ما هي الإنتروبيا

ينص القانون الثاني للديناميكا الحرارية على أن "الأنتروبيا" ، وهي مقياس الفوضى أو عدد الحالات المجهرية (Microstates) الممكنة والمطابقة لحالة مرئية كلية (Macrostate) معينة ، تميل إلى الازدياد بمرور الوقت في الأنظمة المغلقة.

ففنجان القهوة الساخن المتروك في غرفة باردة سيبرد حتى يصل إلى درجة حرارة الغرفة؛ حيث تتشتت الطاقة الحرارية من حالة مركزة إلى حالة أكثر تشتتاً، وهذه العملية لا تنعكس تلقائياً. والزجاج المكسور لا يعيد تجميع نفسه. وكذلك البنى المعقدة المنظمة، إذا تُرِكت لشأنها، فإنها تميل نحو حالات أبسط وأكثر فوضوية.

ويتسم هذا القانون بعمومية استثنائية؛ فهو ينطبق على الأنظمة الفيزيائية والكيميائية والبيولوجية، وحتى على أنظمة نظرية المعلومات. وهو العلة وراء حدوث الشيخوخة، وانطفاء النجوم في نهاية المطاف، وتآكل الآلات، وتحرك الكون ككل نحو حالة من الكثافة المنخفضة تدرجياً للطاقة الصالحة للاستخدام.

حدود التفسير المادي

غير أن القانون الثاني ينطبق على الأنظمة المغلقة، أي الأنظمة التي لا تتلقى طاقة من الخارج. والكون ككل هو النظام المغلق الوحيد حقاً بالمعنى الفيزيائي. وهنا يبلغ التفسير المادي حداً فلسفياً.

يصف القانون الثاني ما يحدث داخل الكون بشروطه الراهنة. ولا يستطيع ولا يُعالج الأسئلة التالية:

- لماذا توجد الشروط التي تُتيح تصاعد الإنتروبيا أصلاً؟
- لماذا كان الكون في حالة انتروبيا منخفضة بصورة استثنائية عند بدايته، وهي حالة تستوجب بذاتها تفسيراً؟
- ما الذي يُحدد الشروط الحدية للكون ككل؟
- ما الذي يقع خارج الكون، إن وُجد، مما يمكنه تفسير شروطه الابتدائية؟

هذه ليست أسئلة فيزيائية. إنها أسئلة ميتافيزيقية حول أساس الواقع الفيزيائي. ويُفضي الافتراض المادي بأن الإنتروبيا تتصاعد دائماً إلى صورة كون يتجه نحو الفوضى والعبث في نهاية المطاف. لكن هذا الافتراض لا يستطيع تفسير لماذا بدأ الكون في حالة انتروبيا منخفضة بصورة استثنائية، وهي الشرط الضروري المسبق لتصاعد الإنتروبيا المُنتِج للبنى المعقدة، بما فيها الحياة، التي نرصدها.

وقد حسب الفيزيائي روجر بنروز أن الحالة الابتدائية المنخفضة الإنتروبيا للكون بالغة الاستثنائية لدرجة أن احتمالها، بالقياس إلى مجال الشروط الابتدائية الممكنة كلها، يستوجب تفسيراً من نوع لا تستطيع الفيزياء وحدها تقديمه. وقد قاد الضبط الدقيق للشروط الابتدائية للكون، التي أتاحت كل التعقيد والنظام المنبثقَين منذ الانفجار العظيم، كثيراً من المفكرين إلى الحجة بأن الشروط الابتدائية للكون تستدعي تفسيراً يتجاوز الصدفة.

الإنتروبيا داخل نظام محفوظ بالإرادة الإلهية

النموذج القرآني لا يُنكر الإنتروبيا. بل يضعها داخل إطار أشمل. فداخل الكون تسير العمليات الفيزيائية وفق القوانين التي أرساها الله، بما فيها القانون الثاني للديناميكا الحرارية. فالنجوم تحترق والكائنات تموت والبنى الفيزيائية تتحلل. وهذه عمليات حقيقية تعمل وفق قوانين الكون.

لكن الكون ذاته ليس نظاماً مغلقاً مستقلاً بالمعنى الفلسفي. إنه نظام محفوظ بالإرادة الإلهية شروطه الحدية وثوابته الأساسية وقوانينه يحفظها الخالق فاعلاً. وضمن هذا الإطار:

- **ثبات القوانين الفيزيائية عبر الزمن الكوني** يعكس الحفظ الإلهي لا الضرورة العمياء.
- **الضبط الدقيق الاستثنائي للشروط الابتدائية** يعكس الإبداء الهادف لا المصادفة.
- **عدم القابلية للانعكاس (الظاهرية) للعمليات الفيزيائية داخل الكون** لا تُقيّد قدرة من أبدأ الكون ويحفظه من خارج منظومته الديناميكية الحرارية.

وبناءً على ذلك، فإن إعادة الخلق والبعث الموصوف في البيانات القرآنية السبعة ليس خرقاً لقوانين الديناميكا الحرارية، بل هو فعلٌ صادر عن القدرة الإلهية ذاتها التي وضعت تلك القوانين وحددت الشروط الأولية التي تتدفق منها العمليات الفيزيائية كافة. فالله سبحانه وتعالى ليس جزءاً مشاركاً داخل النظام الديناميكي الحراري للكون، بل هو مؤلفه وموجده سبحانه وعلا.

٤. الإطار المقارن

يضع الجدول التالي النموذج القرآني جنباً إلى جنب مع النموذج المادي، وذلك عبر الأبعاد الرئيسية لهذا النقاش:

البُعد	النموذج القرآني	النموذج المادي
الأصل	إبداء هادف بإرادة إلهية من أمر	ظهور عارض من عمليات فيزيائية بلا سبب نهائي
الحفظ	محفوظ فاعلاً بالإرادة الإلهية كل لحظة (فاطر 41)	قائم بذاته بقوانين الحفظ دون صيانة خارجية
ثبات القوانين	يعكس الحكمة الإلهية والإرادة الإلهية الثابتة (سنة الله)	يُعامَل بوصفه سمة أساسية للواقع أصلها العميق مجهول
الإنتروبيا	حقيقية داخل الكون لكن مقيّدة بقدرة إلهية تتجاوزها	مطلقة ونهائية؛ المصير الأخير للكون الموت الحراري
الرجعية	الله يُعيد الخلق بالدقة التي أبدأه بها	لا رجعية؛ العمليات الفيزيائية لا يمكن عكسها
الشروط الابتدائية	مُضبَّطة بتصميم إلهي هادف	بالغة الاستثنائية في الاحتمال لكنها لا تستوجب تفسيراً يتجاوز الفيزياء
الحالة النهائية	مطوية ومُعادة تتبعها العودة إلى الله (الأنبياء 104)	الموت الحراري أو التمدد الأبدي نحو أقصى إنتروبيا
البعث	متجذّر في القدرة الإلهية ذاتها التي أبدأت الخلق	مستحيل بالنظر إلى اللارجعية الديناميكية الحرارية

٥ . الحجة المنطقية: الإبداء دليل على الإعادة

لا يسوق القرآن الكريم هذه البيانات السبعة كمجرد تقريرات عقدية غيبية فحسب، بل يطرحها في قالب **حجج منطقية** .ويتسق بناء هذه الحجة عبر المواضع السبعة كافة، ويمكن صياغته بدقة على النحو التالي:

- **المقدمة الأولى :**الله سبحانه وتعالى هو الذي ابتدأ خلق الكون من عدم، فأوجد المادة، والطاقة، والمكان، والزمان، والقوانين الناظمة لها جميعاً.
- **المقدمة الثانية :**إن القدرة المطلوبة لإيجاد الشيء من العدم المحض أعظم من القدرة المطلوبة لإعادة بناء الشيء وتجميعه من مكوناته وعناصره القائمة.
- **النتيجة :**إذا كان الله سبحانه قادراً على ما هو أعظم (الابتداء)، فهو بلا ريب قادر على ما هو أهون (الإعادة). فالذي ابتدأ الخلق من عدم قادر على إعادته وجمعه بعد تفرقه الشديد.

وقد صرّح القرآن الكريم بهذه الحجة المنطقية في سورة الروم:

((وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ)) [الروم: 27]

وتعد كلمة **"أَهْوَنُ "**هي المرتكز الحاسم في الآية؛ فالإعادة في منطق العقل فعل دون الابتداء وأيسر منه. والقوة المنطقية الملزمة لهذه الحجة تكمن في بيان التناقض المعرفي لمن ينكر البعث والنشور مع إقراره بالخلق الأول؛ فإذا كنت تقر بأن الكون قد أُوجِد وصار شيئاً مذكوراً بعد أن لم يكن، فقد أقررت ضمناً بوجود قدرة كافية ووافية لتحقيق البعث وإعادة الخلق.

وتفند هذه الحجة أيضاً الاعتراض المادي العيني القائم على "الأنتروبيا"؛ حيث يقول المعترض: "إن أشلاء الميت المبعثرة المتهالكة لا يمكن إعادة تجميعها لأن الفوضى (الأنتروبيا) في ازدياد مستمر دائماً". ويأتي الرد القرآني حاسماً: إن قيود الأنتروبيا وضوابطها إنما تنطبق على العمليات الجارية داخل الكون والمحكومة بقوانينه؛ أما الذي سنّ تلك القوانين وحدد الشروط الأولية للكون، فلا تقيده هذه النظم كما تقيد العمليات الفيزيائية القابعة داخل الكون؛ فهو سبحانه الذي وضعها، وهو القادر على تجاوزها والتعالي عليها.

٦. التداعيات الحضارية

النموذج القرآني للكون بوصفه نظاماً محفوظاً بالإرادة الإلهية ذا إبداء هادف وحفظ فاعل وإعادة مضمونة له تداعيات حضارية تمتد إلى ما وراء اللاهوت والفيزياء.

العدل يستوجب الإعادة

تتمثل الدلالة الحضارية الأكثر مباشرة للنموذج القرآني في إرسائه دعائم العدل الإلهي في صلب بنية الواقع؛ إذ يربط القرآن بين نشأة الخلق وإعادته وبين حتمية المساءلة ارتباطاً مباشراً:

"إليه مرجعكم جميعاً وعد الله حقاً، إنه يبدأ الخلق ثم يعيده ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط." (يونس 4)

غاية الإعادة هي العدل. فالكون ليس محايداً أخلاقياً. وكل فعل خير وكل فعل شر وقع فيه محفوظ في السجل الإلهي وسيُحاسَب عليه حين يُعاد الخلق. و هذه ليست أسطورةً تبعث على الطمأنينة؛ بل هي في النموذج القرآني، نتيجة مباشرة لطبيعة الواقع: فالقوة ذاتها التي تُمسك بزمام الكون وستُعيد تكوينه، هي أيضاً مصدرُ العلمِ المطلقِ والعدلِ المطلق.

إن الحضارة التي تُمثل هذا المبدأ وتستبطنه في وعيها يقيناً ستسلك مسلكاً مختلفاً تماماً عن غيرها؛ إذ ستقاوم الإغواء القائل بأن الظلم الذي يمر في هذه الحياة دون عقاب سيبقى بلا جزاء إلى الأبد. وستظل متمسكة بالتزامها النزيه بالحق حتى في غياب أي رقابة أو سلطة بشرية، لكونها توقن بأن السجل الإلهي محكم ومستوفى، وأن إعادة الخلق وضمان الحقوق مكفولان لا ريب فيهما.

البحث العلمي كواجب عقدي

إن البيان السادس، مقترناً بالأمر الإلهي بالسير في الأرض والنظر، يجعل من البحث العلمي في أصل الخلق وأطواره استجابةً مباشرة للمبدأ العقدي القائم على "الابتداء والإعادة". ففهم كيف بدأ الله الخلق ليس مجرد نشاط علمي دنيوي منفصل عن الدين، بل هو امتثال والتزام بالأمر القرآني للنظر والتفكر في أدلة القدرة التي تبدأ وتُعيد.

وبناءً على هذا الفهم، فإن الحضارة التي تتبنى هذه الرؤية ستستثمر في علوم الكون، والجيولوجيا، وعلم الحفريات، والأحياء، وكل علم يدرس كيف بدأ الخلق وكيف يستمر؛ لا كبدائل للإيمان، بل كأرقى تجلياته وتعبيرات عنه. فالْفلكي الذي يدرس الضبط الدقيق للشروط الأولية للانفجار العظيم، والعالم الشرعي الذي يتأمل الأوصاف القرآنية لنشأة الكون، والمؤمن البسيط الذي يتدبر السماء ليلاً موقناً بأن الله هو من ابتدأ وأمسك كل نجم يراه؛ كل هؤلاء منخرطون في فعل إدراك واعتراف واحد: وهو شهود آيات من يبدأ الخلق ثم يعيده.

الترياق الحاسم للعدمية

إن النموذج المادي الذي يرى الكون متجهاً حتماً نحو "الموت الحراري" والعبثية المطلقة ينطوي على تبعات حضارية وخيمة؛ فإذا كان الكون بلا غاية، وإذا كان كل هذا النظام والتعقيد مجرد مصادفات مؤقتة في الطريق نحو فوضى نهائية، وإذا كان الوعي ذاته ليس سوى ومضة عابرة في سياق عملية مادية لا معنى لها، فإن تأسيس معنى موضوعي والالتزام بواجب أخلاقي يصبح أمراً بالغ الصعوبة. فلِمَ البناء والتعمير إذن إذا كان كل شيء مآله إلى الدمار؟ ولمَ السعي وراء العدالة إن كان الكون غير آبهٍ بها؟ ولمَ تنمية المعرفة وإبراز الجمال إذا كانت الأنتروبيا ستلتهمهما في نهاية المطاف مع كل شيء آخر؟

وهنا يبرز النموذج القرآني بوصفه **الترياق الشافي والكامل لهذه العدمية**؛ فالكون ليس سائراً نحو فوضى عبثية، بل هو سائر نحو "إعادة ونشور" يُحفظ فيها كل عمل، وكل خيار، وكل لحظة جمال أو عدل أو

معرفة أو حب، وتُستوفى حساباتها بالكامل. فالبناء يستحق العناء لأن ما نَبنيه يعكس أثراً من الإبداع الإلهي، والسعي في طلب العدالة أمرٌ غاية في الأهمية لأن العدل منسوج في بنية هذا الكون الذي سيُعاد ليقف بين يدي خالقه، وتنمية المعرفة وإبراز الجمال غاية تستحق الجهد لأنها تعكس صفات الحكمة والجمال الإلهي في كونٍ ممدودٍ ومستدام بالمشيئة الإلهية.

إن هذه البيانات السبعة ليست مجرد تقريرات عقدية، بل هي الأساس المتين لعلة وجود الحضارة وديمومتها، ودافعها للبناء، والبحث عن العدالة، والتمسك بالأمل.

خاتمة: الكون الذي لا يضيع فيه شيء

إن بيانات القرآن السبعة حول الابتداء والإعادة تؤسس لنموذج كوني هو في آنٍ واحدٍ **أكثر اتساقاً من الناحية العلمية، وأعمق دلالة من الناحية الإنسانية** مقارنةً بالبديل المادي.

- **أكثر اتساقاً من الناحية العلمية :**لأنه يوفر إطاراً معرفياً للأسئلة التي تعجز الفيزياء عن الإجابة عنها بمفردها: لِمَ بدأ الكون في حالة من الأنتروبيا المنخفضة للغاية؟ ولِمَ جاءت قوانينه وثوابته مضبوطة بدقة لتسمح بالتعقيد والحياة؟ ولِمَ تظل هذه القوانين مطردة وثابتة عبر الزمن الكوني؟ وما الذي يقع خلف هذا النظام المادي الذي نلاحظ شروطه الحدّية ولكننا نعجز عن تفسيرها من داخله؟
- **أعمق دلالة من الناحية الإنسانية :**لأنه يجذر العدالة، والغاية، والأمل في بنية الحقيقة والوجود ذاتها، بدلاً من التعامل معها كمجرد مصادفات تطورية أو تركيبات ثقافية لا أساس عميق لها.

لقد بدأ الكون بفعل خلق وإبداع إلهي، وهو مستدام في كل لمحة ونفس بمشيئة إلهية، وقوانينه تعكس حكمة الباري، وسيعاد بدقة وتكامل بالقوة ذاتها التي أوجدته أول مرة:

((وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ)) [الروم: 27]

لا شيء في هذا الكون يضيع؛ لا ذرة من مادة، ولا لحظة من زمان، ولا فعل عدلٍ صُنع في الخفاء، ولا كلمة نُطق بها في عتمة الليل، ولا نفس واحدة ترددت في صدر مخلوق.

إن الكون ليس نظاماً مغلقاً إلا بمعنى واحد: وهو أنه لا شيء يخرج عن علم خالقه، وسجله، وقدرته. كل شيء سيعود إليه، وكل شيء سيُحاسب، وكل شيء سيُسترد ويُعاد.

هذا هو الوعد.. والله لا يخلف الميعاد.

الفصل الحادي والعشرون: القرآن الكريم كمصدر للأفكار التكنولوجية

من النص المقدس إلى الاكتشاف العلمي

كل حضارة تكنولوجية كبرى في التاريخ كان يحركها تصورٌ استشرافي لما هو ممكن قبل فترة طويلة من ابتكار الأدوات الكفيلة بتحقيقه؛ فالرؤية تأتي أولاً، ثم تتبعها التكنولوجيا.

ففي عام 1865، تخيل الروائي "جول فيرن" السفر إلى القمر قبل أكثر من قرن من وقوعه فعلياً. واستبقت أجهزة الاتصال في مسلسل "ستار تريك (Star Trek) "الهواتف المحمولة بعقود قبل أن تصبح حقيقة ملموسة. ومرة تلو الأخرى، يتبع التقدم التكنولوجي هذا النمط المألوف: الرؤية تسبق، والتطبيق يلحق.

ويمتلك العالم الإسلامي مصدراً للرؤية التكنولوجية أثري وأعمق بما لا يقاس من خيال أي كاتب علمى؛ وهو القرآن الكريم نفسه. لقد أودع الله سبحانه في وحيه الخاتم أوصافاً لظواهر وقدرات لا نظير لها في التكنولوجيا البشرية في القرن السابع الميلادي، بل ولا نظير لها في كثير من الأحيان حتى في تكنولوجيا القرن الحادي والعشرين. وليست هذه الأوصاف مجرد تكهنات خيالية، بل هي تقريرات لحقائق وقدرات واقعية، وُثِّقت في النص الأكثر موثوقية وثباتاً في التاريخ البشري.

والسؤال المطروح هنا هو: هل سيقرأ العالم الإسلامي هذه الأوصاف بوصفها تقارير تاريخية مغلقة، أم كدعوات مفتوحة للبحث والاستقصاء؟ تماماً كما قرأ ابن الهيثم إشارات القرآن إلى الضوء، وكما قرأ البيروني إشاراته إلى بنية الأرض، وكما قرأ الخوارزمي إشاراته إلى ميزان العدل.

يستعرض هذا الفصل أربعة أوصاف قرآنية لظواهر تنتظر بحثاً علمياً وتكنولوجياً جاداً. ويُعرض في كل منها النص القرآني، ثم يُحدد السؤال العلمي الذي يثيره، مع إشارة موجزة إلى اتجاه البحث الحالي في ذلك المجال. وليس الهدف هنا تقديم الحلول، بل فتح الأبواب.

إن الغرض من هذا الفصل ليس الادعاء بأن القرآن يحتوي على مخططات هندسية أو مواصفات فنية لتقنيات المستقبل، ولا يدعي أن كل إمكانية تكنولوجية نناقشها هنا مخبوءة صراحة في النص؛ بل يسعى الفصل إلى استكشاف ما إذا كانت الأوصاف القرآنية لأحداث وظواهر حقيقية يمكن أن تعمل كمصادر للإلهام العلمي، والأسئلة البحثية، والتحفيز التكنولوجي. فلقد بدأت القفزات المعرفية الكبرى عبر التاريخ بأفكار كانت تبدو مستحيلة قبل أن تصبح قابلة للتحقيق، ولعل القرآن يحفز اتجاهات جديدة من البحث لدى العلماء والمهندسين المستعدين لاستكشاف آفاقه و دلالاته.

١. استقلالية الفكر عن اللغة: فكرة قراءة العقل

يُسجّل القرآن حوارات بالعربية بين أشخاص لم يكونوا يتكلمون العربية: المحادثة بين موسى وفرعون، وكلام الجن السبئيين مع بعضهم، والحوار بين إبراهيم وأبيه، والتبادل بين سليمان وملكة سبأ. ويُسجّل محادثات بين الله والملائكة، وبين الله وآدم، وبين الله والشيطان. ويُسجّل ما قاله الجن فيما بينهم حين سمعوا القرآن يُتلى.

ولم يتكلم أي من هؤلاء العربية. ومع ذلك يُقدّم القرآن جميع كلامهم في أرقى صيغه العربية.

وهذا يطرح سؤالاً يُفضي، حين يُتتبع بعناية، مباشرة إلى أحد أهم حدود علم الأعصاب الحديث والتقنية.

هل "ترجم" الله كلامهم؟ وإن كان الأمر كذلك، هل ترجمه كلمة بكلمة، أم معنى بمعنى، أم شيئاً أكثر جوهرية من الاثنَين؟

المفتاح العلمي

يُشير علم الأعصاب الحديث بصورة متزايدة إلى أن كثيراً من التمثيلات المفاهيمية موجودة على مستويات أعمق من التعبير اللغوي المحدد.

حين يُفكّر إنسان في مفهوم "الماء"، تتولّد نمط التنشيط العصبي الممثِّل لذلك المفهوم قبل أن يختار الدماغ كلمة "water" بالإنجليزية أو "ماء" بالعربية أو "eau" بالفرنسية أو أي صيغة لغوية أخرى. فالمفهوم موجود بوصفه نمطاً عصبياً مستقلاً عن اللغة. واللغة هي طبقة الترميز المُطبَّقة على ذلك النمط لحظة التعبير، لا أصل الفكرة ذاتها.

وهذا يعني أنك لو استطعت التقاط الإشارة العصبية الممثِّلة لفكرة بصورة مباشرة، قبل ترميزها في أي لغة بعينها، لأمكنك الوصول إلى المعنى الخالص الذي يمكن ربطه بعد ذلك بأي لغة تختارها.

وتقديم القرآن جميع الكلام الإنساني والملائكي بعربية مثالية ليس ترجمة بالمعنى التقليدي. إنه تعبير عن المعنى الخالص، الإشارة المعادلة عصبياً لما قصده كل متكلم، مُعبَّراً عنه بالعربية التي اختارها الله وعاءً للوحي الأخير. ولم تجرِ ترجمة كلمة بكلمة. ولم يُفقَد معنى في التقديم. فالفكرة الأصلية عُبِّر عنها مباشرة في صيغتها العربية الكاملة.

الفكرة التكنولوجية

إن الفكرة التي تنتظر التطوير والابتكار هي ابتكار مستشعر (حسّاس) يمكنه رصد الإشارات الكهربائية المستقلة عن اللغات، والتي يولدها الدماغ لأي فكرة أو خاطر، وابتكار خوارزمية قادرة على ربط تلك الإشارة بأي لغة مستهدفة.

وبالمعنى العملي التطبيقي: جهاز يقرأ الفكرة مباشرة من الوعي قبل نطقها، ثم يصيغها ويعرضها باللغة التي يحتاجها المتلقي.

وهذا أقل بُعداً عن الواقع الراهن مما قد يبدو:

- مشروع في جامعة كاليفورنيا بسان فرانسيسكو بقيادة الجراح العصبي د. إدوارد تشانغ أثبت القدرة على توليد جمل مفهومة من أنماط النشاط العصبي المُسجَّل من مراكز الكلام في الدماغ دون أن يتكلم الشخص بصوت مسموع.
- شركة ميتا (فيسبوك سابقاً) استثمرت في بحث واجهات الدماغ والحاسوب الرامي إلى فك تشفير الكلام المقصود مباشرة من الإشارات العصبية بسرعات تفوق بكثير تقنية التعرف الصوتي الراهنة.

وهذه الجهود في مراحلها الأولى وتواجه تحديات تقنية جوهرية. لكن اتجاه السير واضح، والإطار القرآني يُقدّم التأسيس النظري لسبب إمكانية ذلك، إذ الأفكار مستقلة عن اللغة على المستوى العصبي، ويُقدّم أقوى دافع متخيَّل للمضي فيه.

وتنطق فكرة ثانية مباشرة من الفكرة الأولى: فإذا أمكن تطوير مستشعر لقراءة الأفكار، ستبرز حاجة مساوية لها في الأهمية لابتكار نظام مضاد؛ وهو نظام يعمل على تشويه الإشارة العصبية أو تشفيرها قبل أن تتمكن الأجهزة الخارجية من رصدها وتفسيرها. وإن وصف القرآن للنظام الأمني الكوني الذي حجب الجن عن اعتراض الوحي الإلهي ، حيث مُلئت السماء بحرس شديد وشهب ترصد المستمعين غير المصرح لهم ، يمثل نموذجاً مفاهيمياً لهذا الأمر تماماً: نظام رصد وتشويش يحمي قنوات المعلومات من الاعتراض غير المصرح به.

وتشكل هاتان الفكرتان (قراءة الأفكار وتشفير الأفكار) معاً أجندة تكنولوجية متكاملة، تمتد تطبيقاتها من مساعدة الأشخاص ذوي الإعاقات النطقية على التواصل، إلى حماية الخصوصية في عصر تتزايد فيه قوة تكنولوجيا المراقبة العصبية وتتغول باطراد.

2. من المعنى إلى اللغة: الأفق المستقبلي القادم

إن أحد أهم التطورات في مجال الذكاء الاصطناعي هو قدرة الآلات المتزايدة على فصل المعنى عن القالب اللغوي؛ إذ تقوم أنظمة الترجمة الحديثة بالفعل بتحويل الكلام من لغة إلى أخرى عبر بناء "تمثيلات دلالية وسيطة" لا ترتبط بأي لغة معينة.

وقد تحدث عملية مماثلة في نهاية المطاف بين "الفكرة" واللغة ذاتها.

فقد أثبت الباحثون في علوم الأعصاب و"واجهات الدماغ والحاسوب" (Brain-Computer Interfaces) بالفعل القدرة على فك تشفير فئات محدودة من الكلام، والصور، والنوايا، من خلال أنماط النشاط العصبي. ورغم أن هذه التكنولوجيا لا تزال في مهدها، فإن الاتجاه العام واضح: يحاول العلماء بشكل متزايد تحديد المحتوى المفاهيمي المتمثل داخل الدماغ قبل التعبير عنه لغةً منطوقة أو مكتوبة.

وإذا كُتب لهذا الجهد النجاح، فقد تصبح الأنظمة المستقبلية قادرة على تحويل الأفكار مباشرة إلى لغة؛ بحيث يفكر الإنسان في مفهوم ما فيُصاغ على الفور ككلام أو نص دون المرور بعملية النطق اللفظي المعتادة. بل قد تقوم الأنظمة الأكثر تقدماً بترجمة تلك المفاهيم مباشرة إلى لغات متعددة في آن واحد.

وتظل هذه الاحتمالات رهن التكهنات والاستشراف، لكنها توضح مبدأً يبرزه القرآن الكريم مراراً وتكراراً: وهو أن المعنى أعمق من اللغة، فاللغة وعاء مركبة، والفكرة تسبق القول، تماماً كما تسبق النيةُ العمل.

كما يسلط هذا الاحتمال الضوء على الكفاءة الفائقة للتواصل الإلهي الموصوف في الوحي؛ فالقرآن يصور مراراً نقل المعرفة والهداية والأوامر بأمانة تامة ومطلقة. ولئن كانت التكنولوجيا البشرية قد لا تقترب أبداً من كمال التواصل الإلهي، فإن جهودها للانتقال من الأنماط العصبية إلى المفاهيم، ومن المفاهيم إلى اللغة، تمنحنا لمحة عن كيفية عمل التواصل عند مستويات أعمق من مجرد الكلام وحده.

إن الأهمية المعرفية لهذا الأمر بالنسبة للعلماء والمهندسين المسلمين تعد بالغة العمق؛ فبدلاً من النظر إلى القرآن الكريم كصنوٍ للتوجيه الأخلاقي الفردي فحسب، يمكنهم أيضاً رؤيته كمصدر لإثارة الأسئلة والاستكشاف: فإذا كان المعنى يمكن أن يوجد مستقلاً عن اللغة، وإذا أصبح من الممكن توليد اللغة مباشرة من الفكر باطراد، فما هي الأشكال الجديدة للتواصل التي تظل ممكنة؟ وما هي العوائق التي تبدو جوهرية اليوم وقد يتبين غداً أنها كانت مؤقتة؟

إن الاكتشافات العظمى تبدأ غالباً عندما يأخذ شخص ما احتمالاً ما على محمل الجد بدرجة تكفي للبحث فيه واستقصائه.

3. القرآن ولغز الوعي والإدراك في الكون

إن أحد أكثر الأسئلة إثارة للاهتمام والتي يثيرها القرآن الكريم يتعلق بطبيعة "الإدراك والوعي" ومدى اتساعه في الخلق نفسه.

يتعامل العلم الحديث عموماً مع الوعي كظاهرة مرتبطة بالأنظمة البيولوجية شديدة التنظيم، وخاصة الدماغ البشري. ومع ذلك، يصف القرآن الكريم العالم المخلوق مراراً وتكراراً بعبارات تشير إلى واقع أغنى بكثير من مجرد كونٍ ميكانيكي صامت.

يقول الله سبحانه وتعالى:

((تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا)) [الإسراء: 44]

ويقول جل وعلا:

((أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ كُلّٞ قَدۡ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسۡبِيحَهُۥۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ)) [النور: 41]

إن هذه الآيات تفعل ما هو أكثر من مجرد وصف عبادة كونية عامة؛ إذ تقرر صراحة أن كل مخلوق "قد علم صلاته وتسبيحه". وبناءً على ذلك، ينسب القرآن إلى الخلق شكلاً من أشكال الوعي، أو العلم، أو الاستجابة، تظل طبيعته خارج نطاق الإدراك البشري المعتاد.

وتحتوي السُّنّة النبوية على تصوير لافت لهذا الواقع؛ فقد روى جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كان يستند إلى جذع نخلة أثناء إلقاء خطبه، فلما صُنع له منبر ولم يعد ﷺ يستخدم الجذع، سمع الصحابة للجذع بكاءً وحنيناً كأنين الناقة، حتى نزل النبي ﷺ فوضع يده عليه فسكن ، ثم قال بعد ذلك: «لو لم أعتنقه لبكى إلى يوم القيامة.«

وسواء فسر المرء مثل هذه الآثار على حقيقتها وظاهرها، أو التمس فهماً أعمق لمعناها، فإنها تشير إلى رؤية للخلق تجعله أكثر استجابة ووعياً مما يفترضه البشر عادة.

تجربة الشق المزدوج: لغز كمومي

في عام 1801، أجرى العالم موسوعي المعرفة "توماس يونغ" (1773–1829) تجربة أساسية في علم البصريات عُرفت فيما بعد بـ "تجربة الشق المزدوج (Double-Slit Experiment) ."وسلّط يونغ مصدراً ضوئياً مترابطاً (كان عبارة عن ضوء الشمس المار عبر ثقب صغير في إعداده الأصلي) على لوح يحتوي على شقين متوازيين، وراقب الضوء العابر منهما نحو شاشة تقع خلف اللوح.

وبدلاً من إنتاج شريطين بسيطين يقابلان الشقين، تداخلت الموجات الضوئية وتراكبت فيما بينها؛ مما أدى إلى ظهور **نمط حيود (تداخل)** يتألف من أشرطة مضيئة ومظلمة متبادلة على الشاشة. ولأن الفيزياء الكلاسيكية في ذلك الوقت كانت تعامل الضوء كموجة، فإن هذا السلوك كان متوقعاً؛ غير أن التطورات اللاحقة في ميكانيكا الكم كشفت عن مفارقة أعمق: وهي أن الضوء يتكون أيضاً من حزم طاقة محددة وموضعية تُدعى "الفوتونات."

ودفع الفضول الفيزيائيين لاحقاً — مدفوعين بـ "ثنائية الموجة والجسيم" (الازدواجية الجسيمية الموجية) — إلى إعادة تكرار التجربة باستخدام المادة بدلاً من الضوء؛ فأطلقوا دفقات من الإلكترونات، وذرات الهيدروجين، بل وحتى جزيئات ضخمة مثل "كرة البوكي (Buckyballs) "المكونة من 60 ذرة كربون . وللدهشة، جاءت النتائج متطابقة تماماً؛ فعلى الرغم من كونها مادة فيزيائية ملموسة، إلا أن هذه الجسيمات أنتجت نمط التداخل نفسه.

ولفهم كيفية حدوث ذلك، عدّل العلماء التجربة لإطلاق الجسيمات **واحداً تلو الآخر** .ومن الناحية المنطقية، ينبغي للجسيم المعزول أن يمر إما عبر الشق الأول أو الشق الثاني؛ ومع ذلك، وبمرور الوقت، تراكمت آثار الجسيمات المنفردة على الشاشة لتشكل مجدداً نمط التداخل الموجي نفسه، مما يشير إلى أن كل جسيم يتداخل مع نفسه بطريقة ما!

ولأجل رصد هذه الآلية وهي تحدث عياناً، وضع الباحثون كاشفاً للجسيمات عند الشقين لتحديد المسار الفعلي الذي يسلكه كل جسيم. وهنا حدث أمر غامض؛ إذ أدت عملية القياس والملاحظة إلى تغيير النتائج بالكامل! ففي اللحظة التي نَشط فيها الكاشف، اختفى نمط التداخل الموجي، وتصرفت الجسيمات مثل المقذوفات الكلاسيكية (الرصاص)، مشكلةً **شريطين متميزين** فقط على الشاشة. وعند إيقاف تشغيل الكاشف، عاد نمط التداخل للظهور مجدداً.

أدى هذا إلى بروز اللغز الكمومي العميق المعروف بـ **"أثر الملاحظِ** .(Observer Effect) **"**ولسبر أغوار هذا الأمر بعمق أكبر، صمم الفيزيائيون تجربة أكثر دقة ودهاءً: حيث تركوا الكاشف قيد التشغيل ليتفاعل مع الجسيمات، لكنهم عدلوا النظام بحيث تُمحى البيانات المستقاة ولا تُسجل أبداً Quantum) Eraser).

وعندما جُمعت البيانات ثم أُتلفِت قبل أن يراها أي إنسان، حافظت الجسيمات على نمط الحيود الموجي الخاص بها؛ لكن في اللحظة التي بدأ فيها النظام بتسجيل البيانات وتخزينها، ارتدت الجسيمات فوراً إلى نمط الشريطين. وأوضح هذا أن سلوك النظام لا يتوقف مجرد التفاعل المادي مع الكاشف، بل يعتمد على ما إذا كانت معلومات المسار قابلة للمعرفة في نهاية المطاف أم لا.

ويبقى السؤال المحير قائماً: كيف "تعلم" هذه الجسيمات بأنها تحت الملاحظة أو التسجيل؟ فعند مراقبتها، تتحرك وفق مسارات محددة بدقة كالأجسام الكلاسيكية؛ أما عند غياب الرقابة، فإنها توجد في سحابة من الاحتمالات تُعرف بـ **"حالة التراكب الكمي** (Superposition) **"**حتى تصطدم بالشاشة.

وقد مال "يوجين فيغنر" وهو أحد الرواد الأوائل لميكانيكا الكم والحائز على جائزة نوبل في الفيزياء عام 1963 بشكل مشهور إلى هذه النتيجة قائلاً:

"سيبقى أمراً لافتاً، ومهما تطورت مفاهيمنا المستقبلية، فإن مجرد دراسة العالم الخارجي قد قادت إلى النتيجة العلمية القائلة بأن محتوى الوعي هو الحقيقة العالمية القصوى."

وحتى يومنا هذا، يظل تقديم تفسير حاسم ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه لـ "أثر الملاحظ" واحداً من الآفاق والحدود القصوى في علم الفيزياء. وإن أي عقل شاب من الجيل القادم ينجح في حل هذا اللغز حلاً قاطعاً، سينضم شبه مؤكد إلى مصاف الحائزين على جائزة نوبل.

والقرآن يحث المؤمنين لا على إقصاء هذه الأسئلة، بل على تدبرها والبحث فيها؛ فإذا كان كل جزء من أجزاء الخلق يشارك في واقع ملموس من التسبيح والطاعة لا يحيط به البشر بعد، فإن فهم ولو جزء يسير من هذا الواقع قد يمثل أحداً من أكبر الآفاق العلمية المستقبلية.

وربما تكشف الاكتشافات المستقبلية عن أبعاد من الوعي، أو الاستجابة، أو تبادل المعلومات في الطبيعة يعجز العلم الحالي عن تخيلها، وربما لا تكشف. فالقرآن لا يمنحنا تفاصيل تقنية، بل يقدم لنا سؤالاً يسترعي البحث والتدبر؛ وتاريخ العلم يظهر مراراً وتكراراً أن الاكتشافات العظمى تبدأ عندما يأخذ شخص ما احتمالاً ما على محمل الجد بدرجة تكفي لاستكشافه. وإن القرآن يدعونا للنظر إلى الخلق بهذا النوع من الفضول والمعرفة:

((وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡ)).

٤. النقل الفوري: عرش بلقيس

يُسجّل القرآن أحد أكثر الأحداث التقنية استثنائية في تاريخ الإنسانية في تبادل واحد بين النبي سليمان ومن في حضرته:

"قال يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين. قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين. قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك، فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربي." (النمل 38-40)

عرش ملكة سبأ، جسم مادي ضخم كان في اليمن، نُقل إلى حضرة سليمان في القدس في أقل من طرفة عين: "قبل أن يرتد إليك طرفك"، أي في جزء من الثانية.

السؤال العلمي

يصف هذا النص نقلاً فيزيائياً فورياً لجسم ضخم عبر مئات الكيلومترات. والآلية المستخدمة، الموصوفة فحسب بـ"علم من الكتاب"، لم تكن حركة فيزيائية تقليدية عبر الفضاء. فالجسم لم يسافر. بل وصل.

وتُقدّم الفيزياء الحديثة إطارَين نظريَّين ذوَي صلة بهذا الوصف، لم يتحقق أي منهما بعد لأجسام ضخمة لكن كليهما يمثل مجالات بحث علمي جاد فاعل.

النقل الكمومي ينطوي على انتقال حالة كمومية من موقع إلى آخر دون النقل الفيزيائي للمادة، باستخدام ظاهرة التشابك الكمومي. وقد تحقق النقل الكمومي تجريبياً لجسيمات وفوتونات فردية. ويظل تحدي توسيعه ليشمل أجساماً ضخمة من أعمق المسائل المفتوحة في الفيزياء.

تحويل المادة إلى طاقة وإعادة تحويلها كآلية لنقل العرش يبقى في مجال التكهنات النظرية، لكن فيزياء تكافؤ المادة والطاقة التي أرساها أينشتاين في $E=mc^2$ تطرح الإمكانية النظرية لتحويل المادة إلى طاقة ونقل تلك الطاقة وإعادة تحويلها إلى مادة في الوجهة. والطاقة اللازمة للأجسام الضخمة تبعد بعداً كبيراً عن أي تقنية بشرية راهنة، لكن الفيزياء لا تستبعدها من حيث المبدأ.

الفكرة التقنية

الحدث الموصوف يحمل تشابهاً مفاهيمياً مع ما يُسميه القراء المعاصرون النقل الفوري: نقل أجسام مادية من موقع إلى آخر دون اجتياز الفضاء الفاصل. والآلية التي وظّفها "الذي عنده علم من الكتاب" لا تزال مجهولة، لكن الحدث موثّق بوصفه حقيقياً. لقد وقع. والفيزياء التي أتاحته تنتظر الفهم.

والمسار الراهن لبحث النقل الكمومي، الذي أنجز فعلاً نقلاً موثوقاً للحالات الكمومية عبر آلاف الكيلومترات بالقمر الاصطناعي، يُمثّل أولى الخطوات نحو فهم الفيزياء التي يصفها القرآن. والمسافة بين نقل حالة كمومية ونقل جسم ضخم هائلة، لكن اتجاه السير واضح.

حضارة تأخذ الرواية القرآنية بجدية بوصفها وصفاً لفيزياء حقيقية لا استثناءً معجزياً للفيزياء، ستستثمر في فهم الآلية. والعائد من ذلك سيكون، حرفياً، أكثر التقنيات تحويلية في تاريخ الإنسانية.

٥. الحركة فوق الضوء: سفر جبريل وسؤال السرعة

وصف القرآن للملائكة يحتوي على تفصيل تُرجم باستمرار بطريقة واحدة لكنه قد يحمل معنى أعمق بكثير:

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ

"الحمد لله فاطر السماوات والأرض جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع" (فاطر 35: 1).

كلمة **"أجنحة "**جمع "جناح"، تُترجم تقليدياً بـ"أجنحة". غير أن الجذر "ج-ن-ح" في العربية يحمل مدى دلالياً أوسع بكثير: يُشير إلى الجوانب والأطراف والامتدادات الجانبية لأي شيء. والكلمة لا تصف جناحاً فيزيائياً فحسب بل أي امتداد جانبي أو بُعد لكيان ما.

وترجمة "الأجنحة" التقليدية طالما أثارت سؤالاً أشار إليه المفسرون الكلاسيكيون لكنهم لم يُجيبوا عنه كاملاً قط: لماذا يمتلك ملائكة مختلفون أعداداً مختلفة من الأجنحة، اثنَين أو ثلاثة أو أربعة تحديداً؟ فإن كانت الأجنحة زوائد للطيران الفيزيائي، فالتفاوت يبدو اعتباطياً. أما إن كانت "الأجنحة" تُشير إلى أبعاد الوجود، يصبح التفاوت ذا معنى: خلق الله أصنافاً مختلفة من الملائكة بوصفهم كائنات موجودة في بُعدَين أو ثلاثة أو أربعة أبعاد مكانية على التوالي.

وهذه القراءة مقبولة لغوياً ومتسقة لاهوتياً ومولّدة علمياً بأوجه لا تتوافر في الترجمة التقليدية.

فيزياء الأبعاد العليا والحركة

أثبتت الفيزياء النظرية الحديثة أن كوننا قد يحتوي أبعاداً مكانية تتجاوز الثلاثة التي نرصدها. فنظرية الأوتار تستلزم عشرة أو أحد عشر بُعداً مكانياً لاتساقها الرياضي. وكونيات الأغشية، المناقَشة في الفصل السادس عشر من هذا الكتاب، تقترح أن كوننا المرئي سطح ثلاثي الأبعاد مُضمَّن في فضاء "كتلة" متعدد الأبعاد.

وتداعيات الوجود متعدد الأبعاد على الحركة بالغة الأهمية وذات صلة مباشرة بروايات القرآن عن السفر الملائكي.

تأمّل الإطار الرياضي لـ"أرض المسطحة"، تجربة الفكر الكلاسيكية التي اقترحها إدوين أبوت: عالم ثنائي الأبعاد يسكنه كائنات ثنائية الأبعاد. فكائن ثلاثي الأبعاد يتحرك عبر هذه الأرض المسطحة سيبدو لسكانها بوصفه أجساماً تتجسد فجأة وتتحرك بأساليب تنتهك الهندسة الثنائية الأبعاد وتتلاشى دون اجتياز الفضاء الثنائي الأبعاد الفاصل. ومن منظور الكائن الثلاثي الأبعاد، فهو يتحرك ببساطة في الفضاء الثلاثي الأبعاد بصورة اعتيادية. أما من منظور أرض المسطحة، فحركته تبدو فورية ومستحيلة وغير قابلة للتفسير بأي فيزياء ثنائية الأبعاد.

طبّق الآن هذا الإطار على الوصف القرآني للحركة الملائكية. فالملائكة بوصفهم كائنات موجودة في ثلاثة أو أربعة أبعاد مكانية يتحركون في الفضاء متعدد الأبعاد بصورة اعتيادية من منظورهم الخاص. أما من منظورنا الثلاثي الأبعاد فحركتهم تبدو فورية: يختفون من موقع ويظهرون في آخر دون اجتياز الفضاء الثلاثي الأبعاد الفاصل، لأنهم تحركوا عبر بُعد لا نستطيع رصده.

ويُقدّم هذا الإطار تفسيراً فيزيائياً متسقاً لما يصفه القرآن:

- جبريل يُلقي الوحي على النبي صلى الله عليه وسلم دون اجتياز الفضاء المرصود
- الملائكة يعرجون إلى الله في يوم يبلغ خمسين ألف سنة من زماننا، لأن الزمن ذاته يُعايَش بصورة مختلفة عبر المستويات الأبعادية

- إيصال الملائكة الأوامر الإلهية عبر مسافات كونية في وقت لا يُذكر، لأن المسافة في الفضاء متعدد الأبعاد ضئيلة حتى حين تكون المسافة الثلاثية الأبعاد المقابلة هائلة

وتأمّل محتمل هو أن الوصف القرآني للملائكة "أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع" قد يدعو إلى المقارنة بمفهوم الأبعاد الأعلى. فقد خلق الله أصنافاً مختلفة من الملائكة بوصفهم كائنات بأعداد مختلفة من الأبعاد المكانية، منحهم ذلك قدرات مختلفة للتحرك عبر الفضاءات الأدنى أبعاداً بما فيها عالمنا والوصول إليها.

الفكرة التقنية

الفكرة التقنية التي يولّدها هذا الإطار هي أطمح فكرة في هذا الفصل: تطوير تقنية تصل إلى الأبعاد المكانية الأعلى أو تستغلها للنقل والتواصل.

وهذا لا يزال نظرياً بالكامل. فلا تقنية بشرية أثبتت حتى الآن الوصول إلى أبعاد مكانية تتجاوز الثلاثة التي نرصدها. لكن الفيزياء النظرية التي تُجيز الأبعاد الأعلى راسخة، وعدة برامج بحثية في فيزياء الطاقة العالية تبحث فاعلاً عن أدلة تجريبية على الأبعاد الإضافية عبر تجارب مصادم الجسيمات ورصد موجات الجاذبية.

وفيزيائي مسلم يأخذ الوصف القرآني للملائكة بوصفهم كائنات متعددة الأبعاد بجدية لديه أجندة بحثية محددة: اعثر على الأثر التجريبي للأبعاد المكانية الأعلى، وابحث فيما إذا كان يمكن توجيه الأجسام المادية أو الإشارات عبرها بأساليب تتجاوز قيد سرعة الضوء في الفضاء الثلاثي الأبعاد.

٦. التشابك الكمومي: اللامحلية دليلاً على الأبعاد الأعلى

إعادة بناء الإطار

أثبت القسم السابق أن الملائكة بوصفهم كائنات متعددة الأبعاد يستطيعون التحرك والتواصل عبر كوننا الثلاثي الأبعاد بأساليب تبدو غير محلية من منظورنا لكنها محلية تماماً من منظورهم. وهذا الإطار، المتجذر في الوصف القرآني لـ"أجنحة" الملائكة لا في الصفات الإلهية، يُقدّم الأساس الصحيح لفهم التشابك الكمومي.

الفيزياء

التشابك الكمومي ظاهرة مُثبَّتة تجريبياً تُظهر فيها جسيمَين متشابكَين ترابطات فورية بصرف النظر عن المسافة بينهما. فقياس أُجري على أحد الجسيمَين يُحدد فوراً حالة شريكه، سواء كان الشريك في المختبر ذاته أو في الطرف الآخر من الكون المرئي. وقد أُكّد هذا تجريبياً عبر مسافات تتجاوز 1200 كيلومتر.

وهذه اللامحلية من أعمق الألغاز غير المحلولة في الفيزياء. تبدو منتهِكة لمبدأ المحلية، مبدأ أن الأشياء لا تتأثر مباشرة إلا بمحيطها الفوري، وهو المبدأ الذي يقوم عليه الفيزياء الكلاسيكية كلها وكثير من نظرية

الحقل الكمومي. وسمّاها أينشتاين "الفعل الشبحي عن بُعد" وأمضى العقود الأخيرة من حياته يحاول تفسيرها بعيداً. وأثبتت التجارب اللاحقة استحالة ذلك: فالكون غير محلي حقاً على المستوى الكمومي.

والإطار متعدد الأبعاد الذي تُوحي به الرواية القرآنية عن الملائكة يُقدّم تفسيراً فيزيائياً متسقاً لهذا اللغز. فجسيمَان يبدوان منفصلَين بمسافة كبيرة في الفضاء الثلاثي الأبعاد قد يكونان في الواقع متجاورَين، أو حتى يشغلان النقطة ذاتها، في بُعد مكاني أعلى. فلامحليتهما الظاهرة في ثلاثة أبعاد هي ببساطة محلية في بُعد أعلى لا نستطيع رصده مباشرة. والفعل "الشبحي" ليس شبحياً على الإطلاق. إنه تفاعل محلي عادي يجري في بُعد لا تستطيع أدواتنا الوصول إليه بعد.

وهذه ليست فكرة جديدة في الفيزياء النظرية. فقد اقترح عدة باحثين من بينهم خوان مالداسينا أن التشابك الكمومي مرتبط بهندسة الزمكان متعدد الأبعاد، والعلاقة بين التشابك وهندسة الزمكان واحدة من أنشط حدود الفيزياء النظرية اليوم، واقعة في تقاطع ميكانيكا الكم والنسبية العامة.

الصلة

الوصف القرآني للملائكة بوصفهم كائنات متعددة الأبعاد تعمل عبر مستويات مختلفة من البُعدية المكانية متسق مع كون فيزيائي يمتلك أبعاداً مكانية تتجاوز الثلاثة التي نرصدها، وتكون فيه اللامحلية الظاهرة للتشابك الكمومي نتيجة للهندسة متعددة الأبعاد لا انتهاكاً جوهرياً للمحلية.

وهذا يُعيد صياغة التشابك الكمومي بوصفه نافذة نحو فيزياء الأبعاد الأعلى: فالتشابك قد يكون متسقاً مع إمكانية امتلاك الواقع الفيزيائي بنية هندسية أعمق مما يبدو للوهلة الأولى.

الفكرة التقنية

للتشابك الكمومي تطبيقات تقنية عملية فعلاً في التشفير الكمومي والحوسبة الكمومية. والتداعية الأعمق للإطار متعدد الأبعاد هي أن التشابك قد يُفهم في نهاية المطاف بما يكفي لهندسته عمداً: إنشاء مسارات عبر الفضاء متعدد الأبعاد للتواصل وربما النقل التي تتجاوز قيود الزمكان الثلاثي الأبعاد.

والقرآن يُوثّق وجود مثل هذه المسارات وأن كائنات مخلوقة، وهم الملائكة، يستخدمونها باستمرار. وفيزياء كيفية عملها هي الأجندة البحثية.

٧. النمط: من الوصف القرآني إلى الرؤية التقنية

الأفكار الأربع المُقدَّمة في هذا الفصل تتشارك بنية مشتركة تستحق التصريح بها:

الوصف القرآني	السؤال العلمي	اتجاه البحث الحالي
صياغة اللسان البشري كافة في عربية القرآن دون فقد بلاغي أو دلالي	الأفكار مستقلة عن اللغة عند المستوى العصبي؛ فهل يمكن فك تشفيرها مباشرة؟	واجهات الدماغ والحاسوب (BCI)، وفك تشفير الكلام عصبيّاً.

تسبيح الكون وإدراكه حي فاعل، لكنه محجوب عن الحس البشري المعتاد حتى يُلاحظ	هل يؤدي فعل الملاحظة أو التسجيل إلى انهيار الحقائق الفيزيائية من سحابة احتمالات إلى حالة محددة (كما في تجربة الشق المزدوج)؟	أثر الملاحظِ الكمومي، تجارب الممحاة الكمومية (Quantum Eraser)، وأسس الوعي الكمومي.
عرش ملكة سبأ يُنقل في أقل من ارتداد الطرف (لمح البصر)	هل يمكن نقل الأجسام المادية دون عبور الفضاء الفاصل بينهما؟	الانتقال الآني الكمومي (Quantum Teleportation)، وتحويل المادة إلى طاقة.
جبريل عليه السلام يقطع المسافات الكونية في زمن لا يُذكر	ما هي الآلية الفيزيائية التي تسمح بحركة أسرع من الضوء؟	الثقوب الدودية (Wormholes)، ومحرك ألكوبيير (Alcubierre drive)، واللا-محلية الكمومية.
العلم الإلهي فوري ومحيط ولا-محلي (محيط بكل شيء في آن واحد)	هل "اللا-محلية" (Non-locality) صفة جوهرية في الحقيقة الفيزيائية يمكن تسخيرها؟	التشابك الكمومي (Quantum Entanglement)، والتعمية (التشفير) الكمومية، والحوسبة الكمومية.

في كل حالة يُوثّق القرآن ظاهرة بوصفها حقيقية. والفيزياء الحديثة إما أثبتت المبدأ الكامن جزئياً كما في اللامحلية الكمومية، أو حددت أطراً نظرية تُجيز الظاهرة كما في ثقوب الدودة والنقل الكمومي. والفجوة بين الوصف القرآني والقدرة التقنية الراهنة هي الأجندة البحثية.

٨. النداء للعلماء والمهندسين المسلمين

تاريخ تحوّل الخيال العلمي إلى علم حقيقي هو تاريخ بشر أخذوا وصف شيء لا يوجد بعد وأيقنوا بإمكانيته وعملوا حتى صار واقعاً. جول فيرن لم يُصمّم برنامج أبوللو. لكن لولا جول فيرن، أو شخص مشابه له، ربما لم يتوق المهندسون الذين أنجزوه إلى المحاولة أصلاً.

أوصاف القرآن للظواهر الخارج عن التقنية البشرية الراهنة ليست خيالاً علمياً. إنها روايات لأحداث حقيقية موثّقة من أوثق مصدر متاح للإنسانية. وهي أوصاف للواقع الفيزيائي لم يرسمه العلم الإنساني بالكامل بعد.

حضارة إسلامية تأخذ هذه الأوصاف بجدية، تقرأ عرش بلقيس بوصفه أجندة بحثية لا معجزة يُتعجب منها وتُوضع جانباً، وتقرأ سفر جبريل بوصفه سؤالاً عن فيزياء الزمكان لا حقيقة فوق الاستقصاء، ستكون حضارة تستثمر في حدود العلم والتقنية التي ستُعرّف القرن القادم.

والنمط الذي أرسيناه في الفصل الخامس عشر من هذا الكتاب مرشد. فعلماء العصر الذهبي لم يتعاملوا مع أوصاف القرآن للظواهر الطبيعية بوصفها روايات مغلقة لا تحتاج إلى مزيد من التحقيق. تعاملوا معها بوصفها دعوات. فابن الهيثم تعامل مع إشارات القرآن إلى الضوء بوصفها دعوة لدراسة البصريات.

والبيروني تعامل مع إشاراته إلى بنية الأرض بوصفها دعوة لقياسها. والخوارزمي تعامل مع إشاراته إلى ميزان العدل بوصفها دعوة لتطوير الرياضيات.

الظواهر الموصوفة في هذا الفصل تنتظر الاستجابة ذاتها: لا الإعجاب السلبي بل الاستقصاء الفاعل. لا التعليق اللاهوتي بل التصميم التجريبي. لا الخلاصة بأن هذه الأمور معجزات تتجاوز الفيزياء، بل الاقتناع بأنها فيزياء تتجاوز الفهم الإنساني الراهن، وأن الفجوة فرصة.

"يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان." (الرحمن 33)

سلطان العلم :هذا هو المفتاح الذي حدّده القرآن لتجاوز حدود العالم المرئي. لا السلطة السياسية ولا القوة العسكرية ولا الثروة المالية وحدها، بل السلطان: السلطة المنبثقة من الفهم. ومن معاني السلطان السلطة المؤسَّسة على الحجة والأدلة والمعرفة. وقد أخبرنا القرآن أربعة عشر قرناً كيف تبدو حدود تلك المعرفة. والسؤال لجيل العلماء والمهندسين والمبتكرين المسلمين في هذا العصر: هل سيُجيبون عن الدعوة؟

خاتمة: الدعوة المفتوحة من القرآن

كل فصل في هذا الكتاب حاجج بأن القرآن مخطط للحضارة: يُقدّم أطراً للحكم والتعليم والاقتصاد والعلم والدفاع والثقافة وأعمق أسئلة الوجود الإنساني. ويُضيف هذا الفصل بُعداً أخيراً لذلك الحجاج.

القرآن أيضاً مصدر للرؤية التقنية: يُوثّق ظواهر حقيقية ويُشير إلى الفيزياء الكامنة فيها، ويتحدى ضمنياً كل جيل من المسلمين بالسؤال: هل سيتتبعون تلك الفيزياء إلى استنتاجاتها العملية؟

التقنيات المُلهَمة من الأسئلة التي تطرحها هذه الأوصاف، من تواصل عصبي متقدم وأساليب نقل جديدة وفهم أعمق للزمكان واستغلال عملي للظواهر الكمومية، قد تُمثّل بعض الحدود المنتظِرة الاستقصاء المستقبلي.

وغرض هذه التأملات ليس التنبؤ باختراعات مستقبلية أو الادعاء بيقين علمي حيث لا يوجد. بل إحياء عادة عقلية حضارية: قراءة القرآن بتوقع أنه يحتوي لا على هداية للعبادة والأخلاق فحسب، بل على أسئلة تستحق الاستقصاء وإمكانات تستحق الاستكشاف وآفاق تستحق المطاردة. فالاكتشافات الكبرى كثيراً ما تبدأ بسؤال. والقرآن من أغنى مصادر الإنسانية بالأسئلة.

وقد وقع العصر الذهبي لأن حضارة قررت أخذ دعوات القرآن إلى المعرفة بجدية تامة كاملة وبلا اعتذار. وتقنيات العصر الذهبي القادم منتظِرة في الصفحات ذاتها.

"اقرأ باسم ربك الذي خلق." (العلق 1)

الدعوة لم تنتهِ.

الخاتمة: الحضارة التي لا تزال تُبنى

السؤال الذي بدأ به هذا الكتاب

بدأ هذا الكتاب بسؤال هو في آنٍ واحد تاريخي ولاهوتي وعملي إلحاحي: ماذا يقول القرآن حول كيفية تنظيم الإنسان لحياته المشتركة على الأرض؟

والجواب، الذي تكشّف عبر أحد وعشرين فصلاً وثلاثة أجزاء، يمكن الآن صياغته كاملاً.

القرآن مخطط للحضارة. إنه أشمل وأكثر اتساقاً داخلياً وأكثر استشرافاً للمستقبل من أي مخطط لبناء الحضارة الإنسانية وُضع أمام الإنسانية. فهو يعالج كل ميدان لا يستطيع مجتمع الصمود دونه: الطابع الأخلاقي لشعبه، وعدالة حكمه، وعمق معرفته، ونزاهة اقتصاده، وصرامة علمه، وقوة دفاعه، وثراء ثقافته. ولا يُقدّم المبادئ لهذه الميادين وحسب، بل التعليمات المحددة والدقة اللغوية والتسلسل التربوي والمنطق الحضاري الذي يربطها في كل موحد.

وقد أثبت مرة، أنه يعمل.

العصر الذهبي للحضارة الإسلامية، الذي درسناه في الفصل الخامس عشر من هذا الكتاب، لم يكن حادثة تاريخية أو ثمرة جغرافيا محظوظة. كان نتيجة مباشرة لمجتمع من العلماء والحكام قرر جماعياً ومؤسسياً أخذ القرآن بجدية بوصفه دليلاً شاملاً للحياة الإنسانية والمعرفة. فقرأوا أمره بالقراءة وقرأوا كل شيء. واتبعوا دعوته لمشاهدة الخلق وأسسوا أكثر المؤسسات العلمية تقدماً شهده العالم قبل الحديث. وأخذوا تكليف الخلافة بجدية وأنتجوا إنجازات في الرياضيات والطب والبصريات والفلك والكيمياء والفلسفة وعلم الاجتماع رسمت مسار المعرفة الإنسانية لقرون بعد بلوغ حضارتهم ذروتها.

المخطط عمل. والحضارة التي أنتجها كانت حقيقية. والأدلة في السجل التاريخي: في الجذور العربية لكلمتَي "algebra" و"algorithm"، وفي التقنيات الجراحية التي دارت كليات الطب الأوروبية بكانون ابن سينا ستة قرون، وفي نظرية البصريات التي أرساها ابن الهيثم وبنى عليها كبلر ونيوتن، وفي المعرفة الجغرافية التي أسهمت قياسات البيروني في إثرائها وعالَم لم يُعِد اكتشاف دقتها إلا بعد قرون.

الحضارة التي يصفها مخطط القرآن قد شُيّدت. والسؤال الذي تعالجه هذه الخاتمة هو: لماذا تراجعت؟ وما الذي كلّف العالم هذا التراجع؟ وما الذي يلزم لإعادة بنائها؟

ما كلّفه التراجع

حين بدأت الثقافة الفكرية للعصر الذهبي بالضيق، وحين تقلّص نطاق الأسئلة المقبولة للبحث العلمي، وحين تباطأت حركة الترجمة وضاق منهج المدارس وأفسح روح الاستقصاء المنضبط المجال لثقافة النقل والحفظ، لم تكن الخسارة خسارة العالم الإسلامي وحده.

كانت خسارة الإنسانية.

تأمّل ما توقف. في القرن الحادي عشر أرسى ابن الهيثم المنهج التجريبي بستة قرون قبل أن يُقنّنه فرنسيس بيكون في أوروبا. وحسب البيروني محيط الأرض بهامش خطأ لا يتجاوز واحداً بالمائة من القياس الحديث. ووصف ابن سينا الانتقال المعدي للمرض واقترح مبادئ الحجر الصحي بثمانية قرون قبل نظرية الجراثيم. وطوّر ابن خلدون علماً اجتماعياً منهجياً بخمسة قرون قبل أن يتبلور هذا التخصص في أوروبا. واخترع الزهراوي أدوات وتقنيات جراحية ظلت معيار الرعاية ستة قرون.

ولو استمر هذا المسار لكانت الثورة العلمية للقرن السابع عشر وقعت في القرن الثاني عشر. وكانت الثورة الصناعية حلّت في القرن الرابع عشر. وكانت الإنجازات الطبية للقرنَين التاسع عشر والعشرين جاءت قبل ثلاثة أو أربعة قرون، مُنقِذةً مئات الملايين من الأرواح من أمراض كان يمكن فهمها وعلاجها في وقت أبكر بكثير.

هذا ليس تكهناً حنينياً. بل تقييم رصين لما يُكلّفه توقف حضارة علمياً منتجة بالمقاييس الإنسانية. المعرفة التي لم تُطلب، والأمراض التي لم تُشفَ، والتقنيات التي لم تُطوَّر، والمعاناة التي لم تُخفَّف لأن حضارة انكفأت على ذاتها في اللحظة التي كان ينبغي أن تدفع بأقصى ما تستطيع نحو الخارج: كل هذا ينتمي إلى ميزان ما ضاع حين توقف العالم الإسلامي عن الإجابة عن دعوات القرآن إلى المعرفة.

والمسؤولية عن هذه الخسارة مُشتَرَكة. كان اجتياح المغول لبغداد عام 1258م ضربة خارجية كارثية. وكان الضيق الداخلي للثقافة الفكرية الذي سبقه واستمر بعده جرحاً ذاتياً. وكلاهما حقيقي. وكلاهما مهم. وكلاهما يحمل درساً لا يستطيع هذا الجيل من المسلمين إغفاله.

ما تُثبّته الأجزاء الثلاثة معاً

حاجج هذا الكتاب قضيته المحورية عبر ثلاث حركات، كل منها تبني على السابقة.

الجزء الأول أرسى البنية: سبعة أعمدة، كل منها متجذر في تعليم قرآني محدد، وكل منها لا غنى عنه للآخرين، تشكّل معاً عمارة حضارية كاملة ليست مجرد كافية للازدهار الإنساني بل مصممة له. حضارة مبنية على الأعمدة السبعة جميعاً في آنٍ واحد، على الأساس الأخلاقي والحكم العادل والمعرفة العميقة والاقتصاد النزيه والعلم الصارم والدفاع القادر والثقافة الغنية، هي حضارة قادرة على الصمود وخدمة شعبها والإسهام في تقدم الإنسانية جمعاء.

الجزء الثاني أرسى الممارسة: أن العمارة الحضارية القرآنية لا تتحقق بالمؤسسات وحدها بل بالناس، بشر محددون استوعبوا تعليمات قرآنية بعينها استيعاباً عميقاً بما يكفي لتشكيل قراراتهم في اللحظات التي تُشكّل فعلاً طابع الحياة. التاجر الذي يتذكر الفجر لحظة الإغراء. والوالد الذي يُسلسل تعليم أبنائه بالطريقة التي سلسل بها لقمان تعليم ابنه. والعالِم الذي يتابع الفضول بأمانة إبراهيم الجريئة وهو يتأمل النجوم. والمؤمن الذي يصون جسده وبيئته وحضوره العام بالعناية التي تستوجبها محبة الله للجمال.

الجزء الثالث أرسى الأفق: أن القرآن ليس مجرد دليل لما تعرفه الإنسانية بالفعل، بل بوصلة تُشير بثبات نحو ما لا تعرفه بعد. الانفجار العظيم. الكون المتمدد. عمق التاريخ الإنساني. فيزياء الفضاء متعدد الأبعاد.

تقنية فك تشفير الفكر-اللغة. آلية النقل الفيزيائي الفوري. طبيعة اللامحلية الكمومية. في كل هذه الميادين كان القرآن يُشير نحو حقيقة أثبتها العلم الإنساني أو يقترب منها أو لم يبلغها بعد.

ومجتمعة تُرسّخ الأجزاء الثلاثة خلاصة تتجاوز التاريخي واللاهوتي إلى الملح والعملي: القرآن يحمل كل ما تحتاجه حضارة لبناء ذاتها وصمودها ودفعها باستمرار نحو حدود المعرفة والقدرة الإنسانية. والحضارة التي يصفها ليست ذكرى. إنها مشروع لا يزال جارياً، توقف لكن لم يُهجَر، ينتظر الجيل الذي سيأخذ دعواته بجدية كافية للإجابة عنها كاملة.

الديون الخمس التي يحملها هذا الجيل

إن كانت حجة هذا الكتاب صحيحة، فإن العالم الإسلامي في القرن الحادي والعشرين يحمل خمس ديون محددة يملك هذا الجيل الفرصة والالتزام بالشروع في سدادها.

الدَّيْن للمعرفة

أول أمر في القرآن كان "اقرأ." لا صلّ ولا صم ولا أدِّ أي فريضة شعائرية، بل اقرأ: أشرك العقل بآيات الله في الكون وفي النفس الإنسانية وفي المعرفة المتراكمة لكل من سبق. وهذا الأمر لم يُوجَّه للنبي وحده. بل وُجّه لكل إنسان سيُواجه القرآن.

مجتمع مسلم لا يستثمر بصورة جادة ومنهجية في التعليم والبحث والاستقصاء العلمي وإنتاج المعرفة الأصيلة هو مجتمع لم يُجِب عن الأمر الأول. إنه مجتمع يتلو "اقرأ" دون تطبيقها. والدَّيْن للمعرفة لا يُسدَّد ببيانات عن أهمية التعليم بل بالالتزام المستمر الممول المؤسسي بإنتاج ابن الهيثم القادم والبيروني القادم وابن سينا القادم والباحثين الذين سيُنجزون الاكتشافات التي كان القرآن يُشير نحوها أربعة عشر قرناً.

الدَّيْن للعدل

أكثر المطالب الحضارية اتساقاً في القرآن، السارية عبر فصوله في الحكم وأخلاقيات الاقتصاد والمبادئ القانونية والتعاليم الاجتماعية، هو العدل. ليس عدل المدونات القانونية المُتقنة وحدها، بل العدل الذي يبدأ في ضمير كل فرد يرفض أن يكون سبب إخفاق المنظومة، من يختار الشفافية حين تتوافر له الميزة، ويُطبّق القانون بالتساوي حين يكون التفضيل ممكناً، ويحفظ معيار الميزان في كل معاملة وكل قرار.

وأمسّ حاجة العالم الإسلامي الحضارية، في بلد إثر بلد ومؤسسة إثر مؤسسة، ليست بنى حكم أكثر تطوراً. إنها استيعاب أخلاق العدل القرآنية على مستوى الضمير الفردي، الجودة التي يُسمّيها القرآن التقوى، العاملة في السوق وقاعة المحكمة ومكتب الحكومة بالقوة ذاتها التي تعمل بها في المسجد في رمضان.

والدَّيْن للعدل يُسدَّد بقرار نزيه واحد في كل مرة، من قِبَل أفراد قرأوا الفصل التاسع من هذا الكتاب وأدركوا أن الفساد الذي يُشاركون فيه، مهما كان دورهم صغيراً، يُضعف بنياناً يعتمد عليه الجميع، وأن النزاهة التي يحافظون عليها مهما كانت هادئة ومهما كان ثمنها، تحفظ شيئاً يحتاجه المجتمع كله.

الدَّيْن للمستقبل

حاجج الفصل الثامن عشر من هذا الكتاب بأن التاريخ الإنساني أعمق وأغنى بكثير من الإطار الزمني التوراتي الضيق الذي هيمن على علم الآثار الغربي. والحضارات التي يصفها القرآن، الإتقان المعماري لعاد وبراعة النحت في الصخر لثمود والمجتمع ما قبل الطوفاني في زمن نوح، تُمثّل فصولاً من التاريخ الإنساني لم تُحقَّق فيها بعد بالكامل، جزئياً لأن إطار التحقيق كان مؤسساً على افتراضات لا يشاركها القرآن.

والدَّيْن للمستقبل هو الدَّيْن للاستثمار في علم الآثار والاستشعار عن بُعد والاستكشاف المائي وبحوث الوراثة الأثرية التي ستكشف تلك الفصول. وهو الدَّيْن لإنتاج علماء وباحثين مسلمين يُقدّمون الإطار الزمني القرآني لتخصصاتهم لا بوصفه قيداً عقدياً بل فرضية بحثية، يطرحون الأسئلة التي يولّدها الإطار ويتبعون الأدلة أينما قادت.

وبصورة أشمل، الدَّيْن للمستقبل هو الدَّيْن لترك العالم بمعرفة أوسع مما وجدناه ومؤسسات عدل أكثر مما ورثناه وفهم علمي أعمق مما تلقيناه وتعاملاً أكثر أمانة مع دعوات القرآن مما استطاع الجيل السابق. فكل جيل من المسلمين يأخذ القرآن بجدية يُقدّم الحضارة التي يصفها خطوة. وكل جيل ينكفئ إلى الشعيرة دون استقصاء والتلاوة دون تأمل والهوية دون مشاركة فكرية يؤخّرها.

الدَّيْن للإنسانية

يصف القرآن مهمة الأمة المسلمة لا بوصفها الحفاظ على الذات بل الشهادة والخدمة للإنسانية جمعاء:

"كنتم خير أمة أُخرجت للناس." (آل عمران 110)

وعبارة **"أُخرجت للناس "**تُثبّت أن وجود الأمة المسلمة ليس في المقام الأول لصالح نفسها. بل لصالح جميع الناس. والمعرفة التي يُنتجها العلماء المسلمون والمؤسسات العادلة التي يبنونها والاكتشافات العلمية التي يُنجزونها والابتكارات التقنية التي يطوّرونها ليست ملكاً للعالم الإسلامي وحده. إنها مساهمات في الإرث الإنساني المشترك، مُقدَّمة بروح التكليف الإلهي ذاته الذي أنتج إنجازات العصر الذهبي في الطب والرياضيات والعلوم، وهي إنجازات خدمت الإنسانية جمعاء بصرف النظر عن الدين.

والدَّيْن للإنسانية يُسدَّد بالسؤال ليس فقط "ماذا يفعل هذا الاكتشاف للمجتمعات الإسلامية؟" بل "ماذا يفعل للبشر؟" فعلاج الأمراض يخدم كل مريض بصرف النظر عن دينه. والإنجاز الرياضي يخدم كل عالم يستخدمه. ومنظومة الحكم العادل تخدم كل مواطن يعيش تحتها. والحضارة الإسلامية الموصوفة في هذا الكتاب ليست حضارة منكفئة على ذاتها تحمي نفسها. إنها حضارة مواجِهة للخارج تُسهم في تقدم الجميع.

الدَّيْن للقرآن

لكل كتاب في هذا العالم مؤلِّف. ووصف مؤلِّف القرآن كتابه بأنه هدى للناس ونور يُضيء الطريق ورحمة للعالمين وتبيان للحق. وهو موجود في العالم منذ أربعة عشر قرناً، قرأه من البشر أكثر مما قرأ أي نص آخر في التاريخ، حفظه في كامله ملايين في كل جيل، يُتلى في كل بلد على وجه الأرض في كل ساعة من كل يوم.

ولا يزال في أعمق معانيه ينتظر.

ينتظر الجيل الذي سيقرأه كما قرأه الكندي: بالاقتناع بأن لا حقيقة يُشير إليها تتجاوز حدود الاستقصاء. وينتظر الجيل الذي سيقرأه كما قرأه الخوارزمي: بفهم أن مبادئه في العدل لها تطبيقات رياضية عملية تحتاج إلى التطوير. وينتظر الجيل الذي سيقرأه كما قرأه ابن الهيثم: بانضباط اختبار أوصافه للظواهر الفيزيائية بالأدلة المستمدة من العالم الطبيعي. وينتظر الجيل الذي سيقرأه كما قرأه ابن خلدون: بعين عالم الاجتماع للأنماط في الصعود والأفول الحضاريَّين التي توثّقها قصصه عن الأمم السابقة بدقة مقلقة.

والدَّيْن للقرآن لا يُسدَّد بالتبجيل وحده، وإن كان التبجيل ملائماً وضرورياً. بل يُسدَّد بالمشاركة: بالانخراط الفكري المستمر المنضبط المتواضع والجريء الذي يأخذ كل دعوة يُمدّها القرآن ويتبعها إلى أقصى ما تقود.

عمارة الأمل

كان هذا الكتاب في جوهره حجة عن الأمل.

ليس الأمل العاطفي الذي يتمنى تحسّن الأمور دون أن يفعل أحد شيئاً مختلفاً. وليس الأمل الحنيني الذي ينظر إلى الوراء نحو العصر الذهبي بوصفه جنة ضائعة يمكن رثاؤها لكن لا استعادتها. وليس الأمل السلبي الذي ينتظر التدخل الإلهي لحل مشكلات أُعطي البشر تكليف معالجتها وقدرة الإسهام فيها.

بل هو أمل المهندس الذي ينظر إلى المخطط ولا يرى ما ضاع بل ما يمكن بناؤه. وأمل العالِم الذي ينظر إلى وصف قرآني لظاهرة فيسأل لا "لماذا لا نستطيع فعل هذا؟" بل "ما الذي نحتاج إلى فهمه لفعل هذا؟" وأمل المربي الذي يقرأ فصل لقمان ويبدأ صباح اليوم التالي في تسلسل تعليمه بصورة مختلفة. وأمل الشاب المسلم المحترف الذي يقرأ الفصل التاسع ويقرر أن المعاملة القادمة التي سيكون طرفاً فيها ستكون نظيفة بصرف النظر عن الثمن.

هذا هو الأمل الذي كان القرآن يبنيه دائماً: ليس الأمل في منح شيء، بل الأمل المنبثق من معرفة ما أُعطيتَ والقرار بتوظيفه.

أُعطيتَ كتاباً يبدأ بأمر القراءة ولا يُلغيه أبداً. وأُعطيتَ مخططاً لحضارة أثبت التاريخ أنها قابلة للتحقق. وأُعطيتَ بوصلة تُشير نحو حقائق لم يرسم العلم الإنساني خريطتها بالكامل بعد. وأُعطيتَ معيار العدل وثقافة الجمال وتربية الحكمة وفيزياء الخلق ورؤية للتاريخ تمتد من الإنسان الأول إلى آخر أيام الكون.

الحضارة التي يصفها هذا المخطط لا تزال تُبنى.

توقفت لكنها لم تكتمل.

تأخرت لكنها لم تُهجَر.

والجيل الذي سيواصلها حيّ اليوم، يقرأ هذه الكلمات، حاملاً القرآن ذاته الذي حمله الكندي، وحمله ابن الهيثم، وحمله البيروني عبر جبال أفغانستان وبين يديه أدوات قياسه وإيمانه الراسخ بأن الأرض يمكن قياسها لأن الله خلقها لتُفهَم.

الكلمة الأخيرة

كل فصل في هذا الكتاب يُفضي في نهاية المطاف إلى هذه اللحظة. فالقرآن يختتم رحلة إبراهيم إلى اليقين بوصف لحظة بلوغه خلاصته: بعد أن فحص النجوم والقمر والشمس ووجد كلاً منها قاصراً، وبعد أن أدار وجهه نحو من خلقها جميعاً، يُقرّر تقريراً هو في آنٍ واحد فعل إيمان وخلاصة عقلية وتعهد حضاري:

"إني وجّهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين." (الأنعام 6: 79)

وجّهت وجهي .لا كلماتي. لا شعيرتي. وجهي: اتجاه انتباهي وتوجّه كياني كله والتزام كل ما أنا نحو من خلق كل ما أستطيع رؤيته ودراسته وقياسه واكتشافه.

هذا ما كان القرآن يطلبه دائماً. لا الأداء. لا التلاوة دون استيعاب. لا الأعمدة السبعة موصوفةً في النظرية حين لا يُشيَّد منها شيء في الواقع. لا الأمر بالقراءة مُكرَّماً في خطب الجمعة ومُهمَلاً في ميزانيات التعليم. لا الدعوة لمشاهدة الخلق مُقرَّة في الخطاب اللاهوتي وغائبة عن مختبرات البحث.

إنه يطلب الإقبال. الإقبال الكامل المُلتزِم الصادق فكرياً والمنخرط عملياً للإنسان بأكمله نحو الحق الذي ظل القرآن يُشير إليه منذ نزل فيه أول كلمة في غار خارج مكة.

تلك الكلمة الأولى لم تكن تعليمة شعائرية. ولم تكن قضية لاهوتية. كانت أمراً وُجّه لرجل لا يُحسن القراءة، بلغة لم يكتشف بعد عمقها الكامل، عن كون لم يستطع هو ولا أحد حيّ في تلك اللحظة أن يتخيل اتساعه.

"اقرأ باسم ربك الذي خلق."

الأمر لا يزال سارياً. والكون لا يزال مليئاً بآيات تنتظر القراءة. والمخطط لا يزال كاملاً. والحضارة لا تزال تُبنى.

أقبل بوجهك. واقرأ.

عن المؤلف

الدكتور ممدوح محمد سلامة هو زميل هندسي سابق في إحدى شركات النفط الكبرى، وزميل مدى الحياة في الجمعية الأمريكية للمهندسين الميكانيكيين(ASME) .

حصل على درجة البكالوريوس في الهندسة الميكانيكية بامتيازٍ عالٍ من مصر، ودرجتي الماجستير والدكتوراه في الهندسة الميكانيكية من معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا (MIT) .

قام بتأليف أكثر من 150 ورقة بحثية تقنية، وحصل على 25 براءة اختراع، وحرر أكثر من 30 من وقائع المؤتمرات الدولية، كما شغل منصب رئيس عدة مؤتمرات دولية متعلقة بالتطويرات البحرية والقطبية.

إلى جانب عمله في مجال الهندسة، يُعدّ د. ممدوح محمد سلامة محاضرًا وناشطًا دعويًا في المراكز الإسلامية بمدينة هيوستن، حيث يُلقي خُطب الجمعة ويقدّم دروسًا ومحاضرات في عطلات نهاية الأسبوع. كما كتب مقالات عن الإسلام نُشرت في عدد من الصحف، وألقى محاضرات توعوية لجماهير مسلمة وغير مسلمة على حدّ سواء.

وهو مؤلف الكتب التالية:

- **انعكاسك في مرآة الإسلام**، وقد خضع لمراجعة واعتماد لجنة الأزهر الدينية وأُجيز لتوزيعه في الغرب.
- **تدبر القرآن من خلال عدسة المصطلحات الرئيسية**.
- **بأسمائه نَهتدي: رحلة إلى غاية الخلق وسرّ الحياة**
- **جواهر القرآن :دُرَر الهداية من الثلاثين جزءًا**

ويعمل حاليًا على عدد من المؤلفات الجديدة المستلهمة من محاضراته، من بينها:

- من الفاتحة إلى الناس: المحور المركزي لكل سورة.
- مذكرات النبي ﷺ.
- صحابة النبي ﷺ.

وتعكس هذه الأعمال التزامه بربط العمق العلمي بالتأمل الإيماني، من خلال هداية القرآن الكريم وتعاليم النبي ﷺ، سعيًا إلى تقديم فهم متوازن يجمع بين الفكر، والروح، والعمل

النص الخلفي للغلاف

قبل أربعة عشر قرناً، لم تكن أول كلمة في الوحي الإلهي أمراً بالصلاة أو الصيام أو أي فريضة شعائرية. كانت أمراً بالقراءة.
تلك الكلمة الواحدة، **اقرأ**، أسهمت في إلهام واحدة من أعظم الحضارات في التاريخ، فأنجبت علماء طوّروا الجبر وأعلوا شأن الطب وحوّلوا علم البصريات وأتقنوا علم الفلك وأرسوا الاستقصاء العلمي ووسّعوا حدود المعرفة الإنسانية.
لم يروا تعارضاً بين الإيمان والاستقصاء. بل رأوا كليهما استجابةً للنداء الإلهي ذاته.

القرآن: مخطط للحضارة والنجاة يحاجج بأن القرآن أعمق بكثير من كتاب للعبادة الشخصية. فهو يُقدّم إطاراً شاملاً للازدهار الإنساني يعالج الطابع الأخلاقي والحكم والعدل والتعليم والحياة الاقتصادية والاستقصاء العلمي والدفاع والتطوير الثقافي.

مُنظَّماً حول سبعة أعمدة تأسيسية، ينتقل الكتاب من عمارة الحضارة إلى الممارسات التي تحفظها ومنها إلى حدود المعرفة الإنسانية. وفي طريقه يستكشف كيف ألهم القرآن أجيالاً من العلماء وشكّل واحداً من أكثر التقاليد الفكرية في التاريخ إشراقاً، ولا يزال يُقدّم أسئلة ورؤى ومنظورات تستحق الاستقصاء الجاد.

هذا كتاب للقارئ الذي يريد أن يفهم ما يقوله القرآن في بناء مجتمع عادل ومطاردة المعرفة وتنمية الطاقة الإنسانية والتفاعل مع العالم الحديث دون التخلي عن المبادئ الخالدة. كُتب للمربين والعلماء والمهندسين والقادة والطلاب وكل من يؤمن بأن الإيمان والتميز الفكري ينتميان معاً.

الحضارة التي يصفها القرآن قد شُيّدت من قبل، بصورة غير مكتملة وجزئية، غير أنها كانت مهيبة في بهائها.
المخطط لا يزال قائماً.
والدعوة لا تزال سارية.
والسؤال هو: هل سيُجيب عنها هذا الجيل؟

هل تريد تعديل نبرة النص أو اختصاره أو توسيع جملة بعينها؟